خريف المحروسة

رواية

خريف المحروسة

رواية

تأليف :

محمد كامل

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

سيد عثمان

رقم الإيداع: 2018/10020

الترقيم الدولي: 5-051-820-977-978

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

خريف المحروسة

محمد كامل

رواية

أشياء حدثت، وأشياء لم تحدث..
وبين ما حدث وما لم يكن مقدرًا له الحدوث..
وجدنا أنفسنا تائهين..

هناك شخصيات تمر في التاريخ دون أن تترك أثرًا..

وهناك شخصيات يقف لها التاريخ..

- ١ -

القاهرة ١٨٣٥

لـم يكـن الذيـن تجمعـوا مـن بسـطاء أهـل المحروسـة وعليـةِ قومهـا منفضـين حـتى تأتيهـم البشـارة بحلـول شـهر رمضـان المبـارك، الجميـع في انتظـار هلالـه، الرجـال قبـل النسـاء، وكبـار السـن قبـل الأطفـال، الـكل متأهـب للاحتفـال، حنينهـم إلى لحظـات الذِّكـر والفـرح بالشـهر الكريـم الـتي تفـوح بالخـير والـبركات تظـل معلقـة في أذهانهـم مـن العـام للعـام، لا تـكاد تنطفـئ جذوتهـا حـتى تشـتعل مـرة أخـرى بحلـول شـهر العـام الجديـد الـذي لا يـكاد يبـدأ حـتى تقـام الولائـم وتعلـق الزينـات، وتضـاء الشـوارع بالمصابيـح، وتعلـو أصـوات المصلـين في صـلاة التراويـح.

يحمـل عـلى عنقـه طفلتـه الصغـيرة «هنـد» الـتي تـرى الدنيـا مـن أعـلى وكأنهـا فراشـة ترفـرف بجناحيهـا الصغيريـن فـوق رؤوس العبـاد، تصفـق بكفيهـا الصغيريـن الرقيقـين، بجانبـه ولـداه «عـلي» و«حسـن»، أعينهـم تتحـرك في سرعـة بـين الزحـام تشـاهد مـا يحـدث، وقـف السـيد «محمـود الـورداني» يتابـع مظاهـر اسـتطلاع هـلال الشـهر الكريـم كعادتـه مـع أبنائـه كل عـام، لا.. بـل منـذ أن كان هـو نفسـه صغـيرًا يحملـه أبـوه بنفس الطريقـة الـتي يحمـل بهـا هنـدَ الآن، كان يشـعر أن يديه تطـول السـحاب، كأن اللـه قـد فضَّلـه عـلى العالمـين واختـاره ليقـترب مـن السـماء ويـرى النـاس مـن عـلٍ، كان يمسـك بكفيـه عمامـة أبيـه يخـشى أن يتركها فيسـقط أو يهبـط إلى الأرض ويعـود كسـائر البـشر يخطـو بقدميـه عليهـا، بعـد أن كان محلقًـا بـين السـماء والأرض.

صفقـت هنـدُ بكفيهـا جـذلًا وهـي تـصرخ مـن فـرط سـعادتها وانبهارها في

ليلة الرؤية وهي ترى طوائف الشعب من الأنحاء كافة بين أيديهم الشموع والمشاعل والفوانيس في موكب لأرباب الحرف من الطحانين، والخبازين، والزياتين، والجزارين، والفكهانية، وصانعي الفوانيس، وحاملي الشموع، على عربات مزدانة بالزهور والأوراق الملونة، وموكب الطرق الصوفية بالشارات والبيارق يمرون من أمامهم.

اتسعت ابتسامتها لما رأت الفرق الرمزية من الجيش والشرطة بموسيقتها المميزة متجهة في موكب الرؤية إلى المحكمة الشرعية تتقدمهم الموسيقى والطبول، الموكب من القلعة ضم المحتسب وشيوخ التجار، تحيط بهم فرق الإنشاد الديني ودراويش الصوفية، وتتقدم المواكب فرقة من الجنود، الكل في انتظار البشارة، هتفت هندُ ليعلو صوتها فوق أصوات الجمع الغفير من الناس:

- هل وصل رمضان يا أبي؟

ابتسم الأب وهو يُحكِم جلستها فوق عنقه ويمسك بكفيه ساقيها المتدليتين على صدره:

- سنعرف بعد قليل يا صغيرتي.

ردت متسائلة في سرعة:

- وهل سنراه حين يصل؟

ابتسم وأجاب:

- بل سنرى هلاله فوقنا، أو سيخبرونا أن هلاله قد ظهر، وغدًا إن شاء الله ربما نرى الهلال واضحًا من سطح البيت عندنا.

جذب حسنُ السيد محمود من ملابسه وهو يشير لأعلى:

- انظر هناك يا أبي.

التفت الأب وأخته وأخاه والناس أجمعون على الصواريخ والألعاب النارية والمدافع التي أُطلقت في الهواء، فقال «علي» أكبر الأبناء:

- لقد ثبتت رؤية الهلال.

أضيئت في الحال الأنوار وأُوقدت الشموع على الدكاكين وفي المآذن وأُضيئت المساجد، بينما بعض الممثلين عن أصحاب حرف التجارات والصناعات على العربات في مواكبهم المزينة كالتي تحدث في الربيع، من كان يتفنن في إطلاق النكات والأغاني بصوت عالٍ احتفالًا وابتهاجًا. مشى أمامهم السقاءون بالقِرب، والناس من حولهم يشاهدون، عُلِّقت المواقد والقناديل المضيئة على طول الطريق لتنير للناس الدروب، كأن رمضان قد أتى وأتى معه نورٌ على الأرض ونور الهلال فيفي السموات.

تذكر السيد محمود الورداني ذات يوم، وهو صغير جوار أبيه أيام الحملة الفرنسية، في ليلة الرؤية، وكان قاضي القضاة والمحتسِب ومشايخ الديوان مجتمعين ببيت القاضي، عند ثبوت الرؤية خرجوا في الموكب وأحاط بهم مشايخ الحرف وجملة من العساكر الفرنساوية، وأطلقت المدافع والصواريخ من القلعة والأزبكية، حينها كانت كسوة الكعبة مودعة بمشهد الإمام الحسين حتى موعد دوران المحمل في الأسبوع الثالث من شهر شوال.

في هذا اليوم توجه الوكيل الجنرال فورييه ومشايخ الديوان إلى المشهد الحسيني في انتظار حضور نابليون بونابرت للكشف عن الكسوة، ازدحم الناس زيادة على عادتهم في رمضان، حينها رأى بعينيه الصغيرتين نابليون وقد حضر ونزل عن فرسه عند الباب وأراد العبور للمسجد، فلما رأى ذلك الازدحام، هاب الدخول وخاف العبور وسأل من معه عن سبب هذا الازدحام، فقالوا:

- هذه عادة الناس في نهار رمضان يزدحمون دائمًا على هذه الصورة في المسجد، ولو حصل منكم تنبيه كنا أخرجناهم قبل حضوركم.

فركب فرسه وفرَّ راجعًا وأناب.

أهالي المحروسة من غير المسلمين سواء أكانوا أقباط مصريين، أو أرمن، أو حتى من جنسيات أخرى، تنتظر هذا الشهر؛ لأنه يملأ

المحروسة بالبهجة والسرور، ويضيء لياليها بألوان الاحتفالات المختلفة، ويكثر فيه البيع والشراء، فيأتي الخير مع الشهر لكل الناس كافة وليس للمسلمين خاصة.

كالعادة مأمورون من الوالي، أُغلقت جميع قاعات الخمَّارين بالقاهرة، وتم حظر بيع الخمر من آخر شهر جمادى الآخرة.

عِلية القوم اعتادوا قلب نهارهم ليلًا وليلهم نهارًا في رمضان، ينامون من مطلع الفجر حتى أذان العصر، أو قُبيل ساعة المغرب بقليل، ومنهم من يفطر في الخفاء، لكن عامة الشعب لم يكن يسلك نفس المسلك حتى وإن سَهر كثيرًا بعد العشاء، البعض يصلي التراويح ويحضر حلقات الذكر في المسجد، ثم ينام لبضع ساعات قبل السحور، ومنهم من يبدأ يومه من بعد صلاة الفجر، البعض يكمل نومه لساعتين أو يزيد، ثم يستيقظ ليبدأ عمله من قبل ساعة الضحى بساعتين أو أكثر، ونادرًا ما يُفطر منهم أحدٌ، إلا من كان منهم مريضًا أو على سفرٍ أو قد أصيب بعذر يمنعه عن الصيام.

الجو كان شديد الحرارة حتى في تلك الساعة من الليل، فقد مر على بداية أغسطس ستة أيام، معظم الأهالي من متوسطي العمر عاصروا أغلب شهور رمضانهم في برد الشتاء؛ إذ كان نهاره قصيرًا، لا يشعرون معه بجوع أو عطش نتيجة الامتناع لفترة ليست بالطويلة عن الماء، وليله طويلًا يسمح لهم بقليل من السهر والاكتفاء من النوم معًا، أما في عامنا هذا فهم يحملون عبء الصوم مع قيظ الحر والعرق، وإحساسهم بالعطش كما حدث معهم في عامهم الذي مضى، وربما أكثر.

انتقلت مسؤولية استطلاع هلال شهر رمضان المبارك من القضاة إلى المحكمة الشرعية في عهد محمد علي باشا، فقد كان الناس من قبل يخرجون إلى سفح المقطم لرؤية الهلال، وكانت هناك دكة

موضوعة على مكان مرتفع عُرفت بدكة القضاة، أُعدت ليشاهدوا الهلال عندها، استمرت هذه الدكة حتى عهد القائد الفاطميالفاطمي بدر الجمالي الذي أمر ببناء مسجدٍ مكانها واتُخذت مئذنته مرصدًا لرؤية هلال شهر رمضان، فكان قاضي القضاة يخرج لرؤية الهلال ومعه القضاة الأربعة كشهود ومعهم الشموع والفوانيس، ويشترك معهم المحتسب وكبار تجار القاهرة ورؤساء الطوائف والصناعات والحرف.

من منتصف شعبان والسيد محمود يحكى لأبنائه يوميًا الحكايات التي سمعها صغيرًا من والده، ومن الشيوخ، عن احتفالات أهل المحروسة قديمًا برؤية هلال رمضان، كان الأطفال وربما الكبار معهم ينتظرون موكب رؤية الهلال والاحتفالات، أكثر مما ينتظرون الشهر نفسه، حكى عمَّا عَلِمَهُ من الشيخ عبد الفتاح مُعلمه في الأزهر، أنه في العصر الفاطمي كان يُعهد للقضاة بالطواف بالمساجد في القاهرة وباقي الأقاليم، لتَفقُّد ما تم إجراؤه فيها من إصلاح وفرش وتعليق المسارج والقناديل، حكى عن «الثُّريا» التي أهداها الخليفة الحاكم بأمر الله إلى مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط التي كان وزنها سبعة قناطير من الفضة الخالصة، وكان يوقد بها في ليالي المواسم والأعياد أكثر من سبعمائة قنديل، ويفرش المسجد بعشر طبقات من الحصير الملون بعضها فوق بعض، وما أن ينتهي شهر رمضان حتى تُعاد تلك الثريا والقناديل إلى مكان أُعد لحفظها فيه داخل المسجد. وقد كانت الدولة في ذلك الوقت تخصص مبلغًا من المال لشراء البخور الهندي والكافور والمسك الذي يصرف لتلك المساجد في شهر الصوم. تلك الفترة كان سوق الشماعين بالنحاسين من أهم الأسواق في المحروسة، فشهر رمضان موسم عظيم لشراء الشموع الموكبية التي تزن الواحدة عشرة أرطال أو أقل، الأطفال كانوا يلتفون حول إحدى الشموع وبأيديهم الفوانيس يغنون ويتضاحكون ويمضون بموكبهم المنير في الحواري من بعد الإفطار

حتى صلاة التراويح.

سوق السمكرية داخل باب زويلة، كان يعجُّ بأنواع الياميش وقمر الدين، وكانت وكالة «قوصون» التي ترجع إلى القرن الثامن الهجري وهي مقر تجار الشام، يُنزل فيها ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والفستق والجوز واللوز والخروب، ولما خربت الوكالة في القرن التاسع انتقلت تجارة المكسرات إلى وكالة مطبخ العمل بالجمالية، حيث خُصصت لبيع أصناف الجوز واللوز وما شابههما.

علم من والده أيضًا أن قديمًا، تَعوَّد الخليفة الخروج إلى عامة الشعب في مهرجان إعلان حلول شهر رمضان من باب الذهب وهو أحد أبواب القصر الفاطمي، متحليًا بملابسه الفخمة وحوله الوزراء بملابسهم المزركشة وخيولهم بسروجها المذهبة، وفي أيديهم الرماح والأسلحة المطعمة بالذهب والفضة والأعلام الحريرية الملونة، وأمامهم الجند تتقدمهم الموسيقى، كان يسير معه في هذا الاحتفال التجار، وصانعو المعادن، والصاغة، وغيرهم، الذين كانوا يتبارون في إقامة مختلف أنواع الزينة على حوانيتهم فتبدو الشوارع والطرقات في أبهى زينة.

موكب الخليفة السلطان كان يبدأ من شارع بين القصرين، حيث قبر الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقبر شجرة الدر، ومساجد الدولة المملوكية مثل مسجد السلطان قنصوة الغوري ومسجد الأشرف برساي، ويسير في منطقة الجمالية حتى يخرج من باب الفتوح، وهو أحد أبواب سور القاهرة الشمالية، ثم يدخل من باب النصر عائدًا إلى باب الذهب بالقصر، وفي أثناء الطريق توزع الصدقات على الفقراء والمساكين، وحينما يعود الخليفة إلى القصر يستقبله المقرؤون بتلاوة القرآن الكريم في مدخل القصر ودهاليزه، حتى يصل إلى خزانة الكسوة الخاصة، فيغيِّر ملابسه ويرسل إلى كل أمير في دولته بطبق من الفضة مملوء بالحلوى، تتوسطه صرة من

الدنانير الذهبية وتوزع الكسوة والصدقات والبخور وأعواد المسك على الموظفين والفقراء، ثم يتوجه لزيارة قبور آبائه حسب عادته، فإذا ما انتهى من ذلك أمر بأن يكتب إلى الولاة والنواب بحلول شهر رمضان.

أما في أيام المماليك، في صباح أول أيام رمضان يصعد المحتسب والقضاة الأربعة إلى القلعة لتهنئة الوالي المملوكي، فيخلع عليهم قفاطين كما جرت العادة. وفي بيوت الأعيان كانت المآدب تُمدُّ للناس ولا يُمنع من يريد الدخول، وكانت لهم عادات وصدقات في ليالي رمضان يطبخون فيها الأرز باللبن، يملئون من ذلك قصاعًا كثيرة، ويوزعون منها على المحتاجين، يجتمع في كل بيت الكثير من الفقراء فيوزعون عليهم الخبز ويأكلون، يعطونهم بعد ذلك دراهم، خلاف ما يوزع من الكعك المحشو بالسكر والعجمية وسائر الحلوى.

وفي مستهل الشهر يجلس السلطان في ميدان القلعة ويتقدم إليه الخليفة والقضاة الأربعة بالتهنئة، ثم يستعرض كميات الدقيق والخبز والسكر والغنم والبقر المخصصة لصدقات رمضان، يعرضها عليه المحتسب بعد أن يكون قد استعرضها في أنحاء القاهرة تتقدمها الموسيقى، فينعم على المحتسب وعلى كبار رجال الدولة.

سلاطين المماليك اهتموا بالتوسع في البِر والإحسان طوال الشهر المبارك، فالسلطان برقوق اعتاد طوال أيام ملكه أن يذبح في كل يوم من أيام رمضان خمسة وعشرين بقرة يتصدق بلحومها، بالإضافة إلى الخبز والأطعمة على أهل المساجد والروابط والسجون، وسار على سنته من أتى بعده من السلاطين فأكثروا من ذبح الأبقار وتوزيع لحومها، كما رتب سلاطين السلطان بيبرس ذبح خمسة آلاف رأس في كل يوم من أيام شهر رمضان.

تذكر السيد محمود الفترة بعد خروج الفرنساوية من البلاد، عانت خلالها البلاد من اضطرابات وقلاقل كثيرة، وامتنع الناس عن

الاحتفال باستطلاع الهلال أو حلول شهر رمضان، أو حتى المولد النبوي الذي تقام له الاحتفالات والزينة، لما كان في المدينة من دماء وقتلى وأعمال سلب ونهب، كان الكل يختبئ في بيته أغلب الليالي، يغلقون أبواب حاراتهم ويسهر جوارها البعض للحراسة.

في الأعوام القليلة الماضية من بدايات حكم الوالي محمد علي باشا، استحدثت الأواني النحاسية الكبيرة والصواني في صناعة الكنافة التي كان لها موضع مساجلات بين الشعراء قديمًا، كما كان هناك اهتمام بالغ بالقطايف وأنواع الحلوى كافة، وكالعادة تم تحذير الباعة من رفع أسعار الحلوى خلال شهر رمضان وإلا فسيضربون في ساحة القضاء في حال رفعها، وفي حال ارتفاعها ترفع شكوى إلى المحتسب.

-٢-

وقـف محمـد عـلي باشـا والي مـصر، بلحيتـه البيضـاء الكثـة، وكرشـه الضخـم، وهـو يضـع يديـه في حزامـه القمـاشي، الـذي يحيـط بخـصره، شـارد النظـرات في شرفـة القلعـة، إلى مـا يعـدَّه أكـثر المناظـر روعـة وجمـالًا، وأحبهـم إلى نظـره، القاهـرة وضواحيهـا، بمآذنهـا العاليـة وقبابها العديـدة، بمنازلهـا ومشربياتهـا الخشـبية، وأشـجار النخيـل منتـشرة بـين بيوتهـا، ومجـرى نيلهـا يخـترق سـهلًا نـاضر الخـضرة في ضواحـي بـولاق ومـصر العتيقـة والجـيزة، والأهرامـات الثلاثـة يلمحهـا رغـم بعدهـا شـامخة عاليـة تتحـدى الزمـان والقِـدم الـذي طالهـا، يتابـع المواكـب السـائرة المليئـة بالأضـواء والأصـوات والمفرقعـات الـتي انطلقـت احتفـالًا بحلـول شـهر رمضـان الكريـم، احتفـالات مختلفـة عمـا تعـود عليهـا في صبـاه، في مدينـة صغـيرة عـلى صخـرة فارسـية، أسـماها الإسـكندر المقـدوني «جالبسـو»، وأبـدل اسـمها فينيقيـو العـصر الأوسـط إلى «لاكافـالا»، وحرفهـا الأتـراك حـين آل إليهـم حكمُهـا وجعلوهـا «قولـة».

في تلـك البقعـة البعيـدة عـن أراضي مـصر والمحروسـة، وُلـد محمـد علي باشـا المسـعود بـن إبراهيـم أغـا القولـلي، والي مـصر والسـودان وبـلاد الحجـاز وأطـراف شـبه الجزيـرة العربيـة واليمـن والشـام وأعـالي العـراق وأجـزاء مـن بـلاد اليونـان.

دارت ذكريـات طفولتـه بعقلـه، فلـم يكـن يتوقـع محمـد عـلي الطفـل الوحيـد لأبويـن قصـف المـوت زهـرة كل أولادهمـا في صباهمـا، فلـم يبـق لهمـا إلا هـو، وهـو يجلـس في حجـر أمـه تقـص عليـه المنـام الـذي رأتـه وهـي تحملـه في أحشـائها، وفـسره لهـا بعـض العرافـين وأكـدوا أنـه يبـشر بمسـتقبل عظيـم لثمـرة بطنهـا، سـوف يـأتي يـوم ويتحقـق لـه، فيملـك الأرض شرقًـا وغربًـا بجنـوده وعتـاده وقواتـه، يجلـس عـلى عـرش مـصر

السَّنِي، ويحكم المحروسة وشعبها والبلاد من حولها، ويسكن قلعتها فوق سفح الجبل.

القلعة هي مقر حكم سلاطين مصر من حينها، المتجه إليها يلاقي مشقة طلوع سفح جبلها الحاد، تقع في الجنوب الشرقي للقاهرة المحروسة، فوق مسطح واسع لربوة صخرية بالقرب من جبل المقطم، أمامها ساحة فسيحة تسمى الرُّميلة يقام بها سوق يتسكع فيه بعض الناس والبعض يلتفون في مجموعات حول مجموعة من الحواة والآلاتية ورواة القصص، شيدها صلاح الدين الأيوبي منذ عام ١١٧٦م، لكن بناءها لم يتم إلا بعد اثنين وثلاثين عامًا، في عهد السلطان الكامل بن العادل، ليكون أول من يسكنها ويتخذها مقرًا للحكم، أبواب القلعة باب الحديد وباب المقطم وباب القلعة والباب الوسطاني، جميعها تم بناؤها باتجاهات مختلفة لتكون منفذ القوات للحماية والسيطرة على مدينتي القاهرة والفسطاط، لم تنته مهمة القلعة على الحماية فقط بل احتوت على أهم المقتنيات الأثرية بالقاهرة التي تم تقسيمها في عدة مناطق مختلفة بها ومنها دار الضرب، وسراي العدل، وقصر الجوهرة، وجامع الناصر محمد بن قلاوون، وبئر يوسف، وقصر الحرم، ومدرسة القلعة الحربية، وثكنات الجيش المصري، ومسجد سليمان باشا الخادم، وسارية الجبل وجامع أحمد كتخدا عزبان، وجامع العزب، ودار صناعة القلعة، وورش باب العزب، كل هذا بجانب ثلاثة عشر برجًا مختلفة وموزعة على جميع أطراف واتجاهات القلعة.

في الضلع الغربي للقلعة، يوجد الباب المدرج وفوقه كتابة تشير إلى بناء هذه القلعة، نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة، المجاورة لمحروسة القاهرة التي جمعت نفعًا وتحسينًا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينًا، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي

دولـة أمـير المؤمنـين في نظـر أخيـه وولي عهـده، الملـك العـادل سـيف الديـن أبي بكـر محمـد خليـل أمـير المؤمنـين، عـلى يـد أمـير مملكتـه، ومعـين دولتـه، قراقـوش بـن عبـد الله الملـكي النـاصري في سـنة تسـع وسـبعين وخمسـمائة».

القلعـة لهـا عـدة أبـواب، بـاب العـزب الـذي شـهد واحـدة مـن أبشـع المذابـح الـتي حدثـت عـلى مـر التاريـخ، هـو مدخـل القلعـة الرئيـسي الـذي يفـضي منهـا إلى ميـدان الرُّميلـة، يقـود إلى ممـر ضيـق شـديد الميـل، نُحـت جـزء منـه في الصخـر، ونحتـت في بعـض الأماكـن درجـات لتسـهيل طلـوع ونـزول الجمـال والخيـول، تعلـوه أبـراج ضخمـة.

بـاب المقطـم هـو البـاب المجـاور لـبرج المقطـم، والبـاب الوسـطاني سـمي بذلـك لأنـه يتوسـط الديوانـين الكبيريـن بالحـوش السـلطاني، ديوان قايتبـاي وديـوان الغـوري، البـاب الجديـد أنشـأه محمـد عـلي بديـلًا عـن البـاب المـدرج، لمـا رأى أن كلًّا مـن البـاب المـدرج وبـاب الإنكشـارية لا يصلحـان لمـرور العربـات والمدافـع ذات العجـل، مهـد للبـاب الجديـد طريقًـا منحـدرة لتسـهيل الصعـود إلى القلعـة والـنزول منهـا، وأخـيرًا البـاب الداخـلي للقلعـة المعـروف ببـاب بـرج القلعـة، يفصـل بـين قلعـة الجبـل أو المدينـة العسـكرية المحصنـة في الشـمال وبـين القلعـة والمدينـة السـلطانية في الجنـوب.

القلعـة بهـا مسـجد بنـاه السـلطان ابـن قـلاوون في بدايـة القـرن الرابـع عـشر، لـم يعـد يسـتخدم للعبـادة، رغـم بنائـه العظيـم، فقـد أصبـح متداعيًـا حـتى أن قبتـه الكبـيرة قـد هـوت منـذ فـترة بعيـدة، فيـه أروقـة ذات أعمـدة تحيـط بصحـن مربـع، في شـمال غـرب هـذا المسـجد أنقـاض لقـصر قديـم يعـرف بقـصر يوسـف أو ديـوان يوسـف نُسـب خطـأً إلى يوسـف صـلاح الديـن، لكـن السـلطان قـلاوون هـو مـن بنـاه عـلى حسـب قـول المقريـزي، يُمكـن للواقـف مـن ناحيـة أنقـاض بيـت يوسـف رؤيـة القاهـرة المحروسـة وضواحيهـا وبيوتهـا، كمـا يمكنـه مـن هنـاك رؤيـة

كثير من القصور والمنازل الفخمة؛ منها قصر إبراهيم باشا على ضفاف النهر بين بولاق ومصر العتيقة، وتكية الدراويش، وجنوب هذه الأبنية يقع فم الخليج وفوقه يبدأ جسر العيون الذي ينقل المياه من النيل إلى القلعة، أما السواقي التي ترفع الماء إلى قناة جسر العيون فمقامة داخل مبنى كبير سداسي الأضلاع يبلغ ارتفاعه تسعة عشر مترًا أو أكثر، وطول الجسر حوالي ثلاثة كيلومترات ويزيد، مبني من الحجر، عبارة عن سلسلة من القناطر الضيقة، يقل ارتفاعها تدريجيًا مع صعود الأرض التدريجي، عندما يصل الماء إلى نهاية مجراه يدخل في قناة تحت الأرض ويرفع من بئر داخل القلعة، محفور في الصخر بعمق ٩٠ مترًا من مستوى أرض القلعة.

لم تكن الحياة هينة أو لينة مع محمد علي، فمنذ طفولته وهو يعاني فقر المعيشة وجفاء الدنيا وتقلباتها، لاقى ويلاتها، وذاق مُر طعمها، صعوده إلى عرش مصر لم يكن بالأمر السهل، فقد لاقى معاناة وخاض معارك، سفك الدماء وعلق الرؤوس على الأبواب من أجل نيلها، حتى نال مراده ووصل إلى ما وصل إليه هنا في القلعة ينظر من نافذتها إلى المحروسة التي تغير شكلها في عهده.

لا يذكر الباشا الوالي الكثير عن طفولته، ولا يعرف حتى في أي الشهور وُلد، لكنه يذكر أنه ولد عام ١٧٦٩، يذكر أمه التي خطفها منه الموت وهو بعد في مقتبل العمر، وهي تحكي له باستمرار منذ وَعَى عن الحلم الذي رأته، حتى حُفر في قلبه ووعيه منذ الصغر.

والده إبراهيم أغا كان رئيس خفر الطرق، دخلُ وظيفته ضئيلًا، يكاد يكفي معيشته إن حصل عليه كاملًا، فغالبًا ما يحصل عليه منقوصًا شأن أغلب موظفي الدولة العثمانية في تلك الأيام، ربما لو لم يرحمه القدر وحصد الموت أبناءه في صباهم، لماتوا جوعًا في داره من شدة فقره، ولما وجد ما يطعمهم به، فلم يبق له إلا ولدٌ واحد، أولاه كل اهتمامه ورعايته، وتركه يشب على هواه، لم يرسله

لنيل حظه من التعليم، ولم يهتم حتى بتلقينه القراءة والكتابة، أو اكتشاف ميوله وتوجيهه نحو تعلم غرض معين يكون له معينًا في شبابه ومصدرَ رزق في مستقبله. لم يمهله القدر كثيرًا، فقد حصد الموت أم محمد علي وهو في أول مراهقته، وقبل أن تجف دموعه أطاح بوالده خارج الحياة، ليمشي وراء نعشي أمه ثم أبيه في فترة قصيرة.

أصبح محمد علي بين عشية وضحاها، يتيمًا وحيدًا، لا عائل له، وأصبحت الدنيا من حوله مقفرة لا يدري لنفسه مصيرًا، عاش في كنف عمه طوسن أغا، فداهمه الموت، كأن الموت أصبح رفيقًا لمحمد علي يصاحبه في سيره، يأخذ كل من يعيش معه، ويجبره على الحياة فردًا، أشفق عليه السيد إسماعيل أغا شوربجي المدينة - حاكمها -، وكان قريبًا له من ناحية أمه، فضمه إلى بيته وآواه تحت سقفه.

في يوم سمع أحد جيرانه بعد وفاة والده، يتحسر عليه قائلًا:

- ماذا عسى أن يكون نصيب هذا الغلام تعيس الحظ من الحياة، بعد أن أفقده الدهر والديه وجعله لا حول له ولا قوة، فقيرًا، معدمًا، لا علم عنده، ولا صنعة لديه؟!

أثر ذلك في محمد علي أثرًا شديدًا، وأوقد فيه جذوة نار، قال عنها فيما بعد: «إني منذ سمعت ذلك القول، عزمت ذلك الحين عزمًا أكيدًا على تغيير ما بي، وترويض نفسي على امتلاك زمام أهوائي، فقد حدث لي، بعد ذلك، أني استمررت، أحيانًا، على الجري يومين كاملين لا أتناول فيهم من الطعام إلا القليل، ولا أنام إلا اليسير، لأقوى عضلاتي، وأتمرن على خشونة المعيشة، ولم يعد يهدأ لي بال حتى فقت جميع أقراني في جميع التمارين الرياضية، وإني لأذكر سباقًا بالمجداف قمنا به في بحر عجاج متلاطم الأمواج، كان الغرض منه البلوغ بالقوارب إلى جزيرة قريبة من الشاطئ، ما لبث أقراني أن كلوا،

وخـارت عزائمهـم، أمـا أنـا، بالرغـم مـن تسـلخ جلـد راحـتي، وقـد كان مـا يـزال ناعمًـا، مـا فتئـت أجـدف، مقاومًـا المـوج والريـح، حـتى أدركـت جزيـرة طشـيوز، وهـي اليـوم ملـكي»!

في بيـت حاكـم المدينـة، تعـرف محمـد عـلى الكثيريـن مـن النـاس، كان يجلـس معـه وهـو يقابـل ضيوفـه، فتعـرف عـلى رجـل فرنـسي اسـمه مسـيو ليـون، كان لـه محـل في المدينـة، أُعجـب بـذكاء الفـتى، وانتباهـة عقلـه، فجالسـه فـترات كثـيرة، يحـكي لـه أخبـار البـلاد، ومـا يحـدث حولهـم، أنـار لـه عقلـه الـذي لـم يكـن يعـي مـن علـوم الدنيـا شـيئًا، فتفتحـت بصـيرة الفـتى، ونمـا عقلـه، منحـه مـن خبرتـه وزوده بالإرشـادات والنصائـح، وبـشره بمسـتقبل مـشرق، أحبـه محمـد عـلي وأحـب الفرنسـاوية كلهـم لأجلـه. في بدايـة شـبابه تعـرف عـلى شـيخ في السـبعين مـن عمـره، مشـهور بمعرفتـه عـن الأحـلام وتفسـيرها، وقـد كان حلـم أمـه الـذي قصتـه عليـه وهـو صغـير يـتردد كثـيرًا عـلى مخيلتـه، ويوقـظ في داخلـه أحلامًـا مسـتقبلية وآمـالًا عريضـة، فحلـم في ليلـة أنـه ظمـئ ظمـأ شـديدًا وشرب مـاء النيـل كلـه ولـم يرتـو، اسـتيقظ يومهـا بحلـق جـاف كرجـل يسير تحـت شـمس الصحـراء منـذ أيـام لا يجـد مـا يـروي بـه عطشـه، كان أول مـا فعلـه في الصبـاح أن ذهـب للشـيخ وقـص عليـه منامـه، نظـر إليـه طويـلًا في صمـت لا يبـدو عـلى ملامحـه شيء، ثـم ابتسـم وهمـس إليـه:

- أبـشر يـا بـني، فـإن منامـك يعـني أنـك سـتملك وادي النيـل بـأسره، ولـن تكتـف بـه، بـل ستسـعى إلى امتـلاك أقطـار غـيره.

تعجـب محمـد عـلي مـن التفسـير الـذي قيـل لـه وسـخر منـه، واسـتبعد حدوثـه، فمـا لـه ومـا للنيـل ووواديـه، لكنـه بالرغـم مـن ذلـك أخـذت مخيلتـه تزدحـم بالأفـكار وأحلامـه تتسـع.

في أحـد الأيـام بعـد أن أتـم الثامنـة عـشر مـن عمـره، دخـل عـلى شـوربجي قولـة، وقـد كان معتـادًا عـلى الدخـول عليـه في مقـره، والحديث

معـه في أمـور البـلاد وشـئونها، والاسـتماع إلى الأخبـار الـتي تـرده مـن العامـة أو مـن حرسـه أحيانًـا، أو مـن بصاصيـه أحيانًـا أخـرى، لاحـظ عـلى وجهـه علامـات تفكـير، فسـأله في تـردد بعـد مـا لاحـظ الاضطـراب البـادي عـلى قسـمات وجهـه، أخـبره بعـد أن زفـر مـن فيِـهِ زفـرة ضيـق أن أهـالي قريـة براوسـتا - وهـي قريـة تقـع في دائـرة حكمـه، اتفقـوا عـلى رفـض دفـع أمـوال الضرائـب المفروضـة عليهـم، ولا يـدري مـا العمـل ولا كيـف السـبيل إلى ردعهـم وقوتـه العسـكرية ليسـت بالقويـة، وأعـداد جنـوده غـير كافيـة لإجبارهـم وإرغامهـم عـلى دفـع الضرائـب عنـوة، ظـل محمـد عـلي صامتًـا بعـض الوقـت يفكـر في طريقـة يسـاعد بهـا الشـوربجي، ويُظهـر بهـا ذكاءه أمامـه، ثـم قـال عارضًـا خدماتـه:

- دعـني أتـولى الأمـر وسـأتكفل بإجبـار أهـل براوسـتا عـلى دفـع مـا عليهـم مـن أمـوال الضرائـب، فقـط أعطـني عـشرة رجـال مدججـين بكامـل أسـلحتهم.

وافـق الشـوربجى بعـد لحظـات غلبتـه فيهـا نظـرات الثقـة والقـوة والدهـاء في عيـني الفـتى، وأرسـل معـه الرجـال بعـد مـا أمرهـم بطاعتـه.

وصـل محمـد عـلي إلى براوسـتا مـع جنـوده العـشرة، دخـل مسـجدها وسـط أهلهـا، وأدى الصـلاة عـلى مـرأى منهـم وبـين صفوفهـم، فـرغ منهـا ثـم أرسـل في طلـب أربعـة مـن أعيـان القريـة، مُدعيًـا أنـه يحمـل رسـالة لهـا أهميـة بالغـة مكلفٌ بتبليغهـا، حـضر الأربعـة أعيـان مسرعـين متلهفـين لمعرفـة الرسـالة أو الخـبر المهـم الـذي جـاء بـه الفـتى الرسـول، مـا ان عـبروا عتبـة المسـجد حـتى انقـض محمـد عـلي ورجالـه عليهـم كبلوهـم وشـدوا وثاقهـم، ارتفـع صراخ الأربعـة رجـال يسـتغيثون بأهـل قريتهـم، فتجمـع الأهـالي مُهتاجـين في غضـب بعـد سـماعهم أصـوات الاسـتغاثة، وزاد غضبهـم بعـد أن رأو أعيانهـم مقيـدة بالحبـال، وقـف محمـد عـلي أمـام العـشرة رجـال والأربعـة أسرى الموثقـين، هـدد الأهـالي بذبحهـم أمـام أعينهـم عـلى مـرأى ومسـمع منهـم، إذا حاولـوا

التعـرض لـه ورجالـه لإنقـاذ أعيانهـم، أو إذا اسـتمروا في الامتنـاع عـن دفـع الضرائـب، سـار بـالأسرى إلى قولـة وسـط أهـالي براوسـتا الـذي نـزل الرعـب في قلوبهـم وسـلمهم لشـوربجيها، في اليـوم التـالي مبـاشرة حـضر بعـض مـن أهـالي براوسـتا يحملـون الأمـوال الضريبيـة، دفعوهـا وافتـدوا أعيانهـم وقدمـوا اعتذاراتهـم.

ارتفعـت منزلـة محمـد عـلي عنـد الشـوربجي لمـا رأى فيـه مـن إقـدام وعـزم وشـجاعة ودهـاء في تصريـف الأمـور، فمنحـه رتبـة بلـوك بـاشي، وقربـه منـه أكـثر، وزوجـه مـن إحـدى قريباتـه مـن النسـاء، وكانـت مطلقـة وذات ثـروة، عـاش معهـا سـنوات تخلـص فيهـا مـن همـوم المعيشـة الماديـة وعنائهـا، عمـل بمالهـا في تجـارة التبـغ ونجـح فيهـا، زادت الأمـوال وكـبرت تجارتـه وازدادت أرباحـه، أنجـب منهـا ثلاثـة أولاد إبراهيـم وطوسـن وإسـماعيل وبنتـين، ونـسي أحـلام صبـاه وحلـم أمـه في رغـد عيشـته الجديـدة.

مـرت السـنوات ومحمـد عـلى في عيشـة هانئـة هادئـة، حـتى أتى يـومٌ وجـاء أمـر لإسـماعيل أغـا مـن البـاب العـالي في الأسـتانة، بتجنيـد ثلاثمائـة رجـل، للمشـاركة في الحملـة المرسـلة لإخـراج الفرنسـاوية مـن مـصر، جمعهـم الشـوربجي بعـد جهـد، ووضعهـا تحـت قيـادة ولـده عـلي أغـا، وطلـب مـن محمـد عـلي الانضمـام لـه والسـير معـه لإخـراج الفرنسـاوية الكفـار مـن مـصر.

فرفض.. بل رفض في شدة..!!

حـتى أنـه خـرج مـن عنـد إسـماعيل أغـا يعلـن تمـرده عـلى طاعـة الشـوربجي الـذي ربـاه واعتـنى بـه منـذ يتمـه وتلطمـه في هـذه الدنيـا، نابـذًا إياهـا بعـد سـنوات قضاهـا في تقديمهـا إليـه، تـرك الشـوربجي غاضبًـا عليـه، وناقمًـا، عـاد إلى محـل تجارتـه يجلـس فيهـا ويدخـن التبـغ في توتـر، رأى الشـيخ الـذي فـسر لـه حلمـه قديمًـا يسـير في طريقـه المعتـاد أمـام دكانتـه فدعـاه، وكان معتـادًا عـلى الجلـوس والتحـدث معـه، جلسـا

يدخنـان معًـا، وعـلى وجـه محمد عـلي علامات الضيـق، فسـأله متفرسًـا في ملامحـه عما بـه بعـد مـا رآه مضطربًـا، فأجـاب في ضيـق وغضـب:

- السـيد إسـماعيل أغـا يريـد أن يُرسـلني إلى مـصر لقتـال الكفـار الفرنسـاوية الذيـن دخلوهـا، فمـا شـأني وشـأن الحـرب مـع الفرنسـاوية في بـلاد أخـرى، أنـا لا أريـد، الوطـن هنـا، وهـو خـير وأبقـى، أيضًـا أهـلي وأولادي وتجـارتي هنـا، رفـاقي الذيـن كـبرت وسـطهم، وعيشـتي هنـا هنيئـة، فلـم الرحيـل والحـرب؟!

أجاب الشيخ في جدية وحزم وهو ينفث دخانه:

- أخطـأت يـا بـني، فمـا قلتـه لـن يصـل بـك إلى شيء، ربمـا تعيـش هنـا وتمـوت ولا يبقـى مـن سـيرتك إلا أبنـاء وأحفـاد يترحمـون عليـك فـترة، ثـم ينسـونك وينسـاك التاريـخ، إن الطريـق لطويلـة، ولكنهـا توصـل إلى العُـلا.

كلمـات موحيـة ترددت في عقـل محمـد عـلي، وأنـارت لـه بصيرتـه، حـتى إنـه قـال فيمـا بعـد: «إن كلام ذلـك الشـيخ الـذي كنـت أثـق بـه وثوقًـا كبـيرًا أقنعـني، فعـدت إلى الشـوربجي، ووضعـت نفسي تحـت تصرفـه».

وكان للقـدر تصاريفـه الخاصـة، فقـد أنهكـت الرحلـة البحريـة والسـفر عـلي أغـا بـن الشـوربجي، فمـا أن وصـل إلى الشـواطئ المصريـة، حـتى تخـلى عـن فرقتـه لمحمـد عـلي وعـاد إلى بـلاده، ورُقي محمـد عـلي وأصبـح بمباشـيًا.

التحـم محمـد عـلي في المعـارك ضـد الفرنسـاويين، أطلـق الرصـاص وطعـن بالسـيف، ظهـرت بسـالته في القتـال، ودهائـه في تنفيـذ معاركـه، عُـرف اسـمه بـين قيادتـه، تقـرب مـن الرؤسـاء لينال الرضـا والتقـدم، ذات مـرة طلـب مـن حسـن أغـا أحـد الضبـاط الأخصـاء عنـد القبطـان باشـا أن يتوسـط لـه عنـده، فألحقـه القبطـان باشـا بخدمـة خـسرو باشـا الـذي كان قـد تعـين واليًـا عـلى القطـر المـصري حينهـا، وأوصـاه بـه، في أقـل مـن سـنتين، ظهـر ولمـع اسـمه بـين أقرانـه، ارتقـى في الجيـش إلى رتبـة قـبي

بلـوك بـاشى أي رئيـس حـرس الـسراي، أُعجـب بـه خـسرو باشـا وقربـه إليـه أكـثر، وأهـداه يومًـا فرسًـا مـن أربعـة جيـاد كانـت قـد أُهديـت إليـه، ورفعـه إلى رتبـة سـاري ششـمة - أي جـنرال.

كانـت أمـور البلـد حينهـا في فـوضى عارمـة، فالإنجلـيز مـا زالـوا موجودين بقواتهـم، مـترددون مـا بـين البقـاء والرحيـل، وبـين مسـاندة البـاب العالي ضـد المماليـك، أو منـاصرة المماليـك عـلى البـاب العـالي، والعثمانيـون رغـم الـصراع الـذي كان بـين يوسـف باشـا الصـدر الأعظـم وقجـك حسـين باشـا أمـير البحـر، الـذي اسـتخدم نفـوذه وجعـل البـاب العـالي يـولي خـسرو باشـا - التابـع لـه - ولايـة مـصر، وكانـت لديهمـا أوامرهمـا بالقضـاء عـلى المماليـك بعـد أن غـادر الفرنسـاويين أرض المحروسـة، مـا زالـوا يريـدون السـيطرة الكاملـة عـلى مـصر واسـتقرار تبعيتهـا لهـم، أمـا المماليـك بعـد هزائمهـم المتتاليـة أمـام القـوات الفرنسـية، كادوا أن يفنـوا، أصبحـت أعدادهـم لا تزيـد عـن خمسـة الآف مملـوك، والبـاب العـالي حـال بينهـم وبـين تجنيـد مماليـك جـدد بعـد أن حظـر بيـع الشـباب في إقليمـي الكـرج والشركـس، وانقسـموا فيمـا بينهـم بـين أتبـاع عثمـان بـك البرديـسي وأتبـاع محمـد بـك الألفـي، اللـذان نزعـا إلى المنافسـة والعـداء الـذي صـار صريحًـا بينهمـا.

ظـل محمـد عـلي في موقعـه، بعيـدًا عـن كل الأطـراف، يتابـع كل الأمـور بعقـلٍ واعٍ، يجمـع أطـراف الصراعـات كلهـا أمامـه، يقيـس نسـب خطـورة وأهميـة الأشـخاص، يـدرس شـخصياتهم وينتبـه إلى تصرفاتهـم، أدرك من اللحظـة الأولى أن الدولـة العثمانيـة محقـة في القضـاء عـلى المماليـك، فهـم سـبب ضعـف المحروسـة وضيـاع البـلاد مـن قبـل، وبقاؤهـم في السـلطة معنـاه اسـتمرار ضعـف البـلاد وضياعهـا مـن جديـد أمـر محتمـل، فالبرديـسي يفتقـر إلى الحكمـة ويـترك تقديـر الأمـور إلى انفعالاته وأهوائـه، ويتطـير بأقـل الأشـياء الـتي يسـمعها أو تحـدث أمامـه، والألفـي شـديد الغـرور بنفسـه، يجـري وراء شـهواته وملذاتـه، يطـارد النسـاء

خصوصًا البدويات منهن أينما ذهب، يتزوج المرأة منهن ثم يتركها بعد أيام، لا يهمه إلا نعيمه وعيشته الرغدة والتنعم بأموال البلاد وخيراتها، لكن خسرو باشا أيضًا غير جدير بحكم القطر المصري، فهو رجل دموي يسيء تقدير الأمور وتدبيرها، صبر محمد علي وانتظر في تبعيته لخسرو، حتى اجتاح المماليك دلتا مصر ومنعوا الأموال عن الحكومة، بعد أن انكشف لهم المخطط وتبينت لهم نية الباب العالي المبيتة ضدهم، استغل خسرو باشا الصراع القائم بين البرديسي والألفي، وحرك لقتالهما فرقتين من الجند، إحداهما تحت قيادة يوسف بك أحد المقربين إليه، والأخرى تحت قيادة محمد علي، سارت الفرقتان ناحية دمنهور؛ حيث اتخذها ثمانمائة مملوك تحت قيادة عثمان بك البرديسي موقعًا حصينًا يهددون منه المحروسة، ويتمكنون فيه في نفس الوقت من الاتصال بالإنجليز الذي ما زالت جيوشهم موجودة في الإسكندرية لم تغادر بعد، تباطأ محمد علي عن عمد في سيره بقواته، كي يترك يوسف بك يسبقه بجنوده التي تزيد عن السبعة آلاف جندي، ويلتحم مع المماليك في معركة دامية.

كلفت المعركة يوسف بك أكثر من خمسة آلاف جندي، وكاد أن يفقد حياته فيها، لكنه نجا بنفسه بالكاد، بعد أن إنقض فرسان البرديسي على جانب قواته من ناحية اليسار واخترقوهم، وداسوا الجنود تحت حوافر جيادهم وأعملوا فيهم السيوف طعنًا وهم يفرون أمامهم مذعورين.

عاد يوسف بك يجر بقايا أشلاء جنوده، وألقى أمام خسرو باشا اللوم في خسارته على محمد علي، فأوقد في نفسه الغضب تجاهه، دخل عليه في مقر الحكم ساخطًا وقد تملكة الغضب والغيظ قائلًا:

- لقد باعنا محمد علي وتركنا لقمة سائغة لخصومنا، وتركني أواجه القتل والقتال وحدي مع جنودي، أقطع كامل ذراعي أن محمد علي

تأخر عن المواجهة عن عمد.

شعر خسرو باشا مع استمرار وسوسة يوسف بك والمحيطين به في أذنه، أن محمد علي يضمر شيئًا ما في نفسه ضده، بل ربما يكون بلغ به الطيش ويكون طامعًا في خلعه من حكم الولاية والاستيلاء عليها، فأرسل يستدعيه في يوم بعد صلاة العشاء بعد عودتهم بأيام، بعد أن أوغل المحيطون به زرع الشر في قلبه ورَيِّه حتى أنبتت ثمراته وأينعت زهوره، ادعى أنه يريد المناقشة معه في بعض الأمور وكان قد بيت له نية الإيقاع به والتخلص منه، لم ينطل الفخ المنصوب على محمد علي الذي عرف وفهم من البدايات كيف تُحاك الدسائس من قِبل المماليك، وكيف يتم الإيقاع بالرجال والتخلص منهم، فأرسل الرد مع أحدهم بأنه سيأتي لمقابلة الوالي نهار اليوم التالي وسط جنوده.

في تلك الأثناء انضم البرديسي إلى مماليك إبراهيم باشا الكبير في الصعيد، بعد رحيل الإنجليز عن الإسكندرية ورحيل الألفي معهم عن البلاد، واستولوا معًا على المنيا وقطعوا الاتصال بين المحروسة والصعيد، وصل خورشيد باشا نبأ استيلائهم على المنيا فأحس أنه وقع بين شقي الرحى، ما بين شكه في محمد علي وبين احتياجه له، أصيب بحيرة شديدة، لكن رغبته في التخلص من سيطرة المماليك على الوجه القبلي اضطرته أن يطلب من محمد علي التحرك بعساكره مع قائد آخر يدعى طاهر باشا ناحية المنيا، محمد علي لما أحس بالمكيدة التي دبرها خسرو باشا من قبل للتخلص منه، بدأ هو أيضًا في التخطيط بل والتنفيذ لمكيدة يزيح بها خسرو باشا من كرسيه، أو على الأقل يؤرقه في مضجعه، قَلَّب العساكر في الخفاء على خسرو باشا، فتمردوا وامتنعوا عن الزحف إلا بعد حصولهم على مستحقاتهم المالية، أحالهم خسرو باشا إلى الدفتردار الذي أحالهم بدوره إلى محمد علي، فأخبرهم أنه لم يصله شيء من

المال لصرف مرتباتهم، غضب الجنود وحاصروا بيت الدفتردار مطالبين بمستحقاتهم، بلغ الخبر خسرو باشا فأصابه غضب جامح أعماه عن اتخاذ القرار المناسب، وأمر بإطلاق المدافع من القلعة صوب الجنود، فازداد غضبهم وهاجموا سراي الوالي.

لم يكن هذا كل مخطط محمد علي، فهو يلعب على كل أطراف الخيوط المتاحة أمامه، ولا يترك حجرًا أمامه إلا قلبه، فأوحى إلى طاهر باشا في أحد جلساتهما أن يتوسط للجنود عند خسرو باشا، مُبديًا قلقه على الطرفين، ورغبته في حل التوتر والاضطراب الحاصل في صفوف الجنود والقلعة، وهو يعلم أن غضب وسخط خسرو باشا سيمنعه من تقدير الأمور بحِكمة، وبالفعل رفض خسرو مقابلة طاهر باشا الذي أحس بالتعمد في إهانته برفض مقابلته، فانحاز لصف الجنود ضده، وسار مع فرقة من العساكر إلى القلعة.

أُغلقت الأبواب في وجههم، لكنه نجح بفضل بعض جنوده من العبور داخل سورها الأول، وانضم لهم بعض الحرس هناك بعد أن نجح في استمالتهم معه ضد الوالي. شعر الخازندار المتولي حراسة خسرو باشا أنه لم يعد بمقدوره المقاومة أكثر من ذلك، بعد انقلاب بعض الحرس التابع له ضدهم، فأمر بفتح أبواب القلعة أمام طاهر باشا وعساكره، تقدم طاهر باشا للداخل وسط عساكره وأطلقوا القنابل من القلعة على سراي الوالي، الذي جمع حرسه النوبي ومائة جندي عثماني تابعين له مع نسائه، وفرَّ تجاه المنصورة، بعد أن أيقن أنه سقط بعد سقوط القلعة في أيدي المتمردين، ونادى قاضي الديار طاهر باشا قائمقام الولاية، حتى تصل إليهم أوامر من الأستانة، طاهر باشا لم يكن في نواياه خوض معارك، ولا قتل، وربما لم يكن في الأصل طامحًا في سلطة أو منصب، بعث طاهر باشا رسولًا إلى المماليك في المنيا واستدعاهم للتفاوض بشأن الصلح، فنزلوا وتصالح معهم وأقاموا معسكرهم في

الجيزة، وأرسل من يطارد خسرو باشا الذي هرب مبتعدًا حتى لجأ إلى دمياط.

الوالي الجديد كان رجلًا يميل إلى الدراويش والمجاذيب، أنشأ لنفسه خلوة في الشيخونية، يبيت فيها معظم لياليه، يذاكر فيها طوال الليل مع الشيخ عبدالله الكردي على سطحها، وكثيرًا ما كان يذاكر مع أُناس آخرين من مختلفي الصور والهيئات، كانوا يلبسون الطراطير والمرقعات، ويعلقون جلاجل، وبهرجانات، وعصيًا مصبوغة، فيها شخاشيخ وشراشيب، ويدقون على الطبل ويتمايلون برؤوسهم معها طوال الليل، اتَّبعهم كثيرٌ من الناس حتى أن الجبرتي قال عنه: «لو طال عمر طاهر باشا هذا لأهلك الحرث والنسل»، فقد كادت المحروسة أن تصبح مكانًا للمجاذيب والدراويش.

كما أن طاهر باشا ماطل الجنود في صرف مرتباتهم، ثم أخبرهم أنه غير مسئول عنها إلا منذ توليه مقاليد الأمور فقط، وما سبقه لا شأن له به.

لم يقتنع الجنود بقوله وزاد عصيانهم وتمردهم، توجه إليه ضابطان عثمانيان في سراياه، فرفض النظر مرة أخرى في صرف المرتبات، وأصر على رأيه الذي أبلغهم به من قبل، احتد في الكلام وعلت تهديداته بالقضاء عليهم والتخلص من المجموعات التي تتمرد وتريد أن تنقلب عليه، فطعناه الضابطان بيطقاناتهما (خنجرهما)، ثم قطعا رأسه وألقوها من النافذة التي كان يجلس جوارها، سقطت الرأس والدم يسيل منها ساخنًا بين الجنود الألبانية، فانتابهم غضب شديد جمح بعقولهم بعد رؤيتهم رأس قائدهم مقطوعة وملقاة أمامهم، اشتبك الطرفان ودارت معركة حامية بين الألبانيين والعثمانيين، جرت فيها الدماء بينهما أنهارًا وأغرقت الأرض، وانتهت المعركة باشتعال النيران في السرايا بحريق هائل.

بعد مقتل طاهر باشا انضم جنوده إلى قوات محمد علي، فزادت

قوته وقويت شوكته بين الفرق، ومع اعتداله في التصرف في الأمور، مال إليه الناس والجنود من العثمانيين والألبانيين، عرض عليه زعماء العثمانيين تولية رجلٍ كان مارًا بالقطر المصري في طريقه إلى جدة يسمى أحمد باشا، فرفض، وأبرم اتفاقًا مع البرديسي الذي يعسكر في الجيزة، وأرسلوا رسالة إلى أحمد باشا يأمرونه بمغادرة القطر كله، وافق الرجل على مطلبهم، مقابل أن يمدوه بما يُمَكنه من السفر إلى جدة، وتحصن مع جماعته في حصن سولكفسكي الذي كان مسجد الظاهر قبل الحملة الفرنسية، وصلت الأخبار إلى خسرو باشا في دمياط بالثورة الواقعة ضد طاهر باشا متأخرة، فغادر مكمنه وسار إلى القاهرة، وبينما هو في الطريق أرسل المتحالفون - محمد علي والبرديسي- ألفي جندي ألباني اقتحموا الحصن وسيطروا عليه، وأخذوا أحمد باشا أسيرًا، وألقوا به في السجن، فارتد خسرو باشا متراجعًا بعد ما علم بالأنباء، وعاد إلى مخبئه الذي لم يهنأ فيه كثيرًا، بعد أن أرسل إليه محمد علي والبرديسي عشرة الآف مقاتل استولوا على دمياط، نجح في الهرب مع بعض عساكره وجنوده، قبل أن يصل إليه جنود الحلفاء، وتحصن بأحد الحصون على مصب النيل، لكن لم يصمد طويلًا أمام هذا العدد من الجنود، ووقع في الأسر وأعيد إلى القاهرة وأقاموا عليه حارسًا.

انتبه محمد علي باشا من ذكرياته التي شرد وسبح فيها، وأفاق على صوت فتح الباب بعد الدق عليه مرات عدة، ودخول أحد الحراس يخبره أن المشايخ وكبار المسئولين وكبارات البلد قدموا ليقدموا التهاني بحلول شهر رمضان.

- ٣ -

لما أُطلق المدفع من القلعة معلنًا نهاية صوم أول أيام رمضان، لم يكن هناك صوت يضاهي روعه النداء للصلاة من المآذن العديدة، فساكنو المحروسة باستطاعتهم سماع وقع ما يقرب من مائة صوت رخيم في وفاق تام وقور للمؤذنين على المدائن بين السماء والأرض، ينادون البشر لعبادة رب الكون، حتى إن الأقباط كانوا يشعرون بمسحة دينية تتنزل عليهم مع ذلك الصوت الذي يدفع المرء للخشوع، فكان البعض منهم يهمس بصلاة صامتة ترتفع إلى الملكوت الأعلى طالبة الرحمه والهداية للمسيحيين الأوربيين المقيمين بينهم الذين يسيئون بتصرفاتهم واستهتارهم إلى سمعتهم أمام المسلمين.

التف السيد محمود الورداني مع زوجته السيدة مريم وأبناؤهما، حول طبلية عليها ما أعدته ربة البيت من إفطار من الأشياء المقدسة التي لا يتخلى عنها السيد محمود أبدًا أول يوم، البطة المحمرة وجوارها طبق الملوخية التي انتشرت في المحروسة بعد أن كانت محرمة على العامة قديمًا بأمر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. تساءلت هند بعد أن رج صوت المدفع البيت قائلة:

- لماذا يطلقون هذا المدفع قبل المغرب؟

رد حسن متعجبًا من السؤال وفمه مملوء بالطعام:

- مدفع الإفطار لماذا يطلقونه في غير موعد الإفطار؟!!

نطق الأب في حزم:

- لا تتحدث وفمك مملوء بالطعام.

ثم التفت إلى هند وهو يفسخ البطة بأصابعه وصوت قفصها

يطقطق أن حان موعد التهامها قائلًا:

- القاهرة كانت أول مدينة ينطلق فيها مدفع رمضان، ذات يوم عند غروب أول يوم من رمضان، أراد السلطان المملوكي خشقدم أن يجرب مدفعًا جديدًا وصل إليه، وقد صادف إطلاق المدفع وقت المغرب بالضبط، فظن الناس أن السلطان تعمد إطلاق المدفع لتنبيه الصائمين إلى أن موعد الإفطار قد حان، فخرجت جموع الأهالي إلى مقر الحاكم تشكر السلطان على هذه البدعة الحسنة التي استحدثها، وعندما رأى السلطان سرورهم، قرر المضي في إطلاق المدفع كل يوم إيذانًا بالإفطار، ومع الوقت بدأ الناس في إطلاق المدفع قبل الفجر أيضًا إيذانًا بالامتناع عن الطعام.

تناول علي نصيبه من البطة وهو يتحدث:

- صوت المدفع يعطي طعمًا لهذا الشهر فبدونه لا يكون هناك صيام.

نطقت مريم في حزم:

- يكفي كلام أثناء الطعام، دعوا الحكايات والحواديت لوقتها.

امتنع الثلاثة عن الحديث، وانهمكوا جميعًا في تناول الطعام، نهضت هند تجري تعلن وهي ترفع يديها الاثنتين لأعلى كجندي يُسلم نفسه لأعدائه، أنها اكتفت من الطعام، وأسرعت تحضر القطائف التي أعدتها أمها تتناول منها في لهفة، والسيد محمود يبتسم فرحًا بها.

في فترة طفولة السيد محمود قام الفرنسيون في فتره إقامتهم واحتلالهم البلاد بمحاولات عدة لتطوير المحروسة، التي اتخذوا منها مركزًا لقيادة حملتهم بحيث تتناسب مع احتياجاتهم من ناحية وليحكموا عليها السيطرة من ناحية أخرى، فقد أحدثوا تعديلات عدة على تخطيطها العمراني في بداية دخولهم للقاهرة، فهدموا جوامع عدة ومباني في بركة الأزبكية لتوسيع الطرقات، سدوا القنطرة

هنـاك ومنعـوا دخـول المـاء إلى بركـة الأزبكيـة وقـت الفيضـان لتجفيـف البركـة وجعلهـا ميدانًـا وأماكـن للجيـش ومعداتـه، ولتكـون إلى جانـب مقـر القيـادة ببيـت الألفـي المطـل عـلى البركـة، أدى هـذا إلى رشـح الميـاه في أرض البركـة وسـقوط بوابـة النصـب التـذكاري الـتي بنوهـا للاحتفـال بأعيادهـم الوطنيـة.

طـردوا مـا تبقـى مـن سـكان بركـة الأزبكيـة حـتى يسـكن قادتهـم في بيوتهـم، ويجتمـع الفرنسـيون في السـكن بمـكان واحـد، كمـا ردمـوا عـدة جهـات مـن البركـة، ثـم هدمـوا المبـاني المحيطـة ببيـت الألفـي الـذي سـكنه نابليـون وأنشـأوا ميدانًـا متسـعًا، فأصبـح هنـاك طريـق ممتـدٌ مـن بـولاق إلى النيـل عنـد مـوردة التـبن في خـط مسـتقيم، حفـروا هنـاك عـلى جانبيـه خندقـين وغرسـوا حولـه الأشـجار، وهدمـوا المبـاني ناحيـة جامـع المقـس وجعلـوا الأرض مسـتوية إلى الأزبكيـة إلى قرافـة المماليـك، وحولوا جامـع الظاهـر بيـبرس الـذي يقـع في المنتصـف إلى قلعـة، واتخـذوا مـن مئذنتـه برجًـا، وبنـوا بداخلـه مسـكنًا لاقامـة الجنـود.

كمـا منعـوا الدفـن في المقابـر القريبـة مـن المسـاكن كمقابـر الأزبكيـة والرويعـي خوفًـا مـن انتشـار الطاعـون، لكـن كان سـببهم الحقيقـي هـو استخدام هـذه الأرض في إعـاد تخطيـط الأزبكيـة، فقامـوا بتدمـير مقابرها وتمهيـد الأرض، لكنهـم توقفـوا لثـورة الأهـالي وأصحـاب المقابـر، ولـم يَسـلم الأقبـاط مـن أذاهـم، فبعـد أن عينـوا يعقـوب القبطـي سـاري عسـكر القبطـة، قـام بهـدم الأماكـن المجـاورة لبيتـه بحـارة النصـارى بالـدرب الواسـع جهـة الرويعـي خلـف الجامـع الأحمـر، وبـنى قلعـة لهـا سـورٌ عـالٍ وأبـراجٌ وبـابٌ كبـيرٌ، وبـنى أبراجًـا أخـرى بظاهـر الحـارة مـن جهـة الأزبكيـة.

بهـذا كونـوا شـبكة مـن الطـرق المتسـعة عـن ذي قبـل تربـط منطقـه الأزبكيـة مقـر القيـادة بغـرب القاهـرة حيـث المينـاء النهـري ببـولاق وبشـمالها الـشرقي حيـث الطريـق إلى شرق الدلتـا والشـام، وبـشرق

القاهـرة حيـث مركـز المدينـة القديمـة ومنبـع الثـورات الشـعبية الـتي أعاقـت مشروعاتهـم الـتي بدأوهـا مـع المحـاولات المسـتمرة مـن الدولـة العثمانيـة وبريطانيـا لطردهـم مـن مـصر، كمـا أنهـم تدخلـوا لتغيـير معالـم القاهـرة رغـم شـعورهم بنفـور أهـالي المحروسـة منهـم، فأمـروا سـائر حـكام الخُطـط بخلـع الأبـواب المركبـة عـلى الـدُروب والعُطـف والحـارات، حـتى مـن عـلى الـدروب غـير النافـذة بالقاهـرة وضواحيهـا، فخلعـت وجُمعـت عنـد رصيـف الخشـاب عـلى بركـة الأزبكيـة وأُحرقـت.

تغـير شـكل المحروسـة مـرة أخـرى في السـنوات الـتي تلـت خـروج الفرنسـاوية، فقـد أعـاد المصريـون مـن أهـالي المحروسـة وغيرهـا مـا هدمتـه الحملـة، ومـا تخـرب أثنـاء حـرب العثمانيـين وحلفائهـم مـن الإنجليـز مـن جهـة، والفرنسـيين مـن جهـة أخـرى، وأثنـاء الاضطرابـات الـتي حدثـت في المحروسـة مـن صراعـات بـين المماليـك والجنـود الأرنـاؤوط والألبـان.

في البدايـة جـددوا المبـاني الـتي خُربـت وشرعـوا في إعـادة تعمـير الـدُّور الـتي خربهـا الفرنسـاوية، واعتمـدوا في كلفتهـا عـلى الـدور والحوانيـت والرِّبَـاع والـوكالات، وأحدثـوا عـلى الشـوارع السـالكة دروبًـا كثـيرة لـم تكـن موجـودة قبـل ذلـك، وكطبيعـة الحـال بـين أهـالي مـصر والمحروسـة قـام أهـالي الأخطـاط بتقليـد بعضهـم في كل شيء، فأقامـوا في الخطـة الواحـدة دربـين وأحيانًـا ثلاثـة، وأنشـأوا بدنـات وأكتافًـا مـن أحجـار منحوتـة وبوابـات عظيمـة، لـزم لبعضهـا هـدم حوانيـت اشـتروها مـن أصحابهـا، وتكفـل بأثمانهـا أهـل الخُطـة.

حـي الموسـكي ممتـلئ بالكثـير مـن المسـاجد الأثريـة ذات التاريـخ العريـق والكنائـس ذات الطـراز الفريـد والمعابـد اليهوديـة، ومـن المسـاجد الأثريـة مسـجد العزبـاني ومسـجد الرويعـي والجامـع الأحمـر وجامـع البكـري والكنائـس المسـيحية، ولـكل مذهـب نجـد كنيسـة، كنيسـة الأقبـاط الأرثوذكـس وكنيسـة الأرمـن الجرجـوري وكنيسـة الإفرنـج

الكاثوليـك وكنيسـة الأرمـن الكاثوليـك، ومـن المعابـد نجـد المعبـد اليهـودى القابـع في الشـارع شـمال ميـدان العتبـة الخـضراء والـذي يخترق حـي بـاب الشـعرية متوسـطًا المسـافة بينـه وبـين شـارع الموسـكي.

يبـدأ شـارع الرويعـي مـن أول شـارع البكريَّـة، وينتهـي عنـد شـارع وش البركـة، ويبلُـغ طولـه 140 مـترًا تقريبًـا، ويقـع في أولـه جامـع الرويعـي بالقـرب مـن جامـع البكـري، والـذي أنشـأه السـيد أحمـد الرويعـي شـهبندر التُّجـار في مـصر بالقـرن التاسـع، وبداخلِـه صهريـج وفي مقابلتـه مدفـن الرويعـي، فهـو يبـدأ مـن جهـة الجبـل شرقي القاهـرة.

شـارع الرويعـي ذُكـر أكـثر مـن ثلاثمائـة مـرة في كتـب الجـبرتي، ففـي أيـام الحملـة الفرنسـية كان قـادة الحملـة يسـكنون في منطقـة الأزبكيـة، بينمـا هنـاك حيـث الأزهـر والمنطقـة الفاطميـة ومـن خلفهـا المقطـم وأماكـن أخـرى يكمـن مصـدر الخطـر والإزعـاج عـلى الحملـة الفرنسـية وجيشـها، يخـرج مـن نواحيهـم الثـوار ضـد الحملـة وأحيانًـا بعـض فلـول المماليـك؛ لذلـك وجـب عـلى الحملـة الفرنسـية أن تتحـرك وكان طريقهـا هـو شـارع الرويعـي، حيـث سُـفكت الدمـاء أنهـارًا.

مـن بـين البيـوت العامـرة بأهلهـا وناسـها في حـي الرويعـي، بيـت السـيد محمـود الـورداني الحـداد، والحـداد نسـبة إلى أنـه يعمـل حـدادًا في دكانتـه الخاصـة في حـى النحاسـين - في نهايـة شـارع المعـز لديـن اللـه الفاطمـي- الـذي سـمي هكـذا لأن تجـار النحـاس منـذ العـصر الفاطمـي كانـوا يتمركـزون فيـه لبيـع وتصنيـع أواني المطبـخ، والنجـف، وقِـدر الفـول، وصـواني الطعـام، وأباريـق الميـاه، ومسـتلزمات المقاهـي، والكثـير مـن قطـع الديكـور المتنوعـة ذات الاسـتخدامات المتعـددة في القصـور، والبيـوت، ودور العبـادة. يعـود تاريخـه إلى عـام 969، أي منـذ إنشـاء القاهـرة الفاطميـة الـتي يحدهـا بـاب النـصر وبـاب الفتـوح شـمالًا، وشـارع بـاب الوزيـر نجـم الديـن محمـد قـلاوون جنوبًـا، وشـارع الدراسـة وأسـوار القاهـرة شرقًـا.

حرفة الحدادة التي ورثها السيد محمود عن أبيه، قليلة الانتشار في المحروسة وفي مصر كلها، وذلك لقلة الفحم، كما أن المصريين كانوا يستخدمون الأقفال الخشبية التي صنعت بعناية فائقة.

السيد محمود الورداني كان معلمًا في مهنته، ملمًّا بدقائق الحرفة، لديه عدد من الصبية، يُعرفهم ويعلمهم أصول المهنة وأسرارها، ولم تكن الأمور بين المعلمين تُترك سبهللًا، فكان لكل معلم عدد من الصبية محدود لا يمكنه التجاوز عنه، ولا يمكن لصبي منهم أن يترك عمله إلا بإذن معلمه الخاص، ولو حدث خلاف بين الصبي ومعلمه لأسباب مادية أو خلافها، فإن شيخ الحرفة يتدخل ويصلح بينهما ويفض الخلاف أو يُلحق الصبي بخدمة معلم آخر.

وشيخ الحرفة هو الذي ينتخبه المعلمون من بينهم ليكون شيخ الطائفة، لكن العملية الانتخابية كانت صورية بالطبع، فقد كانت وراثية في الواقع داخل نطاق أسرة معينة، ولم يحدث إطلاقًا أن انتُخب الشيخ حسب أغلبيه الأصوات، وإن حدث خلاف بين الرؤساء ولم يتفقوا معًا على اسم ليكون شيخًا للطائفة، يقوم شيخ المشايخ بتعيين أحد الأسماء المرشحة، ثم يقام احتفال لتأكيده، يحلف فيه الشيخ يمينًا، ثم ينتخب من بعد شيخ الطائفة الجاويش ليقوم بدور مندوب الشيخ ومبعوثه، ولكن لم تكن له أي سلطه قضائية.

السيدمحمود الورداني يساعده عامل واحد في الورشة خلاف الصِّبية واسمه طاهر، يبدو على ملامحه البؤس إلى حد ما، دائمًا ما يرتدي قميصًا أزرق اللون من الصوف ويحزمه بحبل عند وسطه لا يُغيرهم أبدًا، يغطي رأسه بلبدة بيضاء أو تبدو أنها كانت بيضاء في يوم ما، لم يكن متزوجًا ولم يكن ليقدر لأن دخله يكاد يكفي معيشته.

على غير العادة لم يسكن السيد محمود الورداني حي النحاسين جوار عمله، بل اتخذ بيتًا في الرويعي بناه لنفسه، استخدم بنائين أقاموه من الطوب الأحمر والطوب اللبن، لكنهم أحيانًا ما كانوا

يستخدمون أحجار النحت والمصيص في البناء، أغلب البيوت في تلك الفترة لم تكن لها نفس متانة أو إتقان المباني التي شيدت في عهد قدماء المصريين، فكانت البيوت تبنى من مواد رديئة النوع، ودبش صغير، ويدخلون في تسميك الجدران حوائط خشبية لتمكينها، لتمنع أجزاء الجدران من التلاحم والتراكن وتأليف كتلة واحدة.

أما السقف فالمسئولون عن بنائه مختصون لا يمارسون سوى هذه الصنعة، وطريقتهم في ذلك أنهم كانوا يربطون عروق السقف الخشبية بالبوص منضمًا بعضه فوق بعض ثم يفرشون عليه طبقة حصيرة من المونة، فتزين الأسقف وتعطي جوًا رطبًا.

النوافذ والمشربيات اختصاص خراطي الأخشاب القاطنين في حي الشعراوي؛ حيث يستخدمون قوسًا يحركونه بيد وباليد الأخرى الآلة القاطعة على الشيء الذي يريدون تشكيله.

البيت كان متسعًا له باب كبير ذو ضلفتين ضخمتين من الخشب، به حوش داخلي مفتوح للسماء مباشرة تدخل منه الشمس لتنير البيت وغرفِهِ.

غُرفة الجلوس متسعة بها أريكة عريضة عليها وسادات مربعة مغطاة بقماش مُقلم خيطته بنفسها سيدة الدار، جوارها ثلاث كراسي عليها نفس النوعية من الوسائد والغطاء، بينهم منضدة خشبية منقوشة، ومزخرفة زخرفة عربية، باب غرفة الجلوس مطل على الحوش في مواجهة باب الدخول، وهي نفسها غرفة الطعام كذلك، ففي أحد جانبيها طبلية كبيرة الحجم حولها بعض الوسائد للاتكاء والجلوس، موضوع عليها دائمًا إبريق الماء وكوبان من النحاس على صينية نحاسية بنفسجية اللون، هناك حجرة أخرى كبيره مُعدة كمندرة يدخلها الضيوف الزائرون من الرجال مباشرة، فلا يستطيعون الاطلاع على نساء الدار في دخولهم أو أثناء جلوسهم فيها، ثلاثة أرباع المندرة مرتفعة بعدة سنتيمترات، الجزء المنخفض

مرصـوف بالرخـام، يُـترك فيـه الخـف فيظـل الجـزء الأعـلى المغطـى بالسـجاد والحصير طاهـرًا، جوارهـا غرفتـان أخريـان أيضًـا للضيـوف، إذا مـا قـرروا المبيـت عندهـم، وذلـك كان أمرٌ نـادرَ الحـدوث، فاسـتخدمت السـيدة مريـم إحداهمـا لتُخـزن فيهـا أجولـة الدقيـق والقمـح والغلـة وخلافـه مـن احتياجـات البيـت.

بالـدور الأرضي فـرن عـلى يمـين الداخـل إلى البيـت، جـواره مجـور متوسـط الحجـم مصنـوع مـن الفخـار، يُعجـن فيـه العجـين الخـاص بخبـز الـدار مـن عيـش، وقُـرَصْ، أو حـتى كحـك العيـد، الـذي هـو مـن مظاهـر الفـرح والاحتفـال تعـده السـيدة مريـم زوجـة السـيد محمـود الـورداني عـلى أشـكال دائريـة تقدِّمهـا لضيوفهـم في العيـد، أو في قوالـب منقوشـة عليهـا «كل واشـكر» كمـا كان يحـدث أيـام الدولـة الطولونيـة، وهـي خارجـة بـه لزيـارة المـوتى في القبـور، هنـاك نمليـة متوسـطة الحجـم، تسـتند إلى جـدار البيـت جـوار الفـرن ممتلئـة بـالأواني النحاسـية والأباريـق والأكـواب، تلـك المنطقـة هـي مطبـخ السـيدة مريـم.

البيـت لـه دور علـوى بسـلم خشـبي عـلى يسـار بـاب البيـت يسـمى مدخـل الحريـم، بالـدور العلـوي غرفـة النـوم الخاصـة بالسـيد محمـود الـورداني وزوجتـه، وغـرف نـوم أبنائهمـا، عـلي وحسـن في غرفـة واحـدة كبـيرة، وغرفـه أخـرى لهنـد الـتي لـم تتجـاوز الخامسـة مـن عمرهـا بعـد، لكنهـا تخـشى النـوم بمفردهـا في الغرفـة، وتـصر عـلى النـوم مـع والديهـا رافضـة كل محـاولات أمهـا أن تنـام بمفردهـا في غرفتهـا. مـن أجـل ذلـك نَـوَتْ الأم أن تُأَخيهـا بأخـتٍ جديـدة، فحملـت آملـة في أن يرزقهـا اللـه ببنـت أخـرى. هنـاك مسـاحة مفتوحـة بالـدور العلـوى بهـا أريكـة عريضـة تعلوهـا مشربيـة تطـل عـلى الشـارع الكائـن أمـام البـاب.

«عـلي» الأخ الأكـبر في الثانيـة عـشرة مـن عمـره، بـدأ زغـب الشـنب يظهـر أعـلى شـفتيه، مـع بـوادر رجولـة مخلوطـة بالمراهقـة، يحـاول أن يفـرض سـيطرته عـلى أخويـه خصوصًـا حسـن الأصغـر منـه مبـاشرة، وهـو في

التاسـعة مـن عمـره، أمـا هنـد فهـي شـديده التعلـق بأخيهـا الأكـبر، تنصـاع لأوامـره وطلباتـه بحـب دون نقـاش، رغـم أنهـا كانـت دائمـة التشـاجر والمناحـرة مـع أخيهـا الأوسـط حسـن، لا تنفـذ لـه طلبًـا أو أمـرًا إلا إذا طلـب عـليٌّ منهـا ذلـك.

حسـن كان يحـاول التمـرد دائمًـا عـلى هـذا الوضـع، يـداوم عـلى محـاولات التملـص مـن سـلطة أخيـه الأكـبر ومحـاولات فـرض السـيطرة عـلى أختـه الصغـرى، لكـن المحـاولات كلهـا تبـوء بالفشـل، ليـس لعجـزِهِ عـن التمـرد عـلى سـيطرة أخيـه، لكـن لأنـه كان يحـب مصاحبتـه دائمًـا، ولا يبتعـد عنـه، مُفاضـلًا ومُفضـلًا إيـاه عـن مرافقـة مـن هـم في نفـس سـنه، أمـا أختـه يفشـل معهـا لأنهـا نجحـت في تمردهـا عـلى محاولاتـه الدائمـة في السـيطرة عليهـا.

هنـد رغـم أنهـا فتـاة صغـيرة لكنهـا عـلى غـير عـادة مـن هـم في نفـس عمرهـا، تخـرج للشـارع لتلعـب مـع أخويهـا الذكريـن، وتسـعد حـين ترافقهمـا مـع صاحبهـم وجارهـم أبانـوب في لعبهـم بعيـدًا عـن البيـت، أو مصاحبتهـم في الفرجـة عـلى القـرداتي بتأديتـة ألعـاب القـرد والحمـار والكلـب والجـدي، تضحـك في سـعادة وتصفـق بيديهـا حـين تـرى القـرد يلبـس بطريقـة فُكاهيـة كالعـروس، أو في هيئـة امـرأة محجبـة، يضعـه القُرداتي فـوق الحمـار، ويسـتعرضه داخـل حلقـة مـن المشـاهدين، يـدق الـدف ويرقـص القـرد مـع دقاتـه المتناغمـة ويـؤدي الأفعـال المضحكـة، وذات مـرة حـين طلـب القـرداتي مـن القـرد أن يختـار أجمـل فتـاة في الحلقـة، اختارهـا، ووضـع أنفـه في اتجـاه وجههـا فاحتضنتـه وحملتـه دون خـوف رغـم فـزع أخويهـا وأبانـوب وابتعادهـم عنهـا فـور اقترابـه منهـا، أمـا الكلـب فـكان يمتثـل لأوامـر صاحبـه ويقلـد حركاتـه بالزحـف عـلى بطنـه.

أكـثر الألعـاب مرحًـا لهـا تلـك الـتي يؤديهـا الجـدي حيـث يقـف أثناءهـا عـلى قطعـة صغـيرة مـن الخشـب عـلى شـكل صنـدوق وتكـون أقدامـه

الأربعـة متقاربـة، ترفـع قطعـة الخشـب هـذه والجـدي واقـف عليهـا في اتـزان، ثـم توضـع قطعـة مماثلـة تحتهـا، وبالطريقـة نفسـها تضـاف قطعـة ثالثـة ورابعـة وخامسـة، وبعـد أن ينتهـوا مـن الفرجـة عـلى الألعـاب يدفعـون لهـم مـع بـاقي المتفرجـين، الذيـن يدفعـون كلٌّ عـلى قـدر اسـتطاعته.

صديقهـم أبانـوب طفـل وحيـد لوالديـه، السـيد إبراهيـم مرقـص، والسـيدة إليصابـات، الـتي سـميت بهـذا الاسـم تيمنًـا باليصابـات زوجة زكريـا، وأم يوحنـا المعمـدان يحـي بـن زكريـا، الـتي حسـب التقاليـد الكنسـيَّة هـي أيضًـا ابنـة خالـة مريـم العـذراء. إليصابـات اسـم لـم تعتـاده الآذان فكانـت دائمًـا تُسـأل عـن معنـاه فتـشرح أنـه الصيغـة اليونانيـة لاسـم لفظـة في اللغـة العبريـة إليشـيبا أو اليشـبع ومعنـاه المكرسـة للـرب، وهـو اسـم امـرأة تقيـة مـن سـبط لاوى ومـن بيـت هـارون.

أمهـا هـي الـتي أطلقـت عليهـا هـذا الاسـم كمـا فعلـت جدتهـا مـع أمهـا، الـتي سُـميت بفيرينـا تيمنًـا بالقديسـة فيرينـا، الـتي نشـأت في مدينـة جراجـوس بالقـرب مـن مدينـة طيبـة قديمًـا - الأقـصر - ويعـني باللغـة القبطيـة الثمـرة أو البـذرة الطيبـة؛ لذلـك أصرت إليصابـات عـلى تسـمية ابنهـا تيمنًـا باسـم أحـد القديسـين بعـد أن تـوفي لهـا ثلاثـة أولاد مـن قبـل بعـد مـرض ومعانـاة، فـكان اسـم أبانـوب، الـذي هـو أحـد قديـسي الكنيسـة القبطيـة الأرثوذوكسـية.

السـيد إبراهيـم مرقـص يعيـش مـع زوجتـه في البيـت الملاصـق للسـيد محمـود الـورداني ويعمـل صانعًـا لـلأواني الفخاريـة كالـبرام والقـدور، وقد ورث هـذه المهنـة عـن والـده الـذي كان يمتهـن نفـس العمـل في أسـوان في جنـوب الصعيـد؛ حيـث التربـة الجيريـة والأحجـار والخامـات الصلبـة في المحاجـر، ذلـك قبـل أن يـترك أسـوان ويعيـش فـترة في أسـيوط، تـزوج مـن أهلهـا ثـم انتقـل مـع زوجتـه إلى المحروسـة واسـتقر فيهـا، ومـن يوم

أن سكن فيها لم يزره أحد من أقاربه أبدًا طوال السنين الماضية، حتى ظن الناس أنه هاربٌ من شيء ما، أو من ثأر عليه أو على أحد أقاربه، السيد إبراهيم مرقص لم يتحدث عن هذا من قبل، لكنه على علاقة طيبة بجيرانه وزبائنه في العمل ولم يظهر منه ما ينفرهم منه أو يجعلهم يبتعدون عنه.

- ٤ -

القاهرة ١٨٠٤

كانـت الأنبـاء تصـل إلى الأسـتانة بعـد حدوثهـا بفـترة، فانغـرس في شعور الباب العـالي أن مـصر تنفلـت مـن بـين أصابعهـم ، خصوصًا مـع سـكوتهم عـن التحالـف الـذي قـام بـين محمـد عـلي وجنـوده الألبـان وبـين المماليـك، فأرسـلت عـلي باشـا الجزايـرلي واليًـا مـن لدنهـا، ولـم يكـن ذا سـمعة طيبـة، فقـد ضُبـط منـذ فـترة ليسـت بالبعيـدة متلبسًـا بالفاحشـة مـع غلامـين في دائـرة الحـرم، وحُكـم عليـه بالـضرب بالسـياط حـتى المـوت، ثـم خُفـف بالوسـاطة مـن بعـض الأمـراء المصريـين، فاكتفـوا بحلـق لحيتـه عقابًـا لـه..!!!!!

أرسـل البـاب العـالي مـع الجزايـرلي ألفًـا مـن الجنـود دعمًـا لـه، نـزل بهـم إلى الإسـكندرية، وأرسـل أخـاه سـعيدًا للاسـتيلاء عـلى رشـيد، ولـم يكـد يسـيطر عليهـا ويبسـط يـده فوقهـا حـتى وصـل محمـد عـلي والبرديـسي بقواتهمـا واسـترداها منـه، واتخـذا سـعيدًا أسـيرًا، بلغـت أخبـار الهزيمـة والأسر عـلي باشـا الجزايـرلي فتحصـن بالإسـكندرية، واسـتعد البرديـسي للذهـاب إلى الإسـكندرية وعـزم عـلى محاصرتـه، وبينمـا هـو جالـس في خيمتـه، أتـاه شـيخٌ طاعـنٌ في السـن جـاوز المائـة للزيـارة وإلقـاء السـلام، كان يعرفـه مـن قبـل، ويتـبرك بـه، اسـتقبله مهـلًا وفرحًـا بحضـوره ولُقيـاه، وأثنـاء حديثهمـا قـال لـه الشـيخ:

- خـذ حـذرك مـن الآن فسـتقع فتنـة في عيـد الأضحـى، وسـتجري الدمـاء فيها .

أصاب البرديسي الخوف وهو يسأل مستفسرًا ليطمئن:

- دماء من؟

أجاب الشيخ بشيء من الغموض:

- الذئاب ستفترس الأجانب.

لم يكن يخفى على البرديسي أن المصريين يسمون المماليك بالأجانب، فخاف على نفسه وعلى رجاله، وزاد خوفه لما تراجع محمد علي بجنوده إلى القاهرة، بعد انخفاض النيل في البلاد، وأصبح تموين القوات أمرًا عسيرًا بعد غلاء الأسعار وقلة الموارد والتموين، فتقهقر إلى القاهرة مع مماليكه متراجعًا وعدل عن مهاجمة الجزايرلي، الذي حاول أن يفرق بين المتحالفين، فأرسل من يفاوض محمد علي سرًّا إذا ما تخلى عن المماليك، وأرسل من يفاوض البرديسي سرًّا، وأطمعه في عودة أموره وأمور مماليكه كما كانت قبل الحملة الفرنساوية فيما لو تخلى عن محمد علي وألبانيه، لكن المكيدة كانت واضحة لمحمد علي الذي تعود على تدبير المكائد بنفسه لخداع أعدائه والإيقاع بهم، فأرسل من يخبر البرديسي بما حدث معه، فازدادت ثقة الرجل فيه، واطمأن لجانبه، بعد ذلك وضع محمد علي خطة أقنع بها البرديسي لإخراج الجزايرلي من تحصنه بالإسكندرية.

فأوحى لمشايخ العلماء الذين استمالهم بمظاهر تقواه، واعتداله، وتقربه الدائم منهم، بإرسال دعوة لعلي باشا الجزايرلي يدعونه للقدوم إلى القاهرة، مُدَّعين أن أغلبية مشايخ العلماء يرغبون في حضوره للمحروسة لإنهاء المعارك الدائرة في البلاد، لكنهم يخشون الإجهار بالموضوع، فإن حضر، زال كل مستور، وجهر الكل بمبايعته واليًا على مصر.

انطلت عليه الخديعة، حتى إنه بعث يخبر أمراء المماليك بذلك، فأرسلوا إليه ردًّا يخبروه ألا يصطحب معه أكثر من ألف جندي، بعد أن علموا أن الباب العالي أرسل إليه إمدادًا بضع مرات من الجنود والعساكر، وأن قواته ربما بلغت عدة آلاف الآن، أخبروه أن

يسير بجنوده من دمنهور إلى المحروسة على شاطئ النيل الأيسر، لكنه خرج في زهو وخيلاء بألفين وخمسمائة جندي من المشاة، وما يقرب من خمسمائة من الفرسان على خيولهم. في الطريق زين له غروره رغبته في الاستيلاء على رشيد، لكنه وجد الحامية التي تركها محمد علي والبرديسي يقظة، فتراجع بقواته بعد أن صدوا محاولته الساذجة في الهجوم.

حاول أن يُصلح من موقفه، ويبرر فعلته بالهجوم، فأرسل اعتذارًا يخبرهم فيه أنه لم يكن ينوي سوءًا، وتعلل بأنه أراد تقصير المسافة، بعد إرسالهم رسول يستفسرون منه عما فعل، بعد أن وجدوه خالف الطريق المرسوم له، في مساء نفس اليوم ألقى خفراء المدينة القبض على جنديين من جنود الجزايرلي، وقادوهما أمام يحيى بك قائد مماليك حامية رشيد، فسألهما عما يريدان، فقال أحدهما:

- نحمل رسالة من علي باشا الجزايرلي إلى عمر بك قائد الألبانيين في رشيد.

فض يحيى بك الرسالة المكتوبة علانية في وجود عمر بك، واتضح أنها تحتوى على وعودًا يعدها علي باشا للألبانيين إذا انقلبوا على المماليك، استشاط الحضور غيظًا، واستعدوا لقتال الجزايرلي باشا، الذي اقترب بقواته من أطراف المدينة، وهو يعتقد أن رسالته أتمت مفعولها واشتعلت الوقيعة بين الحلفاء، لكنه صُدم لمَّا وجد القوات صفًّا واحدًا متربصين له خارج الأسوار، فلم يجسر على مهاجمتهم أو حتى الاقتراب منهم، واضطر للتراجع صاغرًا مرة أخرى إلى طريقه الأول التي رُسمت له، وفي طريقه نهب جنوده وفرسانه أغلب القرى في طريقهم. انتظره محمد علي والبرديسي بجنودهما في معسكر نصبوه بين شلقان وشبرا، وفي الليل هاجموا معسكره وأرغموا بعض جنوده على الفرار دون قتال، ولما تعجب الجزايرلي من هجومهم عليه،

أخـبروه في رسـالة:

- أنـت مـن خالـف التعليمـات وأتى بقـوات كبـيرة مـن العسـاكر فوجـب لقائـه كعـدو.

اجتمـع الجزايـرلي مـع قـواده للتشـاور وحـاول أن يقنعهـم بدخـول معركـة ضـد الألبـان والمماليـك، لكـن عسـكره أخـبروه أن البـاب العـالي لـم يأمرهـم بالقتـال أو الدخـول في معركـة، وقواتهـم ليسـت بالعـدد الـكافي للالتحـام، فعلـم أنـه قـد أُوقِـع بـه، فسـلم نفسـه إلى البرديـسي في خيمتـه، وجُـردت عسـاكره مـن أسـلحتهم، ورُحلـوا إلى التخـوم السـورية، بعـد أن أطـاح بـرؤوس سـتة مـن رؤسـائهم، معـروف عنهـم أنهـم مـن أصحـاب السـوابق في المشـاغبات والاضطرابـات. رغـم كونـه مقيـد الحركـة، اعتقـد الجزايـرلي بعـد المعاملـة الحسـنة الـتي لقيهـا مـن البرديـسي، أنـه يسـتطيع أن يدبـر خطـة جديـدة يخـرج بهـا منتـصرًا، ويتخلـص ممـن نصبـوا لـه الكمـين، فكتـب رسـالتين وأرسـلهم سرًّا، الأولى إلى عثمـان بـك حسـن أحـد كبـار أمـراء المماليـك، وعـده فيهـا بـأن يجعلـه وكيلـه إذا انشـق عـن المماليـك وانضـم إليـه، والأخـرى إلى الشـيخ السـادات يـشرح لـه فيهـا كيـف يمكنـه إثـارة الشـعب عـلى المماليـك.

وقعـت الرسـالتان في يـد عثمـان بـك البرديـسي، وواجـه غريمـه بهمـا، فلـم يجـد الجزايـرلي مـا يدافـع بـه عـن نفسـه.

أقبـل المسـاء وفوجـئ الجزايـرلي أن البرديـسي أرسـل مـن قِبلـه رجـلًا يخـبره أن الخيـل معـدة في انتظـاره للرحيـل ومغـادرة القطـر المـصري إلى سـوريا، كان الرجـل يقـف أمامـه ويـده عـلى مقبـض سـيفه وفي الخـارج الخيـل والجنـود مـع بنادقهـم، وقـع الرعـب في قلـب الجزايـرلي لمـا سـمع الرجـل يقـول في حـزم وغلظـة:

- عثمـان بـك البرديـسي يخـبرك أن تصرفـك أظهـر خيانتـك، وأصبحـت لا تؤتمـن عـلى بقائـك هنـا في وسـطنا.

جمـع الجزايـرلي متاعـه، ودس كفنـه الـذي لـم يكـن يفارقـه أبـدًا بينـه،

ركـب مـع ابـن أختـه وأتباعـه، وأحـاط بهـم جمـع قـوي مـن المماليـك طـوال الطريـق حـتى وصـل بهـم السـير ناحيـة القريـن، فعسـكروا بهـا وجلسـوا يسـتريحون، وبينمـا هـم جالسـون، أخـرج المماليـك بنادقهـم وصوبوهـا ناحيتهـم وأفرغـوا فيهـم طلقاتهـم، اخترقـت طلقتـان منهـا جسـد الجزايـرلي باشـا، خـر عـلى الأرض مدرجًـا في دمائـه، لكنـه لـم يمـت عـلى الفـور، ظـل يزحـف عـلى الرمـال حـتى وصـل إلى متاعـه، أخـرج منهـا قطعـة قمـاش أبيـض مطويـة في عنايـة، رفعهـا ناحيـة قاتليـه، وقـال وهـو يلفـظ أنفاسـة الأخـيرة:

- هذا كفني، لا تحرموني من التكريم بالدفن بعد مماتي..

نطق في وهن من بين دموعه:

- أرجوكم.. لا تتركوا جسدي لوحوش الصحراء.

لـم يكـن هنـاك مـن شيء يحـدث إلا بعلـم وربمـا بأمـر مـن محمـد عـلي، كل الأمـور كان يديرهـا بدهـاء مـن خلـف السـتار، كل المكائـد والمعـارك والقتـل، كان يحركهـا بأصابعـه دون أن يلـوث طـرف ثوبـه ولـو بقطـرة دمـاء.

البـاب العـالي كعادتـه تصلـه الأخبـار متأخـرة ويرسـل أيضًـا أوامـره المـترددة متأخـرة، فقـد وصـل فرمـان مـع رسـول مخصـوص، يؤيـد عـلي باشـا الجزايـرلي عـلى ولايـة مـصر، بعـد أن مـات ودفـن ولاقى ربـه.

في تلـك الفـترة عـاد الألفـي مـن بريطانيـا بعـد أن رأت الحكومـة هنـاك أن الوقـت قـد حـان ليتدخلـوا عسـكريًا، ويدعمـوا الألفـي للوصـول إلى مقاليـد الحكـم في البـلاد، فعـاد الألفـي ومعـه مـن التحـف والأمـوال الكثـير اللازمـة لـشراء الذمـم والقلـوب.

وقـع خـبر وصـول الألفـي عـلى مسـامع عثمـان بـك البرديـسي كمـا تـنزل الصاعقـة تـضرب الأرض وتزلزلهـا؛ لأنـه يعلـم أن أتبـاع الألفـي ومريـدوه مـن المماليـك كثـيرون، ولـم يكونـوا يطيعـوه إلا متذمريـن في ضيـق؛ لأنهـم لـم يجـدوا حـلًا آخـر، أو ربمـا اتبعـوه كوضـع مؤقـت. نمـا إلى

علمه في نفس الوقت أن الألفي الصغير - الذي تركه الألفي الكبير على رأس حزبه لما غادر الديار - استدعى رجاله وأمرهم بالاستعداد للانضمام إلى سيدهم فازداد هلعه وخوفه.

توقع محمد علي أن البرديسي سيقصده ليستنجد به ويشاوره في تصريف أموره، وبالطبع لم يكن يَخفى عليه أن وصول الألفي ما هو إلا ستار يخفي من خلفه تدخل الإنجليز لفرض نفوذهم وسيطرتهم على البلاد بمساعدة المماليك، وأن الألفي إذا حاول إقناع البرديسي بالانضمام إليه ونجح، حينها سيخسر كل ما عمل من أجله وخطط إليه طوال الفترة السابقة، فلما أتاه البرديسي فعلًا يطلب مشورته، أشار عليه بقوله:

- لا بد من القضاء على الألفي، قبل أن يتمكن من القضاء علينا بمساعدة الإنجليز.

اقتنع البرديسي بما أشاره عليه محمد علي، وأعماه خوفه وكرهه للألفي من موازنة الأمر ومراجعة ما هو في صالحه وصالح جماعته من المماليك، فانتقل إلى بر الجيزة بالاتفاق مع محمد علي وباغت الألفي الصغير في معسكره هناك، حيث تخلى مدفعيو الألفي الصغير عنه، وفروا هاربين بعد الهجوم عليهم، ولم يبق معه إلا بضعة رجال هرب معهم، في نفس الليلة تحرك محمد علي ناحية فريق من مماليك الألفي الصغير كانوا راقدين في إمبابة وداهمهم في نومهم، وقتلهم عن آخرهم.

امتلأ قلب الألفي الكبير بالأحلام والأمنيات، يتخيل لحظة جلوسه على عرش مصر وهو يمخر عباب النيل في مركب القنصل البريطاني، والراية البريطانية تخفق فوقه، تتبعه مجموعة من القوارب، تحمل الأموال التي أتى بها من بلاد الإنجليز، وصل بها حتى منوف، وهناك رأى مراكب عدة عليها عساكر ألبانية تتقدم لمقابلته، ظن أن المعركة ستبدأ ضده الأن، وأمر رجاله بالاستعداد، لكن الألبانيين

لـم يتعرضـوا لـه، بـل هاجمـوا القـوارب الـتي تحمـل التحـف والأمـوال ونهبوهـا، فـر الألفـي وسـط الفـوضى الـتي حدثـت مـن الهجـوم ومحاولـة جنـوده الدفـاع عـن الأمـوال والتحـف الـتي غـرق بعضهـا في النيـل، نجـح في الـنزول إلى الشـاطئ، واتجـه ناحيـة قبيلـة بدويـة كانـت تـضرب خيامهـا هنـاك، فاسـتقبلته امـرأة منهـا، وأعطتـه حصانًـا ودليلـين، ابتعـد بهمـا وتبعـه مماليكـه سـيرًا عـلى الأقـدام، حـتى بلغـوا «خانقـاة» وهـي مـكان ينقطـع فيـه المتصوفـون للعبـادة، فهاجمـه فيهـا جمـع مـن العربـان، نجـا منهـم الألفـي بصعوبـة بفضـل سرعـة حصانـه واختبـأ عنـد شـيخ مـن مشـايخ عـرب الشرقيـة.

عـاد البرديـسي للقاهـرة بعـد ذلـك فوجـد أن مجموعـة كبيرة مـن مماليكه غادرتـه غاضبـة ممـا فعـل، ومجموعـة أخـرى غادرتـه للانضمـام للألفـي، والجنـود الألبانيـون يطالبونـه بمراتبـات متأخـرة مسـتحقة لهـم لديـه عـن الأشـهر الثمانيـة المنصرمـة، حـاول أن يماطلهـم، بعدهـا وصـل محمـد عـلي عـلى رأس فرقتـه، دخـل عليـه في هـدوء ووفـاء الصديـق المخلـص وهـو يقـول مُدعيًـا:

- جئـت في سرعـة بعدمـا علمـت مـا يحـدث، لا تبتئـس بمـا يفعلـون، هـذا حـال الجنـود دومًـا، سـأحاول التوفيـق بينـك وبـين الجنـود الألبـان حـتى تسـتقر الأمـور وتهـدأ.

مـع ذلـك كان جمـع المـال في سرعـة أمـر حتمـي، اضطـر معـه البرديـسي لفـرض جبايـات كبـيرة عـلى كل الشراقـوة والفرنـج المقيمـين في القاهـرة، لتجميـع أي مبالـغ يسـد بهـا أفـواه الجنـود، احتـج القناصـل، لكـن البرديـسي أمـر بجمـع الضريبـة عنـوة منهـم.

مـع ذلـك لـم يكـف مـا جمـع مرتبـات الجنـد، فقـرر فـرض ضريبـة أخـرى عـلى أهـل المحروسـة كانـت فادحـة فقصمـت ظهـور العبـاد، ولـم يقـدروا عـلى دفعهـا، خرجـوا في الطرقـات ثائريـن، وهاجـت الأهـالي في شـوارع المحروسـة وقتلـوا أنفـارًا عـدة مـن المحصلـين، تجمهـروا في

ساحة الأزهر - ملاذهم الدائم - وحوله، حتى النساء خرجن من بيوتهن يتظاهرن، وقد سبغن وجوههن بالنيلة يهتفن:

- إش تاخد من تفليسي يا برديسي.

وجد محمد علي الفرصة سانحة أمامة يتقرب فيها أكثر إلى الأهالي ومشايخهم، فذهب بمفرده إلى الناس الثائرة المحتجة في مكان تجمعهم ووعد العلماء بأن الضريبة المفروضة لن تُجبى، فصدقه الناس وهدأت الأمور وعادوا إلى منازلهم، وهم يدعون له، أصبح محمد علي لحظتها مضطرًا إلى منع البرديسي من جباية تلك الضريبة، فقرر أن الوقت قد حان لاقتلاعه والتخلص منه، خصوصًا بعد شعوره أن بعض المماليك على رأسهم إبراهيم بك الكبير يَشكُّون في خالص نواياه تجاههم.

يومها أرسل رسالة إلى عثمان بك حسن ومماليكه الناقمين على البرديسي يستميلهم ناحيته، ونجح في ذلك.

في ظهر اليوم الثاني عشر من شهر مارس سنة ١٨٠٤، أمرهم بالسير للإحاطة بمنزل إبراهيم بك الكبير، ووجه جنوده للإحاطة بدار البرديسي بعد أن استمال الأتراك المكلفين بحمايته بالرشاوي التي يبدو أنها كانت ثمينة؛ لأنهم أداروا فوهة مدافعهم صوب جدران دار البرديسي ودكوها دكًا، وجعلوا البرديسي يفر مع بعضٍ من رجالاته على الخيول بعد حمله ما خف وغلا على ظهور هجن، اخترق بهم صفوف الألبانيين المحيطة بداره، ونجح في فتح ثغرة في الحصار له ولمن معه ونفذ منها هاربًا، فر برجاله وأمتعته نحو البساتين، أما إبراهيم بك الكبير فقد تمكن من الهرب عند الفجر من منزله إلى ساحة الرُّميلة، وفر منها إلى الصحراء، في نفس اليوم انقض المدفعيون المقيمون في القلعة على دار السكة فنهبوها وسرقوا كل ما فيها، ثم ولوا هاربين من باب الجبل كما فعل أسيادهم من الأمراء.

لـم يبـق في القاهـرة مـن قـوة أو سـلطة سـوى محمـد عـلي وجنـوده، لكنـه رغـم ذلـك لـم يـرى أن الوقـت قـد حـان ليتقلـد مفاتيـح القلعـة ويمسـك زمـام أمـور المحروسـة والبـلاد، ولـم يُظهـر لأحـد رغبتـه في ذلـك بعـد.

صعـد محمـد عـلي مـن تلقـاء نفسـه إلى القلعـة في نفـس اليـوم الـذي طُـرد المماليـك فيـه مـن القاهـرة، وأنـزل منهـا خـسرو باشـا المسـجون فيهـا، ليعيـده إلى كـرسي الولايـة، لـم يصـدق خـسرو باشـا مـا يحـدث، كونـه سـيعود إلى كـرسي الحكـم مـن السـجن، كمـا حـدث مـع يوسـف الصديـق، لكنـه لـم يهنـأ بهـا سـاعات؛ لأن الزعمـاء الألبانيـين مـن زمـلاء محمـد عـلي بتحريـض مـن ولـدي أخـي طاهـر باشـا، رفضـوا تعيـين خـسرو باشـا، وأنزلـوه مـن القلعـة مقيـدًا، وأرسـلوه مـع حـرس إلى رشـيد ليُحبـس فيهـا، لـم يمانـع محمـد عـلي ولـم يعـترض، ولـم يبـد أي نيـة طمـع في الحكـم، أو حـتى أشـار عليهـم بشـخص آخـر، كل مـا كان يهمـه حينهـا أن تبقـى مقاصـده مخفيـة عـن بصيرتهـم، وأن يُؤمـن البـاب العـالي بولائـه لهـم، ويضمـن تعلـق العلمـاء بـه.

انضـم إلى زعمـاء المشـايخ والبـلاد في اجتماعهـم الـذي عقـدوه لاختيـار مـن يصلـح لتـولي الحكـم، فاجتمعـت الآراء عـلى تعيـين خورشـيد باشـا محافـظ الإسـكندرية المـولَّى عليهـا منـذ أن كان خـسرو باشـا واليًـا عـلى مـصر، خورشـيد كان والـده راهبًـا مسـيحيًّا، لكنـه أسـلم في شـبابه بعـد أن أصبـح مـن الإنكشـاريين، وكان مـن حـرس السـلطان محمـود الثـاني قبـل أن يوليـه خـسرو الإسـكندرية.

وقـع في نفـس محمـد عـلي حينهـا أن خورشـيد آخـر مـن تبقـى في مـصر ممـن يمكـن أن تتجـه إليهـم الأبصـار ليتـولى الحكـم، فـإذا لـم يفلـح هـو أيضًـا، أصبـح مـن السـهل حمـل القـوم عـلى انتخابـه. بعـد الاتفـاق تحركـت فرقـة ألبانيـة وأتـت بخورشـيد باشـا مـن الإسـكندرية في الثـاني مـن أبريـل، ولأول مـرة لـم يـأت فرمـان الأسـتانة متأخـرًا كعادتـه، فقـد وصـل

فرمان التثبيت في الثامن والعشرين من نفس الشهر.

لم يكن يخفى على خورشيد باشا سيطرة محمد علي الخفية على الأمور؛ لذلك حاول من البداية أن يخرج من قبضته بعد أن باتت ظاهرة له سيطرتها على كثير من الأمور في البلاد، حاول أن يتجنب مكائده ويتحاشى مواجهته حتى يقدر على مجابهته.

خزائن مصر كانت خاوية على عروشها، ومع حاجة خورشيد باشا الشديدة للمال اضطر أن يأمر بتحصيل الميري عن السنة كلها مقدمًا، استغل محمد علي ذلك ليُقَلِّب عليه نفوس المشايخ والأهالي، ويثير عليه الضغائن، زاد خورشيد باشا على ذلك بأن شرع يبحث عن كل من له علاقة بالمماليك ويصادره، رد المماليك عليه بأن منعوا الوارد من غلال وأقوات عن القاهرة، بعد أن سيطروا على مداخلها ومخارجها، جاع الأهالي وزاد جوعهم من نقمهم على خورشيد باشا ونفورهم منه، كل الأموال التي يجبيها من الخلائق من كل النواحي بالقوة لم تكن تكفيه أو تفي احتياجاته، ازدادت صعوبة الحصول على المال مع الوقت أمام خورشيد باشا، حتى جاء يوم اعتقل فيه السيدة نفيسة المرادية أم المماليك مع بعض نساء المماليك، وأمر رئيس الشرطة بإحضارها للقلعة، واتهمها بأن جارية لها تحرض الجند على التمرد ضده بالاتفاق مع المماليك، شاع الخبر بين العامة واتجه القاضي والسيد عمر أفندي مكرم والشيخ محمد السادات، والشيخ محمد الأمير، للقلعة وتحدثوا مع خورشيد باشا مستفسرين عن حقيقة اتهامه لأم المماليك، قال مدعيًا:

- لقد جائتني الأخبار أنها وعدت كبار رؤساء الجند بدفع رواتبهم، إذا تمردوا عليَّ، وما دامت تقدر أن تدفع رواتب للجنود لينقلبوا عليَّ، فلتدفعها إذن لخزانة الحكومة.

فلما خاطبوا السيدة نفيسة أنكرت التهم وقالت:

- إن كان يريد مصادرة أموالي فلم يبق عندي شيء، لا أب، ولا زوج،

ولا أخ، فبأي داع أخـدم مصلحتهـم؟ إني أرى أن كل هـذا تحايـل لابـتزاز أمـوال مـني ليـس لـديَّ منهـا ظلهـا؛ لأني قـد أصبحـت في حـال لا تمكـني مـن القيـام بواجـبي والتزامـاتي نحـو نفـس مـن خدمـني ويخدمـني.

وقفـت السـيدة نفيسـة في شـموخ كعادتهـا في كل الصعـاب والمواقـف الـتي واجهتهـا طـوال حياتهـا أمـام الباشـا وطالبتـه في شجاعة بدليـل على مـا نسبه إليهـا وإلى جاريتهـا، فلـوح في وجههـم بورقـة ولـم يرهـم إياهـا، وقـال:

- لقد وقعت رسالتكم في يدي.

صوبت السيدة نفيسة نحوه سهام كلماتها قائلة:

- عشـتُ بمـصر وقـدري معلـوم عنـد الأكابـر وخلافهـم، والسـلطان ورجـال الدولـة، وحريمهـم يعرفـوني أكـثر مـن معرفتـك بي، ولقـد مـرت بنـا دولـة الفرنسـيس فمـا رأيـت منهـم إلا التكريـم، وكذلـك مـن محمـد باشـا خـسرو الـذي كان يعرفـني ويعـرف قـدري، ولـم نـر منـه إلا المعـروف، أمـا أنـت فلـم يوافـق فعلـك فعـل أهـل دولتـك ولا غيرهـم.

بعـد سـوء الوضـع الـذي وجـد نفسـه فيـه، تراجـع عـن القبـض عليهـا وحبسـها، لكنـه أمـر بـأن تتوجـه لبيـت الشـيخ السـحيمي بالقلعـة، وأجلسـها هنـاك تحـت حراسـة مجموعـة مـن العسـكر، حـاول العلمـاء والمشـايخ خـلال الأيـام الـتي تلـت حبسـها إقنـاع خورشـيد باشـا لإطـلاق سراحهـا وألحـوا في طلبهـم، فـأبى بالرغـم مـن إلحاحهـم وتوسـلهم، فنفـروا منـه أكـثر، ثـم تدخـل بعـض كبـار المرتبـة مـن ذوي الشـأن لديـه، وانتهـى الأمـر بتصريـح خورشـيد باشـا للسـيدة نفيسـة أن تقيـم في بيـت الشـيخ السـادات، وكانـت عديلـة هانـم، بنـت إبراهيـم بـك الكبـير، قـد لجـأت إليـه، أول مـا بلغهـا مـا أصـاب نفيسـة هانـم، خشـية أن تصـاب بمثلـه.

لـم يجـد خورشـيد باشـا أمامـه بعـد ذلـك، سـوى أن جمـع الوجاقليـة - وهـي وحـدة عسـكرية عثمانيـة - وفـرض عليهـم ألـف كيـس وأبقـى

بعضهـم لديـه رهائـن حـتى يدفعـوا، ثـم فـرض بعـد ذلـك خمسـمائة كيـس عـلى الأقبـاط، ومائـة وخمسـين كيسًـا عـلى المسـيحيين السـوريين المقيمـين في مـصر، ومـع أن ضريبـة المـيري للسـنة الجاريـة لـم يسـتطع تحصيلهـا، إلا أنـه أمـر بتحصيـل السـنة الـتي تليهـا، كمـا زاد الضرائـب عـلى أربـاب الحـرف والصنائـع في القاهـرة، فثـاروا واحتشـدوا مـن جديـد في سـاحة الأزهـر، وجاهـروا بالتمـرد والعصيـان.

حـاول أن يتراجـع عمـا فعـل دون أن يبـدو أنـه خـاف وتراجـع نتيجـة ثـورة النـاس عليـه، فأرسـل منـادٍ في المدينـة ينـادي بـأن الفقـراء يعفـون مـن دفـع الضريبـة، رغـم أن كل أربـاب الحـرف والصنائـع باتـوا وأصبحـوا مـن الفقـراء مـع سـوء الحـال المنتـشر في البـلاد.

في النهايـة مـع كل مـا فـرض وجمـع لـم يسـتطيع خورشـيد باشـا جمـع مـا يلزمـه لدفـع رواتـب الجنـد، فانطلقـوا معتديـن عـلى الأهـالي والتجـار وقامـوا بأعمـال السلـب والنهـب، حـتى أغلـق الجميـع حوانيتهـم ودكاكينهـم، وفرغـت الأسـواق، وأغلـق النـاس عـلى أنفسـهم أبـواب بيوتهـم، وباتـت المدينـة شـبه مهجـورة لا يتجـول في شـوارعها سـوى الجنـود.

أمـر بعـد ذلـك أن يصـادر نسـاء المماليـك، وابـتز منهـن ألفًـا ومائـتى كيـس، بعـد أيـام عقـد ديوانًـا كبـيرًا، جمـع فيـه النـاس، وألقـى عليهـم فرمانًـا وصـل إليـه مـن الأسـتانة يشـكر فيـه البـاب العـالي مـن سـاعدهم عـلى المماليـك، ثـم اسـتدعى العلمـاء مـن المشـايخ وألبسـهم فـرو مـن سـمور كمـا هـي العـادة، وألبـس معهـم مديـر دار السـكة، ومراقـب عمـوم الماليـة واثنـين وعشريـن وجيهًـا مـن الأقبـاط، ثـم طلـب منهـم في اليـوم التـالى - مقابـل كل مـا نالـوا مـن إكـرام - أن يدفعـوا ألـف كيـس عـلى سـبيل الإعـارة الجبريـة.

قبـل تلـك الأيـام عندمـا علـم الألفـي مـا حـدث للبرديـسي خـرج مـن مخبئـه، وأتى عـلى رأس قـوة مـن رجالـه، وأقـام في قريـة عـلى ضفـة النيـل

اليمنى على مسيرة يومين من القاهرة، وبدأ في محاولات التقرب من البرديسي من ناحية، ومراسلة خورشيد باشا نفسه من ناحية أخرى، للوصول إلى أى اتفاق معهما، استقبل خورشيد باشا رسول الألفي بحفاوة، ولم يتغيب محمد علي عن الموقف فأهدى رسول الألفي جوادًا مطهمًا، كلاهما كان يحاول بطريقته تحييد الألفي عن الموقف الحالي وإبعاده عن الصورة بقدر الإمكان أو نهائيًا، قلده خورشيد باشا ولاية جرجا ليبعده عن المحروسة، وبذلك يكون أمن شره، في نفس الوقت كان محمد علي يرسل بعضًا من عساكره لمقاتلة مماليك البرديسي في المعتمدية، والإيقاع بهم والرجوع يوميًا إلى القاهرة برءوس بعضهم على رءوس الحراب، حتى انسحبوا وتراجعوا نحو تخوم القليوبية، ولم يكتف بهذا، بل طاردهم إلى المنوفية، لكنه لم يستمر في تعقبهم بل عاد للمحروسة لاحتياجه إلى أموال لدفع مرتبات جنوده، كان يُدرك أن مطالبة خورشيد باشا لن تمنحه شيئًا، فألقى القبض على اثنين من أغنى وجهاء المدينة من محسوبي الوالي، ولم يخل سبيلهما حتى دفعَا بين يديه خمسمائة كيس.

لما بلغ الألفي في جرجا أنباء مصادرة نساء المماليك في القاهرة، غضب وأعلن عداءه للوالي صراحة بأن انضم في قتاله إلى باقي المماليك، وأرسل إلى خورشيد باشا رسالة يعلن فيها عداءه وحربه عليه، استشاط الوالي في قلعته غضبًا وأصدر أمرًا بقطع رأس الرجل الرومى الذي حمل الرسالة إليه.

زحف المماليك من كل جهة، ناحية المحروسة دون اتفاق أو تخطيط بينهم، فخرج محمد علي إلى مقابلتهم، والتقى بهم في مناوشات عدة، وفي يوم وقع مع ثمانمائة من جنوده في كمين نصب له جهة البساتين، نجا منه بأعجوبة، أرسل بعدها رسالة إلى عثمان بك حسن والألفي أنه اكتفى من أمر القتال الذي لا طائل منه ولا نهاية له، وأنه إذا أبى خورشيد باشا مصالحة المماليك، فإنه سينضم

إليهما، فصدقا مكيدته، في ظلام الليل سار محمد علي بألف رجل إلى طُرة وهاجمهما وهما نائمان، وأثخن فيهم الجراح، ولولا أن الألبانيين خالفوا أوامره وأطلقوا الرصاص قبل إتمام الإحاطة بالقرية لما نجا أحد من المماليك هناك، ابتعد المماليك بعد إصابتهم عن القاهرة، وعادت الأقوات لدخول القاهرة مع الفلاحين، وزالت بدايات المجاعة - التي كادت أن تقع - وزال ضيق الحال الذي ألم بالمحروسة، ونسب أهلها الفضل في ذلك إلى محمد علي.

تلك الفترة شهدت بدء معاناة الباب العالي من الوهابيين، وبداية جمعهم القوات من جميع أنحاء الولايات لمحاربتهم في جزيرة العرب، فأرسلوا إلى خورشيد باشا أمرًا بإرسال خمسمائة رجل إلى ينبع لدفع الوهابيين عنها، لكنه لم يقدر على ذلك، فلا توجد أموال في خزانة الدولة تكفي لتعبئة القوات وجمعها، وتموينها، ولا القوات المتاحة سترضى بالرحيل دون الحصول على مستحقاتهم المتأخرة.

بدأ من ناحية أخرى محاولاته للتخلص من الجنود الألبانيين فاستصدر فرمان يأذن لزعماء الألبانيين للعودة بجنودهم إلى بلادهم، فرضي الزعماء لكن الجند رفضوا مغادرة البلاد إلا بعد حصولهم على مرتباتهم المتأخرة، فاضطر خورشيد باشا أن يدفع من ماله الخاص جميع المتأخرات، ليتخلص من الزعماء الألبان وعسكرهم لكن الزعماء عدلوا بعدها عن الرحيل، ولم يجنِ خورشيد من تسرعه سوى خسارة المال الذي دفعه.

في عصر أحد الأيام تجمع الناس على شجار حدث بين جنديين من الأرناؤوط ورجل فرنسي يدعى روجيه، كان يعمل رئيسًا للصيادلة في الحملة الفرنساوية، أحب البلاد وأهلها وقرر البقاء فيها ولم يرحل مع الفرنساوية، الجنديان أرادا قتله، فدافع الرجل عن حياته وضرب الأول بضربة أودت بحياته، لحق به خادمه يساعده بعدما سمع أصوات الشجار، ووصل إلى مسامعه صوت سيده يستغيث

ويستنجد بـه، أطلـق الخـادم الرصـاص عـلى الجنـدي الثـاني فجـرُح جرحًـا خطـيرًا، اجتمـع العسـاكر عـلى أثـر الشـجار في الحـارة، كـثر الهـرج والمـرج وشـاعت الفـوضى في المنطقـة بعـد هجـوم العسـاكر الغاضـب عليهـا وأرادوا نهبهـا، وصـل الخـبر إلى محمـد عـلي، فـأسرع التحـرك وذهـب للحـارة مـكان الشـجار عـلى قدميـه دون فـرس، ومعـه بضـع عسـاكر لا يتجـاوزون عـدد أصابـع اليـد الواحـدة، وأمـر بصوتـه القـوي أن يفتـح بـاب الحـارة، وإلا حطمـه هـو وجنـوده، ففُتـح البـاب ووَضـع خفـراء عليـه للحراسـة والتأمـين، كانـت هيبتـه بـين الجنـود والعسـاكر قويـة، فامتثلـوا لأوامـره لمـا طالبهـم بالتوقـف والتراجـع عمـا يفعلونـه، وحـتى يـرضي الجنـود ويزيـل غضبتهـم اتجـه للقنصـل الفرنـسي وحملـه عـلى دفـع أربعـة الآف قـرش لأخ المقتـول، ديـةً لـه، وأمـر أخـاه بقبولهـا، وأمـر الجنـود بالاكتفـاء بهـا عـن الثـأر.

ذلـك الموقـف رفـع مـن وضعـه ومكانتـه بـين عامـة النـاس وقـدره، خصوصًـا لمـا منـع العسـكر الهائـج من ارتـكاب أفعالهـم الغاضبـة بكلمته فقـط، وليظهـر هـذا الـولاء أمـام زعمـاء الجنـود الألبانيـين وغيرهـم وأمـام خورشـيد باشـا نفسـه، ذهـب ذات صبـاح مصطحبًـا أحمـد بـك - الـذي كان يقاسـمه الإمـرة عـلى الأرنـاؤوط - إلى الـوالي، قابلهـم خورشـيد باشـا بجفـاء، يُخفـي بـه ضيقـه منـه، ومـن وجـوده في البـلاد، ومـن قدرتـه عـلى التحكـم في أمـور القطـر ومقدراتـه في الخفـاء، فلـم يكـن مـن الغبـاء ليخفَـى عليـه طمـع شـخص مثـل محمـد عـلي في ولايـة القطـر المـصري، فاجـأه محمـد عـلي بقولـه:

- لقـد قـررت أنـا وأحمـد بـك بعـد أن جمعتنـا رغبتنـا في الرحيـل عـن مـصر والرجـوع إلى بلادنـا.

كاد أن يطـير عقـل خورشـيد باشـا مـن الفـرح، ولـولا قدرتـه عـلى كتـم مـا بداخلـه لتدلـت فكـه السـفلى في بلاهـة ثـم وقـف يرقـص في سـعادة مـن أثـر هـذا الخـبر، الـذي نـزل عليـه كمـا يـنزل المـاء البـارد في جـوف

رجل ظمآن يسير في الصحراء في عز القيظ، فتخلصه من شخص محمد علي غنيمة كبرى لا تعوض، بل ستكون أكبر غنائمه منذ تولي عرش القطر، كان قد عين محمد علي قبل هذا اليوم بفترة حاكمًا على جرجا، فأصدر أمر بإقالته ليتمكن من الرحيل، وعين بدلًا منه سلحداره، ذاع الخبر بين الجنود ووصل إلى عامة الشعب بعد ما بدأ محمد علي في بيع أملاكه التي كان قد اشتراها من قبل. اضطربت المدينة بعد انتشار الخبر، أُقفلت الأسواق والدكاكين، وتجمع الناس في الشوارع والدروب تعلو وجوههم أمارات الحزن على رحيل الرجل الوحيد تقريبًا الذي يحميهم من تعدي الجنود عليهم ونهبهم لدكاكينهم وحوانيتهم، انتشر بعض الجنود في الشوارع والحارات بعدما أيقنوا من رحيل رادعهم، وتجددت أعمالهم من سلب ونهب وزادت السرقات وكثر التعدي على الناس، وأراقوا دماء من حاول صدهم والوقوف في وجههم.

أسرع نفر من الناس يشكون ويرجون محمد علي الذي استجاب لهم على الفور، فنزل وطاف في أرجاء المدينة على قدميه في الشوارع، فهدأت مخاوف الناس وقل رعبهم بعد ما رأوا محمد علي بينهم من جديد، أطلق قواته تقبض على الجند الذين اعتدوا على الناس، وعاقب بالقتل كل من تجاوز منهم، ولإبراز قوته وسطوته بين الجنود، وليذيع الخوف بين خصومه وأعدائه، وحتى تصل الصورة كاملة لدى خورشيد باشا، أبقى الرءوس المقطوعة عدة أيام معلقة على الأبواب، بعدها أعلن على عامة الناس تراجعه عن قرار رحيله، بعدما أوصل رسالته كما أراد، وانتهى الأمر بسفر مائتي ألباني ومعهم أحمد بك.

- ٥ -

السيد محمود كان الابن الوحيد لوالده السيد علي أحمد الورداني، سمَّى ولده البِكري «علي» تيمنًا وترحمًا على والده الذي لم يسعفه حظه بلقاء أول أحفاده، السيد علي الورداني تزوج في سن متأخرة من أم محمود، كان متزوجًا قبلها بالسيدة رُقية، ولم يرزق منها بأولاد أو بنات طيلة عشرين عامًا، تزوج عليها من أم محمود وهو في سن الخمسين، ورزقه الله منها بولده الوحيد.

السيد علي الورداني كانت له ذكرى حسنة بين جيرانه وأهل المحروسة كلهم، ليس فقط لدماسة وحسن خلقه وسمعته الحسنة، لكن لبطولاته أيام الحملة الفرنسية وجهاده ضد الفرنساوية، ومقاومته مع أهل رشيد لحملة فريزر التي استشهد فيها ومحمود في عامه الثامنة عشر تقريبًا.

السيد علي أحمد الورداني يعود أصله إلى مدينة المنصورة، له أخ وأخت ظلوا يعيشون فيها حتى بعد وفاة والدهم، نزح إلى القاهرة في حياة والده وأنشأ فيها ورشة للحدادة، بما أخذه من والده من مال، مساعدة له في غربته، بعد عدة سنوات لم ينقطع فيها عن الوصال مع أبيه تزوج من فتاة قاهرية –رُقية - وهي بنت الشيخ محمد السوسي أحد شيوخ الأزهر، ورغم أنها لم تنجب له ولدًا أو بنتًا، لم يقرر الزواج من أخرى إلا بعد سنوات طويلة من بعد وفاة والدها الشيخ، ليس خشية منه، ولكن توقيرًا واحترامًا لوجوده.

فكر في أن يتزوج من أصل موطنه المنصورة، شجعه على ذلك والده الذي طعن في السن وبلغ من العمر أرذله، وأصبح يتمنى لو يرى حفيدًا له من علي، اختار له فتاه صغيرة في السن - لم تتجاوز الخامسة عشر حينها - اسمها جميلة، وكانت حقًّا جميلة، جميلة

الملامـح وجميلـة الخلـق وجميلـة الأصـل، شـعرها أسـود كليـل شـتاء طويـل، عيناهـا سـوداوين كحيلتـين كالمهـا، وجههـا أبيـض كوجـه القمـر ليلـة تمامـه، وخدودهـا ورديـة كالرمـان، مـن أسرة طيبـة لهـا صلـة قرابـة مـن ناحيـة أمهـا بالسـيد أحمـد الـورداني، أمـا أبوهـا فهـو السـيد عثمـان الخطـاط أحـد أعيـان المنصـورة، وواحـد مـن أحفـاد الشـيخ الخطـاط الكبـير الـذي حـارب جـوار بيـبرس - المملـوك الشـاب حينهـا - في معركـة المنصـورة ضـد الحملـة الصليبيـة بقيـادة القديـس لويـس الـذي كان يرغـب في تأديـب الملـك الصالـح نجـم الديـن أيوب، وإعـادة مفاتيـح أورشـليم إلى بابـا رومـا، واسـتطاعوا في هـذه المعركـة أن يوقعـوا بهـم، بعـد أن دبـروا عـدة كمائـن داخـل المدينـة، سـهلت عليهـم اصطيادهـم، وقتـل قائدهـم الأخ الأصغـر للملـك، والـتي عـلى أثرهـا اعتقلـوا القديـس لويـس التاسـع، وشـقيقيه شـارل وألفونـس داخـل دار قـاضي القضـاة.

كانـت «جميلـة» ابنـة وحيـدة لأبيهـا وأمهـا لـم ينجبـا غيرهـا، تزوجهـا السـيد عـلي الـورداني وأقـام عُرسـه في المنصـورة، ودخـل عليهـا في بيـت أبيـه، ثـم عـاد بهـا إلى المحروسـة بعـد أيـام عسـل قضاهـا مـع جميلـة في سـعادة، لـم يشـهدها مـن قبـل مـع زوجتـه الأولى رُقيـة، رغـم حبـه لهـا وتقديـره لهـا، استقبلتهم رُقيـة بحفـاوة لـم يتوقعهـا السـيد عـلي، لكـن سرعـان مـا فكـر أن هـذا لـم يكـن غريبًـا عـلى امـرأة تربـت عـلى يـد عالـم أزهـري جليـل كالشـيخ محمـد السـوسي، ورغـم معاملتـه الطيبـة والحسـنة للزوجـة الأولى، إلا أن القلـب لـه أحكامـه، فكانـت جميلـة لهـا الجـزء الأعظـم مـن قلبـه، وزاد ذلـك بعـد أن أنجبـت ابنـه البِكـري الـذي حملـه لحظـة ولادتـه ورفعـه إلى أعـلى ملفوفًـا في قماشـة بيضـاء، وهـو ينطـق اسـمه بصـوت عـال مـن بـين دمـوع فرحتـه الـتي سـالت عـلى خـده:

- محمود علي أحمد الورداني.

رغـم أن محمـود كان صغـيرًا إلا أنـه يذكـر حكايـات أبيـه الـتي كان يقصهـا عليـه بعـد عودتـه كل يـوم عـن المحروسـة وأحوالهـا، عـن

الفرنسيين وحملتهم، وعن أخبارهم وأفعالهم، كان أكثر ما يضايقه من الفرنسيين رائحتهم، كانت كريهة، ومنهم من كانت رائحته نتنة وأنفاسه متعفنة، وللبعض رائحة الجبنة العتيقة والحليب الحامض خصوصًا كبار السن منهم.

علم منه أن بعضًا من الجنود الفرنسيين دخل الإسلام، وبعد أن أسلم منهم أحد الجنود وزالت رائحته العطنة وغير اسمه من جان رينو إلى عبد الرحمن جان، أخبره أن باريس - قبل ثورتهم العظيمة - وهي أكبر مدن فرنسا كانت تمتلئ بأشد الروائح كراهية، ربما لم تزل حتى الآن لكنها أصبحت أقل بكثير، الشوارع وباحات المنازل كانت تنضح برائحة الغائط والبول وشحم الخرفان وبقايا الأكل الذي تعفن وأصبحت رائحته نتنة، حتى غرف النوم غير المهواه ثبعث منها رائحة الغبار الرطب، ورائحة الستائر والمفارش القذرة المتربة، واللحف والمراتب الرطبة المحشوة بالريش، وبالرائحة النفاذة المنبعثة من المباول أو حتى في الشوارع حيث كان البعض يتبول دون حياء، رائحة الكبريت من المدافئ تكاد تخنق من يبغي التنفس بعمق، كانت الروائح النتنة العفنة تنبعث وتفوح من كل مكان حتى من الأنهار والساحات، من الكنائس ومن تحت الجسور حتى من الملوك والأمراء أنفسهم، كانت تنبعث منهم رائحة الحيوانات المفترسة ومن الملكه رائحة العنزات.

بالطبع لم ينس أن يحدثه السيد علي عن نقيب الأشراف السيد عمر أفندي مكرم الذي قام بدعوة الشعب إلى الجهاد والتلاحم مع صفوف المماليك في القتال، صعد يومها إلى القلعة وأنزل منها بيرقًا كبيرًا أطلق عليه العامة البيرق النبوي، ونشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه ألوف من الناس، وكان هو في طليعة المتطوعين للقتال، وعندما سقطت القاهرة بين أيدي الفرنسيين، عرضوا عليه عضوية الديوان إلا أنه رفض ذلك، وفضل الهروب من مصر كلها

حتى لا يظل تحت رحمة الفرنسيين.

يذكر أنه في أحد الأيام وكان صغيرًا لم يزل، جاءهم الشيخ إسماعيل البراوي في ورشة الحدادة، يخبر أباه أن أتون الثورة يشتد وأن الناس قد جمعوا للفرنسيين بعد أن فرضوا وزادوا عليهم الضرائب، حينها عبر إليهم أصوات المؤذنين وهم يؤذنون لصلاة الظهر يتبعونها بدعوات مشتعلة ومجلجلة إلى الثورة والجهاد، أغلق السيد علي الورشة وأعاده إلى البيت، حكى له فيما بعد أنه سار إلى الصلاة والمسجد كان يدوي بمن فيه من حشد كبير، جلس إلى جانب رأس القِبلة مع الشيخ إسماعيل البراوي، إلى جوارهم الشيخ السادات، والشيخ يوسف المصيلحي، والشيخ عبدالوهاب الشبراوي، والشيخ سليمان الجوسقي، والشيخ أحمد الشرقاوي، ثم وقف الشيخ أحمد المصيلحي بطليق لسانه ولهيب وطنيته يؤجج مساعير الثورة بين الناس بصوته الجهوري القوي الرنان بين جنبات المسجد:

- يظن الفرنساوية أن المحروسة قد خلت من الرجال، أن العزائم قد ضعفت وكلَّت فيها الهمم، وأن الرجل فيها لا يتميز فيها عن النساء إلا بعمامته ولحيته، وأن أهلها قطيع من الغنم نام عنه رعاته وتركوه نهبًا للذئاب، وأنه إذا رأى منهم جنديًا من الفرنساوية أقعى له كما يقعي الكلب في ذلة وخنوع، فهل هذا ما صرنا إليه؟

صرخ السيد علي الورداني وكل مَن في المسجد بصوت يهز جنبات المحروسة كلها، وقد ألهبهم سعيرُ كلماته المتقدة بالغضب من الفرنساوية:

- كلا.. كلا.

ازدادت كلمات الشيخ أحمد المصيلحي لهيبًا واشتعالًا، وازدادت حماسة الناس وانفعالاتهم معه وهو يتابع:

- إني أرى في وجوهكم غضبة الأسود لعرينها، وحمية الرجال لدينهم وعرضهم، هلموا إلى المجد والشرف، هلموا إلى الجنة التي تفتح

أبوابها على مصراعيها لاستقبالكم شهداء، هلموا إلى الشهادة، فلا نامت أعين الجبناء، ماذا بقي لكم لتصبروا عليه؟ لقد فرضوا علينا الضرائب وأرغمونا على حمل شاراتهم، وهدموا علينا أبواب حاراتنا حتى لا تعوقهم في الهجوم علينا في وحشة الليل وظلمته، لقد جعل الله علينا الجهاد في مقدمة فروضه، فثوروا لكرامتكم ولوطنكم ولتاريخكم، ثوروا لعرضكم وشرفكم.

هب السيد علي رغم سنه واقفًا يصرخ في غضب وشجاعة وقد زلزلت الكلمات قلبه بين ضلوعه:

- حي على الجهاااد..، حي على الجهاااد..

ردد الجمع من خلفه:

- الله أكبر، الله أكبر، إلى الجهاد..، إلى الجهااد.

خرج الناس من المسجد كأمواج غضب متدفقة، اشتعلت الثورة في شوارع المحروسة، تجمع الناس غاضبين بشومهم وعصيهم وحجاراتهم في شوارع الموسكي والغورية والنحاسين والرويعي وغيرهم، حضر الجنرال ديبوي بجنوده وفرسانه ليصد ثورة المصريين الذين انقضوا عليه، ضربه علي الورداني بطعنة من عصا مدبب طرفها كالرمح يحملها معه فخر صريعًا على الفور غارقًا في دمائه، حمل جنوده جثته وتراجعوا بها، زادت حمية الأهالي أكثر لما رأو سقوط قائدهم صريعًا، واستولوا على باب الفتوح، وباب النصر، والبرقية، وباب زويلة، وباب الشعرية، ثم حفروا الخنادق وأنشأوا الحصون وباتوا ليلتهم متأهبين لهجوم الفرنساوية عليهم.

الشيخ الجوسقي رغم أنه كان كفيفًا، إلا أنه كان صلبًا، قهر ظلام بصره بنور بصيرته، استطاع أن يُطوِّع العميان وطائفتهم التي يترأسها وجَيَّشَهُم في جيش لمواجهة العدو الفرنسي، فكان العميان هم حلقة الوصل ينقلون أخبار المعسكر الفرنسي قبل اندلاع الثورة، وعندما اشتد وطيس ضرب المدافع على البيوت، لجأ له العامة فطالبهم

بالصمود وقال:

- إنكم بشر مثلكم مثلهم، فاخرجوا إليهم فإما أن تبيدوهم أو يبيدوكم.

أخرج الشيخ الجوسقي مما لديه من مال وكان ثريًا، اشترى السلاح ووزعه على الناس، كان يشق طريقه بين شوارع المحروسة الملتهبة بحماره يتفقد المتاريس، والحصون، ويتفقد احتياج المجاهدين للسلاح، ويأمر بإرسال السلاح والمؤن الى الأماكن المحتاجة لها.

في صباح اليوم التالي نقل الفرنسيون مدافعهم على المرتفعات خارج المدينة بعد أن احتلوها، وأطلقوا منها القذائف على نواحي الأزهر، والصنادقية والغورية والفحامين، حتى كاد الأزهر أن تتساقط جدرانه على المحتدشين به وجواره، تحولت الأحياء المجاورة إلى خرائب مدمرة، تهدمت البيوت ومات تحت أنقاضها الأهالي من السكان البائسين، لم يتحمل الناس هول القذائف الملتهبة التي تتساقط عليهم من أعلى كالسيل المرصوص، بلَغ بهم السَّيْلُ الزُّبى من وطأة القذف وضعفت همتهم، خافوا على نسائهم وأطفالهم وسقطوا خاسرين أمام الأسلحة الفرنساوية الثقيلة، تشفَّع المشايخ عند نابليون طالبين أن يرفع عنهم وعن الأهالي غضبه، فأسكت عنهم ضرب المدافع وأصواتها، وأطلق جنوده كالكلاب تعيث في الأرض فسادًا كما تشاء، دخلوا بخيولهم الجامع الأزهر ودمروا كل ما فيه من كتب وخزائن.

عاد السيد علي الورداني إلى بيته بعد أيام بات لياليها خارج جدرانه، لم يعد فيهم إلا للاطمئنان على زوجتيه وولده، عاد مصابًا بالجروح والسحجات الخفيفة، وغاضبًا في شدة، ليس من قوة الفرنساوية لكن من الوهن الذي أُصيب به المصريون على يد الأتراك والمماليك، الذين تركوهم لقمة سهلة لأفواه الفرنساوية الجائعة.

مرت الشهور في تجاذب وتناحر لا يهدأ بين أهالي المحروسة وبين

جنـود الاحتـلال الفرنسـاوية برائحتهـم المقـززة المنفـرة، ذات يـوم عـاد السيد عـلي الـورداني مهمومًـا وعـلى وجهـه ملامـح حـزن شـديد، خشـيتا عليـه زوجتـاه رقُيـة وجميلـة مـن أن يكـون أجلـه قـد اقـترب، صعـد إلى غرفـة السـيدة جميلـة ونـام عـلى السريـر دون حـتى أن يخلـع ملابسـه عـن جسـده كما تعـود عنـد الدخـول، ألقـت عليـه جميلـة الغطـاء ورقـد محمـود جـواره خائفًـا عـلى والـده مـن الضعـف والوهـن الـذي أصابـه، حاولـت المرأتـان أن يسـتفسرا منـه عمَّـا بـه، أو يعرفـا منـه إن كان ألـم بـه مـرضٌ، أم يشـتكي مـن شيء آخـر، وهـو صامـت كالقـبر لا يفتـح فيـه ولا يـرد.

بعـد قليـل مـن الصمـت تسربـت الدمـوع مـن بـين جفنيـه، وبـدأ ينهنـه ويعلـو صـوت بكائـه، اقتربـت منـه المرأتـان وهمـا يبسـملان ويحوقـلان، وجميلـة تـضرب عـلى صدرهـا بيديهـا، ومحمـود يبـكي ممـا يـرى، وهـو يتسـاءل في فـزع عمـا ألـم بوالـده، ضمتـه رقُيـة إلى صدرهـا وتركتـه ينهـي بـكاءه وهـي تقـرأ مـن القـرآن وتمسـح بيديهـا عـلى شـعره، جذبـت جميلـة محمـود إلى صدرهـا، كأنهـا تحتمـي بولدهـا، ولـم تصمـت رقُيـة عـن قراءتهـا حـتى هـدأ السـيد عـلي ونـام.

ظلـوا جـواره جميعًـا حـتى جـن عليهـم الليـل، اسـتيقظ السـيد عـلي مـن نومـه، فـرأى محمـود جـواره وزوجتيـه جالسـتين معـه بالغرفـة، ضـم محمـود إلى صـدره، فاسـتيقظ وارتمـى بحضـن أبيـه، صمتـت المرأتـان ولـم ينطقـا بسـؤال أو استفسـار عمـا بـه، وبعـد دقائـق نطـق محمـود متسـائلًا:

- ماذا حدث لك يا أبي؟

ربت على كتفه وقبَّل رأسه وهو يقول:

- لا تفزع يا بني.

فسألت جميلة أيضًا:

- هل أصيب أحد في الورشة؟

وقالت رقُية:

- أخرج ما في صدرك لترتح.

نطق السيد علي في حزن:

- لقد مات الشيخ الجوسقي، قتله بونابرتة النجس.

شهقت المرأتان وترحمًا عليه ومحمود يسأل:

- ولماذا قتله؟

أجاب والحزن والغضب يخنقانه:

- لقد علم نابليون أن الشيخ الجوسقي هو الذي يقف خلف عمليات القتل التي تحدث في صفوف العسكر الفرنسيين، وقرر إلقاء القبض عليه، حاول استمالته وقدم له العديد من العروض التي رفضها شيخنا وقابلها بالسخرية، قال له سأجعلك سلطانًا على مصر، فأظهر الشيخ قبولًا للعرض، ومد نابليون يده إليه، وكذلك مد الشيخ يده اليمنى مصافحًا إياه، لكنه رفع يده اليسري، وصفع نابليون اللعين صفعة قوية على خده الأيمن، فاستشتاط نابليون من الغضب، وأمر بقتل الرجل وإلقاء جثته في النيل، ألقوا الشيخ الجوسقي رحمه الله من فوق القلعة، أمامنا أجمعين، ولم نستطع أن نفعل له شيئًا، مات بطلًا وكنا جبناء لم نرفع عنه راية الظلم ولم نقدر على كف يد بونابرتة النجسة عنه.

في أغسطس ١٧٩٩ تسرب إلى السيد علي الورداني عن طريق أحد الجنود الفرنساوية الأخبار أن نابليون قرر مغادرة القاهرة بعد أن رأى آماله وأحلامه تتحطم على صخرة المصريين، وعلى أسوار عكا الذي عاد منها مهزومًا مدحورًا في زفة زائفة يحتفل فيها بنصر واهم لم ينله، بعد أن غدر بحامية يافا وقرر إعدامهم كلهم بلا استثناء رميًا بالرصاص ثم ألقى جثثهم في البحر.

غادر البلاد غير مأسوف عليه، وكسر الأهالي القُلل في الطرقات

بعد رحيله، ترك مقاليد الأمور في يد الجنرال كليبر، الذي قُتل بعد فترة ليست بالطويلة على يد سليمان الحلبي أثناء تمشيته مع مسيو بروتان في حديقة قصره.

تولى بعده مينو الحكم بالأقدمية؛ لأنه كان أقدم قوات الفرق في الخدمة على حد قول مرؤسيه من الجنود، وصل إلى القمه كما وصل من قبل في الجيش إلى المراتب السامية؛ لأنه كان مشهودًا له بالكفاءة العسكرية والحنكة في الإدارة، رغم أنه لم يفتح فتحًا أو يصب انتصارًا كبيرًا في معركة ما من قبل، حتى جاء مارس من عام ١٨٠١.

وجد محمود والده يهلل بعد أن سمع أخبار عن هزيمة الفرنسيين على يد عمارة إنجليزية ونزولها إلى البر بعد النصر، ثم عن معركة دارت بعدها بينهما في مكان يسمى قيصر القياصرة، كانت الغلبة فيها للإنجليز أيضًا، توالت الإشاعات في الأيام التالية، وشاهد مع أبيه رقص العوام وغناءهم الأناشيد في الشوارع، وأمام ورشتهم بعد كل خبر جديد عن هزيمة الفرنساوية، رغم أنه كان يجول في خاطره ويفكر ما الفرق بين أن تكون الحملة فرنساوية، أو تكون إنجليزية؟!!، فالاثنان سواء، غرباء عنهم ودخلاء عليهم.

السيد علي الورداني قُبض عليه، واعتقل مرات عدة من الفرنساوية، آخرها كانت في مايو ١٨٠١، وفي ليلة الإثنين التاسع والعشرين من يونيو من نفس العام، سمع محمود صوت مدفع دوَّى في المحروسة كلها بعد الغروب، قادم من ناحية جامع الظاهر خارج الحسينية، بعدها ارتفع من الجامع أذان المغرب ومن بعده العشاء، وفي اليوم الثاني زاعت الأخبار أن البيرق العثماني مرفوع ويرفرف بأعلى الجامع، والمسلمون يقفون على أسواره، وأنه تم تسليمه، حينها أُفرج عن الرهائن من المشايخ وباقي المحبوسين ومن ضمنهم السيد علي الورداني، بعدها شرع الفرنساوية الذين أتوا مصاحبين الحملة في نقل

وبيـع أمتعتهـم، وخيولهـم، ونحاسـهم، وجواريهـم، وعبيدهـم، وفي مسـاء نفـس اليـوم أنزلـوا عـدة مدافـع مـن القلعـة وكذلـك مـن قلعـة بـاب البرقيـة مـع أمتعـة وفـرش وبـارود.

بعـد ذلـك بأربـع أيـام خـرج محمـود مع والـده ناحيـه شـبرا، ورأى هناك الإنجلـيز في صحبتهـم قبطـان باشـا في الجهـة الغربيـة؛ حيـث نُصـب هنـاك جـسر عـلى البحـر مـن المراكـب المرصوصـة مـن صنـع الإنجلـيز، مـن ألـواح شـديدة الثقـل، لهـا درابزيـن مـن الجهتـين، ملصـوق عليـه شروط الصلـح الـتي تتعلـق بالعامـة باللغتـين العربيـة والفرنسـية، بعد أن أُشـيعت الأخبـار في اليـوم السـابق عـن رحيـل الفرنسـاوية ونزولهـم مـن القـلاع، وتسـليمهم الحصـون، وبـات النـاس يسـمعون لغـط العسـاكر العثمانيـة وكلامهـم ووطء نعالاتهـم مـن جديـد في المحروسـة، كأن الله لـم يجعـل المحروسـة تبيـت ليـالٍ عـدة دون دخـلاء.

لـم تمـض أيـام حـتى وصـل جيـش العثمانيـين والإنجلـيز عـلى أبـواب المحروسـة، دب الذعـر في أوصـال الجـنرال بليـار نائـب مينـو، وعقـد مـع الطـرف الآخـر عـلى الفـور معاهـدة لمغـادرة الجيـش الفرنـسي أرض مـصر والمحروسـة في أقـرب زمـان، وسـلم بعدهـا مينـو سـيفه مهزومًـا في الإسـكندرية، وعاهـد العثمانيـين والإنجلـيز في السـادس والعشريـن مـن أغسـطس لنفـس العـام عـلى مغـادرة مـصر، أقـام المصريـون الاحتفـالات والأفـراح وهـم يشـاهدون الفرنسـاويين يغـادرون المحروسـة ومبحريـن مـن الإسـكندرية.

- ٦ -

القاهرة ١٨٠٤

ازداد ضيق خورشيد باشا من محمد علي بعد ما حدث، وبعدما تأكد عن عدوله عن السفر، وأيقن أن شعبية الرجل بين الشعب وسطوته بين الجنود ازدادت أكثر، فكر أن يبعده بألبانييه عن المحروسة، ويستفيد من سيطرته على الجنود في نفس الوقت، فأمر بتجهيز حملة تطارد المماليك وجعل قيادة ثلاثة آلاف رجل من مشاة وفرسان تحت قيادة محمد علي، وسيرهم لينضموا إلى سلحداره الزاحف بمقدمة الجيش المكونة من أربعة آلاف جندي، كما أرسل يستدعي جنودًا آخرين من سوريا وغيرها ليكونوا من ضمن رجالاته وجنوده.

العقلاء من المماليك لما عرفوا بأمر الجيش الضخم المتجه ناحيتهم سعوا إلى المصالحة بين البرديسي والألفي، واتفقوا على تدبير لقاء بينهما في جزيرة قبالة طرة ليتموا الصُّلح، وأقاموا هناك خيام أُعدت لهذا الغرض، وصل البرديسي أولًا، بعده وصل الألفي، لكنه لما حط على شاطئ النيل رأى ثعبانًا مقطوعًا إلى نصفين، فتطير وظن أن في الأمر خيانة وغدرًا، فعاد إلى موقعه ولم يتمم الصلح، واستمرت الفرقة بينهما.

في تلك الأثناء تقدمت فرقتا محمد علي والسلحدار حتى بلغتا المنيا، التي يسيطر عليها المماليك، فحاصراها واستوليا عليها، بعد عناء شديد دام ستة وخمسين يومًا. وفى المحروسة لم يكف خورشيد باشا عن مراسلة الأستانة وسعيه الحثيث إلى التخلص من القوات الألبانية، باستحضار قوات أخرى تحل محلها، وبالفعل وصل ثلاثة

آلاف مـن القـوات الجديـدة، تعـرف باسـم الـدلاة أو الدالتيـة وتعـني المجانـين بالتركيـة، وسُـموا بذلـك لشـهرتهم بالبسـالة المتناهيـة، كان معظمهـم مـن الأكـراد، سـلاحهم سـيف وطبنجتـان وقرابينـة، يلبسـون عـلى رؤوسـهم طراطـير مخروطيـة الشـكل مـن الجـوخ الأسـود، لا حافـة لهـا وتُشـد عـلى الـرأس بعصابـة.

بلـغ خورشـيد باشـا نبـأ وصولهـم إلى التخـوم المصريـة، فخـرج بنفسـه لمقابلتهـم ودخـل بهـم القاهـرة مـن باب النصر، بـدأت باكـورة أعمالهم بالانقضـاض عـلى الطـرق وعـلى المارِّيـن عليـه وعـلى أربـاب الدكاكـين، خطفـوا النسـاء والمـردان ونهبـوا التجـار، ونـشروا الفـزع والرعـب في طرقـات المحروسـة، لـم يسـتطع خورشـيد باشـا السـيطرة عليهـم منـذ البدايـة، ولا الوقـوف أمامهـم بعـد ذلـك لما بـدأوا في طلـب مرتباتهـم في غلظـة دون تقديـر لمكانتـه كـوالي عـلى القطـر أو كقائـد لهـم، ولـم يكـن أمـام الباشـا للإجابـة عـلى طلبهـم، غـير فـرض خمسـمائة كيـس عـلى التجـار الذيـن أرادوا حرسًـا للذهـاب إلى ينبـع، مـن أجـل إعطائهـم ذلـك الحـرس، وعـلى اليهـود مائـة وعشريـن كيسًـا، وألـزم تجـار السـويس بمـا يـوازي المبلغـين معًـا.

عـرف محمـد عـلي بمـا حـدث في المحروسـة، مـن وصـول الـدلاة والفـوضى والفـزع الـذي نـشروه، وفهـم عـلى الفـور مـا حمـل خورشـيد باشـا عـلى إحضارهـم، فاتفـق مـع حسـن باشـا زميلـه عـلى العـودة، واتخـذا طريقهمـا مـع جنودهمـا إلى المحروسـة، سـقط الرعـب في قلـب خورشـيد لمـا شـاع نبـأ عـودة محمـد عـلي بـين النـاس حـتى وصلـه وهـو عـلى عرشـه في القلعـة، جلـس في كرسـيه مغتمًـا حائـرًا مـاذا يفعـل، لا يـدري مـاذا يقـرر، يـضرب أخماسًـا في أسـداس، لكنـه مـا لبـث أن أرسـل يسـتدعي المشـايخ ونقيـب الأشراف السـيد عمر مكـرم والوجاقليـة وأربـاب الديـوان، ليكونـوا جـواره ضـد محمـد عـلي وحسـن باشـا، فيسـتقوي بهـم عليهمـا، أخبرهـم عـن عـودة محمـد عـلي وحسـن باشـا مـن الصعيـد،

وقال في غضب لم يخف الاضطراب الذي يملأ أحشاءه:

- إنهم يعودون إلى المحروسة بقواتهم دون إذن مني، ويضمران في نفسهما الشر لي وللبلاد، ولقد استدعيتكم اليوم لتكونوا معي ضدهما، ليعودا من حيث أتيا يستكملا معاركهما ضد المماليك، أو يعودا إلى بلادهما، أو أوليهم ولايات خارج القطر المصري إن أرادوا، ولدي أمرٌ من السلطان بذلك.

بعد نقاش وجدال طال، اتفق الحضور وعلى رأسهم السيد عمر أفندي مكرم، أن يبيت في القلعة كل ليلة اثنان من المتعممين، واثنان من الوجاقلية، وتحرك الدلاة بأسلحتهم ومدافعهم ناحيتي طرة والجيزة للوقوف في وجه القادمين.

كعادة محمد علي في التصرف بدهاء الثعالب في كل معاركه، لم يقابل الدلاة في معركة يخسر فيها بعضًا من جنوده وقواته سواء انتصر فيها أو خسر، بل أرسل لهم رسالة من بضع كلمات:

- لم آت مخالفًا الأوامر، ولم آت للحرب، بل أتيت لطلب مرتبات القوات.

وأرسل مع رسوله هدايا، قبلها الدلاة، الذين رأوا أن محمد علي وحسن باشا محقان في طلباتهما ما داما لم ينويَا غدرًا، فلم يتعرضوا لهما ولا لقواتهما، وتركوهما يدخلان القاهرة مع جنودهما، ونزل كلٌّ منهما في بيته.

أرسل خورشيد باشا رسولًا إلى الدلاة مع رسالة يؤنبهم فيها ويعنفهم على ما فعلوه وعلى مخالفتهم أمره بقتال محمد علي وحسن باشا ومنعهم وقواتهما من دخول عاصمة البلاد، فما كان ردهم إلا برسالة تحمل بين كلماتها أكثر مما تفصح:

- إنكم إذا منعتم وحاربتم من يطلب علائفه ومستحقاته وحقوقه، فكذلك تفعلون معنا إذا خدمناكم زمنًا وطلبنا علائفنا.

ظـل الدالاتيـة في أماكنهـم ناحيـتي طـرة والجـيزة لا يتحركـون، كـثر منهـم العسـكر ومـن غيرهـم الذيـن يأكلـون الـزرع والقـوت، ويسرقـون مـا يجدونـه مـع الفلاحـين، ويخطفـون النسـاء، والأولاد، والمماليـك مـن الأقاليـم، انتـشرت الفـوضى حـتى مداخـل المحروسـة حـتى إن بعـض العسـاكر تجمعـوا عنـد أبـواب العاصمـة يأخـذون مـن الداخـل والخـارج الأمـوال عنـوة، بينمـا العـرب والبـدو يغـيرون عـلى القـرى ينهبونهـا ويحرقـون الأجـران ويسـبون النسـاء، ويضربـون ويقتلـون مـن يتعـرض لهـم بدفـاع، النـاس رأوا أن المشـايخ سـببٌ لمـا يحـدث؛ لأنهـم اتفقـوا مـع خورشـيد باشـا ضـد محمـد عـلي، وكان بإمكانهـم رفـع البلايـا عنهـم لـو قـدروا الأمـور بأفضـل ممـا فعلـوا واختـاروا صالـح الشـعب بـدلًا مـن صالـح خورشـيد باشـا الـذي بـان أنـه لا يريـد إلا إخـراج محمـد عـلي مـن البـلاد وجمـع الأمـول مـن النـاس، ولا يفكـر في حالتهـم الـتي زادت بؤسًـا وشـقاءً، زاد فقـر العامـة مـن النـاس وجوعهـم ومعاناتهـم اليوميـة، أغلقـوا حوانيتهـم في إضراب، وأوحـوا للأطفـال أن يسـيروا في الشـوارع والطرقـات يسـبون المشـايخ ويشـتموهم، وإذا لاقوهـم رجموهـم بالحجـارة، زاد تأكدهـم مـن نوايـا خورشـيد باشـا تجـاه محمـد عـلي لمـا اسـتصدر أمـرًا مـن الأسـتانة بتعيـين محمـد عـلي واليًـا عـلى جـدة، وكان الرجـل عـلى حالـه في التقـرب للعامـة مـن النـاس والمشـايخ وتأديـة صلاتـه معهـم، وحمايتهـم مـن أي تعـدٍّ مـن جنـوده، الذيـن لـم يؤخـر عنهـم مرتباتهـم عـن أوقاتهـا، فالتزمـوا طاعـة أوامـره وتنفيذهـا، فلمـا أتى لمحمـد عـلي فرمـان التوليـة عـلى جـدة أبـدى طاعتـه للفرمـان وأبـدى للنـاس قبولـه المنصـب، لكنـه رفـض الصعـود إلى القلعـة ليقلـده خورشـيد باشـا المنصـب فيهـا لمـا طُلـب منـه ذلـك، خشـية أن يدبـر لـه مكيـدة ويفتـك بـه، وأرسـل إلى خورشـيد باشـا يدعـوه ليقـرأ الفرمـان في المدينـة في بيـت الشـيخ سـعيد أغـا، فـنزل في ضيـق، رغبـةً منـه في إنهـاء الأمـر ورحيـل محمـد عـلي إلى جـدة، وألبسـه هنـاك فـروة المنصـب الجديـد وقاووقـه - قلنسـوةٌ طويلـة مـن ملابـس الـرَّأس للفُـرْس، خـرج محمـد عـلي بعدهـا

راكبًا فرسه ليعود إلى داره بالأزبكية، تعالت أصوات الجنود من حوله أنهم يريدون علائفهم ومرتباتهم المستحقة، وكان أمرًا قد رتبه مع بعضهم ليهيجوا الجنود أثناء وجود خورشيد باشا في بيت الشيخ سعيد أغا، فرد عليهم محمد علي وهو يشير للبيت:

- الباشا بالداخل طالبوه بعلائفكم وبما تريدون.

أحاط العسكر الأرناؤوط بالبيت وارتفعت أصواتهم، ومنعوا خورشيد باشا من الخروج، فظل محبوسًا فيه حتى هبط الليل عليهم، ثم تمكن من التسلل تحت جناحه وعاد صاعدًا إلى القلعة، صباح اليوم التالي أرسل إلى الدلاة يبيح لهم الحصول على كل ما في مديرية القليوبية، بدلًا من صرف مرتباتهم حتى يضمن نصرتهم إذا احتاج إليها ضد الجنود الأرناؤوط، فنشروا الفزع والرعب فيها سلبًا ونهبًا، ووصلت رسائل الخوف إلى أهالي المحروسة.

في بيت القاضي اجتمع المشايخ مع عدد ليس بالقليل من المتعممين والعامة حتى غصت بهم الدار، وامتلأ صحنها، وعلا الهتاف من الحناجر يرج الأنحاء:

- شرع الله بينا وبين الباشا الظالم.

أرسل القاضي في طلب المتكلمين في الدولة إلى مجلس الشرع، وكتبوا عريضة بشكاويهم ومطالبهم رُفعت إلى الوالي، الذي أسرع في استدعاء القاضي ونقيب الأشراف والعلماء إليه في القلعة ليشاورهم في الأمر، شعروا أن في الأمر مكيدة مدبرة لهم، وتيقنوا من هذا لما أخبرهم أحد ممن يواليهم لديه، أن الوالي أعد لهم من يغتالهم وهم في طريقهم إلى القلعة، فتجمعوا معًا وذهبوا إلى محمد علي عند داره في الأزبكية، أيقن محمد علي أن اللحظة المناسبة ليعتلي عرش القطر قد أزفت وحان ميقاتها لما رأى تجمع الناس المهيب حول بيته ومنتشرين في الطرقات المؤدية إليه، تعالت الأصوات من بينهم تصرخ:

- نريد عزل هذا الوالي.

- لا نريده واليًا علينا وعلى البلاد.

رد أحد الشيوخ لما سأل محمد علي من تريدون عليكم واليًا:

- لا نرضى إلا بك واليًا علينا.

كأن المصريين على طول زمانهم لا يرضون إلا بحكم الغريب، الذي أتى من وراء البحار أو من خلف الجبال، لا يرون في أنفسهم إلا توابع، ينساقون خلف كل من يخدعهم، أو كل من يبتسم لهم ويداهنهم، لكن من كان على وعي فهو مدرك أن الدولة العثمانية لم تكن لتقبل بتولية أحد المصريين على عرش القطر المصري، حتى لو كان السيد عمر أفندي مكرم نقيب الأشراف، ولأن محمد علي داهية من دواهي الزمان ..

رفض..!!!

متحججًا أن بعض الناس وربما أولي الأمر في الأستانة، وعلى رأسهم الباب العالي، ربما يعتقدون أنه المحرض على ما يحدث، وعلى خلع خورشيد باشا عن ولايته، ارتفعت الأصوات من حوله مستنكرة ترفض قوله ورده، ارتفعت وزادت الأصوات التي تلح عليه وربما ترجوه قبول ولاية أمرهم، أحضر بعض الناس كركًا وقفطانًا، وقام السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الشرقاوي من مكانهما، وألبساه إياه، ونادوا بذلك في المدينة، وأرسلوا من يخبر خورشيد باشا في القلعة بما حدث، وطلبوا إليه اعتزال الأمر ومغادرة القلعة والرحيل عنها، فرد إليهم رسولهم يقول:

- أنا مُولًّى من طرف السلطان، لا أُعزل بأمر الفلاحين، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة.

وشرع يعد العدة للقتال والمقاومة، انضم إليه عمر بك وصالح أغا أق قوش من الزعماء الألبان، اللذان رفضا ما يحدث، وأرسلا

للمشـايخ يقـولان في خطابهمـا:

- أرونا سندًا شرعيًا في ذلك.

ثـم أرسـل الثلاثـة معًـا إلى حسـن باشـا لينضـم إليهـم ضد محمـد علي، وبعـث خورشـيد باشـا يسـتنجد بسـلحداره في المنيـا، ويدعـو المماليـك للتحالـف معـه، وإلى الـدلاة ليدافعـوا عنـه، في هـذه الأيـام حـضر محمـد بـك الألفـي مـع أمُرائـه وعربانـه، وانتـشروا جهـة الجـيزة، واسـتقروا بالمنصوريـة بالقـرب مـن الأهـرام، وانتـشر أتباعـه إلى الجـسر الأسـود، وأرسـل مكاتبـة إلى السـيد عمـر مكـرم والشـيخ الشرقـاوي ومحمـد عـلي يطلـب فيهـا جهـة يسـتقر فيهـا هـو وأتباعـه، فأجابـوه بـأن يختـار لـه جهـة يرتـاح فيهـا، ويتـأنى حـتى تهـدأ أمـور البـلاد والـنزاع القائـم بينهـم وبـين خورشـيد باشـا.

استـمر خورشـيد باشـا ومـن معـه عـلى الخـلاف والعنـاد وعـدم الـنزول مـن القلعـة، لكـن مـا زاد اسـتفزازهم أنـه أرسـل إلى القـاضي يذكـره أن العسـكر الذيـن عنـده بالقلعـة لهـم جامكيـة منكـسرة عـن المـدة الماضيـة، وطالبهـم بإرسـالها، وطلـب أن يعينـوا لهـم ولـه معهـم مصاريفهـم حـتى حضـور جـواب مـن السـلطان، فأرسـل القـاضي رسـالة كتـب فيهـا:

- «أمـا مـا كان مـن الجامكيـة المحولـة، فإنهـا لازمـة عليكـم مـن إيـراد المـدة الـتي قبضتموهـا في الفـترة السـابقة، ومـن قبيـل مـا ذكرتمـوه مـن عـدم ضرر الرعيـة، فـإن إقامتكـم بالقلعـة هـو عـين الـضرر، فإنـه حـضر يـوم تاريخـه نحـو الأربعـين ألـف نفـس بالمحكمـة يطالبـون نزولكـم أو محاربتكـم، فـلا يمكننـا دفـع قيـام هـذا الجمهـور، وهـذا آخـر المراسـلات بيننـا وبينكـم».

وزع محمـد عـلي جنـوده وحـاصر القلعـة بعسـاكره مـن كل الجهـات، فأرسـل عسـاكره في جهـات الرُّميلـة والحطابـة والطـرق النافـذة، ناحيـة بـاب القرافـة والحصريـة وطريـق الصلبيـة وناحيـة بيـت آقبردي، وجلسـوا

بالمحمودية والسلطان حسن، وأقاموا المتاريس في تلك الجهات، ومنعوا الطلوع والنزول من وإلى القلعة، وفي داخلها أغلق أهل القلعة الأبواب، وانتشر العامة من الناس في طرقات المدينة مع السيد عمر مكرم والمشايخ والوجاقلية بالأسلحة والعصي وبعض النبابيت حتى ملوا بركة الأزبكية، لازموا السهر بالليل في الشوارع والحارات وسيروا أحزابًا وطوائف يحملون المشاعل، يطوفون بالجهات والنواحي، وهتف الناس في مسيراتهم:

- يا رب يا متجلي.. أهلك الباشا العثمانلي.

ثم حرروا إعلامًا وقعه المفتي ليضفوا شرعية على ما يفعلوه، حاول خورشيد باشا أن يستميل مشايخ العلماء ونقيب الأشراف ناحيته من جديد، فأرسل له عمر بك رسولًا يدعوه للتراجع عما فعلوه، لتعود الأمور إلى نصابها، وقف بين أيديهم وخاطبهم قائلًا:

- كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم، وقد قال الله: {أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}.

رد عليه نقيب الأشراف:

- إن أولي الأمر من العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، أقروا أن صاحبك رجل ظالم، ومن قديم الزمان جرت العادة أن أهل البلد يعزلون الولاة حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور.

حاول عمر بك أن يخرج من موضوع ولاة الأمر ويصرفهم إلى شيء آخر يحملون معه الوزر والخطأ، فعلا صوته متسائلًا في اعتراض:

- كيف تحاصرونا وتمنعون عنا الماء والأكل، وتقاتلوننا؟! أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟!

فاجأه السيد عمر مكرم بأن جاوب دون تردد:

- نعم.. فقد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم؛ لأنكم عصاة.

صرخ عمر بك:

- كافر.. إن القاضي هذا كافر.

فقال النقيب:

- هو تركي مثل خورشيد باشا، ومعيَّن من قِبل السلطان أيضًا، فإذا كان قاضيكم كافرًا!، فماذا بكم أنتم؟!

مضت ليالي المولد الشريف، ولم يشعر بها أحد..

ولم يحتفلوا بها.

زاد التشديد في الحصار، وتخلى الدلاة عن مولاهم، وحضر كبارهم إلى محمد علي واعترفوا بولايته، وأعلنوا انفضاضهم الكامل عن تبعية خورشيد باشا، فخلع عليهم محمد علي باشا خِلعًا وكسوات، ثم ارتحلوا من قليوب يريدون الذهاب إلى محاربة الألفي وأتباعه ومن معهم من العرب، بعد أن وصلت أخبار أن الألفي وأمراءه أفحشوا في نهب البلاد ونهب الأموال من العباد ما لم يُسمع بمثله ولم يتقدم نظيره من قبل، فساروا على البلاد والقرى ينهبون ويقتلون ويفسقون في النساء والأولاد، ولم يقوموا بما وُجهوا إليه.

وصل إلى مصر مرسوم مع صالح أغا القابجي، بتأييد محمد علي على ولاية مصر، وعزل خورشيد باشا، وتسفيره إلى الإسكندرية مكرمًا حتى يتعين على ولاية أخرى، بعد أن أرسل محمد علي بالهدايا النفيسة، ليتم تأييده فيما فعل بعد تردد الديوان العثماني، الذي انقاد في نهاية الأمر إلى نصائح السفير الفرنسي بعد أن أوصاه ماتييه ديلسبس القنصل الفرنساوي في مصر بمحمد علي.

عاد خورشيد إلى مفاوضة المماليك، بعد أن رجع سلحداره من المنيا، واتفقوا معًا على العمل في وجه محمد علي، لكن محمد علي كان يقظًا، فبرز للمماليك وردهم القهقرى، ثم تحول إلى سلحدار خورشيد، وأوقع به.

وسـط المعـارك الدائـرة وردت الأخبـار بوصـول قبطـان باشـا إلى ثغـر الإسـكندرية وأبي قـير، وفي صحبتـه مراكـب كثـيرة تحمـل ألفين وخمسـمائة مقاتـل، اجتمـع المشـايخ واتفقـوا عـلى كتابـة عرضحـال يرسـلونه مـع بعـض المتعممـين، ثـم اختلفـت آراؤهـم في ذلـك، بعـد يومـين ورد خـبر بـورود سـلحدار القبطـان إلى شـلقان، فتراجعـوا عـن أمـر العرضحـال، بعـد أيـام وصـل السـلحدار إلى بـولاق، وركـب مـن هنـاك إلى المـكان الـذي أُعـد لـه للـنزول فيـه، ومعـه رسـالتان، الأولى إلى خورشـيد باشـا، فيهـا أمـر لـه بالـنزول مـن القلعـة لحظـة وصولـه الرسـالة، والرحيـل إلى الإسـكندرية، والثانيـة إلى محمـد عـلي بإبقائـه في القائمقاميـة حيـث ارتضـاه النـاس كافـة والمشـايخ، مـع توصيـة بحسـن السـلوك والرفـق بالرعيـة، وأن يُقلـد مـن قِبلـه باشـا عـلى عـدد مـن العسـكر ليرسـلهم إلى بـلاد الحجـاز لمحاربـة الوهابيـين.

أرسـلوا إلى خورشـيد باشـا جوابـه فرفـض الـنزول مـن القلعـة وأرسـل ردَه:

- ليصعد إليَّ السلحدار الذي وصل ليخاطبني مشافهة.

في صبـاح يـوم الأربعـاء قبـض المحافظـون عـلى خيَّـال مُقبِـل مـن جهـة مـصر القديمـة متخـذًا طريـق الصعـود إلى القلعـة، وكان يحمـل أوراقًـا معـه، اقتـادوه إلى محمـد عـلي الـذي نظـر في الأوراق فوجـد فيهـا خطابًـا إلى خورشـيد باشـا مـن عـلي باشـا وياسـين بـك الموجودَيـن بالجـيزة، موضـح فيـه خطـة للقتـال:

- «في صبـاح يـوم الجمعـة نطلـق مـن الجـيزة سـبعة صواريـخ تكـون إشـارة بيننـا وبينكـم، فعندمـا ترونهـا تضربـون بالمدافـع عـلى بيـت محمـد عـلي، ونحـن نعـبر إلى مـصر القديمـة ويصـل البرديـسي مـن خلـف الجبـل إلى جهـة العادليـة، ويـأتي بـاقي المصريـين مـن ناحيـة طـرة ويقـوم مـن بالبلـدة عـلى مـن فيهـا فيشـغلون الجهـات، ويتـم المـراد بذلـك».

اطَّلـع محمـد عـلي عـلى الخطـة في حضـور القـاضي الـذي شـاط غيظًـا

على ذلك الرسول الذي اتضح أنه كرديٌّ، ورغم أنه استجار بالقاضي، إلا أنه لم يُجِرْه، وأمر فأخذوه وقتلوه ورموه ببركة الأزبكية.

في يوم الخميس أحضروا سبعة رؤوس وعلقوها على السبيل المواجهة لباب زويلة، وعلى أحدها ورقة مكتوبة أنها رأس الألفي بك والأخرى سلحداره، ملامح الوجوه كانت متغيرة، والرؤوس مجوفة ومحشوة بالتبن، فلم يصدقهم أحد، لكن الأخبار وصلت أن الألفي ارتحل من دمنهور، وهناك هجم على سليمان كاشف البواب ونهب ما معه، ثم وصلت أخبار أخرى أنه قُتل، والبعض ادعى أنه هرب إلى البحر، وهرب باقي أتباعه إلى جهة المنوات جنوب الجيزة.

بعد ذلك حضر صالح أغا القابجي إلى السيد عمر أفندي مكرم، وأخبره أنهم اتفقوا مع خورشيد باشا على موعد في عصر غد من يوم السبت، إما أن ينزل أو يستمر على عصيانه، وفي الميعاد أفرج خورشيد باشا عن ضُعفاء الرعية الموجودين بالقلعة، مع النساء بعدما أخذوا ما معهم من الأمتعة والثياب، وأبقى عنده الشبان والأقوياء من الرجال الكبار للمعاونة في الأشغال، وامتنع هو عن النزول، صعد بشير أغا القابجي وصالح أغا السلحدار إلى القلعة مرة أخرى، للتفاوض مع خورشيد باشا، ثم نزلا وفي صحبتهم كتخدا أحمد باشا إلى بيت سعيد أغا الوكيل، واتجهوا معًا إلى بيت محمد علي باشا، ثم صعد صالح أغا وأربعة آخرون، ثم نزلوا مرة أخرى للتفاوض، ترددوا في الذهاب والإياب مرات عدة، وبات الكتخدا ليلته في المدينة، ثم انتهى الاتفاق بينهم على نزول خورشيد باشا يوم الإثنين وتسليم القلعة والجبخانة.

جُمع لهم من جِمال الشواغرية ما يقرب من مائتي جَمَل، نقلوا عليها متاعهم وفرشهم، وأنزل الباشا حريمه إلى بيت مصطفى أغا الوكيل، ونزل كثير من عساكره وسط الخدم متخفين ليهربوا بعد أن غيروا من شكلهم وهيئتهم، ذهب أغلبيتهم بعزالهم إلى بولاق،

بعـد أن نهبـوا بيـوت الرعايـا الـتي بالقلعـة، وأخـذوا مـا وجـدوه فيهـا مـن المتـاع، في الثالـث مـن أغسـطس ١٨٠٣ سـار حسـن أغـا بجملـة مـن العسـاكر إلى القلعـة، وتسـلمها مـن خورشـيد، ونـزل الباشـا المخلـوع مـن بـاب الجبـل في السـاعة الرابعـة مـن صبـاح اليـوم التـالي إلى جهـة بـاب النـصر، ومـر مـن خارجـه إلى جهـة الخـروبي، وذهـب إلى بـولاق يصحبـه كتخـدا محمـد عـلي وعمـر بـك وصالـح أغـا أق قـوش، وفي التاسـع مـن نفـس الشـهر تحـرك عـلى ظهـر سـفينة مـن بـولاق مرتحـلًا إلى رشـيد، ليجلـس محمـد عـلي باشـا عـلى سُـدة حكـم ولايـة مـصر المحروسـة.

رفرفـت البيـارق الإنجليزيـة مـن جديـد أمـام سـاحل الإسـكندرية في مـارس ١٨٠٧، لكـن هـذه المـرة لـم تكـن رفيقـة، بـل أتـت غازيـة، تحـت قيـادة رجـل ممتـلئ البـدن بشـعر أصفـر قصـيره، في بـزة عسـكرية حمـراء وبنطلـون كاكي، يدعـى الجـنرال فريـزر، اسـتولت الحملـة عـلى الإسـكندرية سريعًـا، ولمـا وصلـت الأخبـار إلى المحروسـة بذلـك، هـب السـيد عـلي الـورداني مـن مكانـه دون حـتى أن يحـزم أمتعتـه معـه، وقـرر السـفر إلى الإسـكندرية للدفـاع عنهـا مـع أهلهـا.

يتذكـر محمـود جيـدًا لحظتهـا، كانـوا جالسـين في الورشـة لمـا وصلـت الأخبـار، نظـر إليـه أبـوه في عينيـه، وأمسـكه مـن كتفيـه وغـرس فيهمـا أصابعـه في قـوة وهـو يحدثـه كأنـه شـعر أنـه لقـاؤه الأخـير بولـده، قـال دون أن تفـارق عينـاه عيـنى ولـده:

- يـوم موتـك هـو اليـوم الـذي يجـب أن تعيشـه في قـوة، وتحـارب مـن أجـل أن تحيـاه.

بعدهـا أغلـق الورشـة وناولـه المفاتيـح وأمـره بالعـودة للبيـت بعـد أن قـال لـه:

- من اليوم أنت هنا مكاني.

في طريقـه إلى الإسـكندرية وصلتـه الأخبار أن الإنجليز يزحفون إلى رشـيد، غـير مسـاره واتجهـه إلى رشـيد، هنـاك قابـل صديقـه السـيد محمـود

العسال الذي حدثه بأن الإسكندرية وأهلها في أشد حالات الكرب والاضطراب والهياج، من لحظة أن نزلت بها قوات عسكرية واحتلت المدينة دون قتال، جاءتهم الأخبار عن طريق الشيخ المسيري أن قائد هذه الحملة يدعى فريزر، كان أغلب الناس يعتقدون أن الإنجليز حلفاؤهم منذ أن حاربوا الفرنساويين معهم من قبل، وكان معظمهم يتوقع عودة الفرنسيين مرة أخرى في يوم ما، خصوصًا بعد صداقتهم الجديدة للترك، لكنهم فوجئوا لما تيقنوا أن العمارة إنجليزية.

وصل ما يقرب من ألفى مقاتل إنجليزى بقيادة الجنرال ويكوب، عازمين على احتلال رشيد واتخاذها قاعدة حربية، وصلت الأخبار إلى الأهالي من ثغر رشيد، في صبيحة الثلاثاء الواحد والثلاثين من مارس، أن الإنجليز وصلوا إلى رشيد، أصبحت البلدة في قلق واضطراب بعد أن شاهد البعض ومعهم السيد علي الورداني ومحمود العسال الجيش الإنجليزى مقبلًا على المدينة بعدته وعتاده من فوق مئذنة مسجد زغلول، لم يكن حول رشيد من الأسوار إلا أطلال عصفت بها الرياح، الشوارع كانت خالية، كأنها أخليت لهم، أو أن أهلها خافوا وارتعبوا من الزحف الإنجليزى ناحيتهم، فلزموا ديارهم كالفئران المذعورة، استحث الخطباء فوق مآذن المساجد والجوامع الأهالي على الدفاع، ثارت الحمية في قلوب الناس وغضبوا وحمل منهم من يملك بندقية أو سيفًا أو حتى سكينًا وخرجوا في جموع زاخرة مشمرين للدفاع عن المدينة، دخل الإنجليز رشيد في ساعة نهار بغير قتال، أهل رشيد ومن معهم من العساكر كانوا مختبئين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت، فلما وصلت العساكر الإنجليزية داخل البلدة هجموا عليهم من كل ناحية وضربوهم، رجالٌ، ونساءٌ، وشيوخٌ، وحتى أطفال، بعصيهم وحجارتهم، تقدمهم السيد علي الورداني والسيد محمود العسال وغيرهم بين تهليل وتكبير تحت قيادة علي بك السلانكي، حتى النساء كانوا يلقون من بيوتهم بالحجارة والماء

المغلي على الجنود، والأطفال يرشقونهم بنبالهم المحشوة بالحصى الصغير، وفقأوا أعين بعض من الجنود الإنجليز، استمرت المعركة لساعات استشهد فيها السيد علي الورداني برصاصة اخترقت جبهته، خر على أثرها صريعًا على الفور.

لم يصمد الإنجليز أمام غضب الشعب الجامح عليهم فترة كبيرة، فما لبثوا أن ألقوا ما بأيديهم من أسلحة على الأرض، مستسلمين طالبين الأمان، لكن الغاضبين من الأهالي ذبحوا منهم الكثير، وأُسروا الباقين، وفر البعض ناحية دمنهور، قابلهم هناك كاشف دمنهور، فحاربهم جوارها وأخذ منهم بعض الأسرى وأرسل البشارة بالنصر إلى المحروسة، رأى فريزر أنه من العبث مواصلة القتال فتحصن بالإسكندرية، وأرسل إلى محمد علي يطلب الصلح في مقابل أن يجلو عن الإسكندرية، في تلك الأثناء كان محمد علي يستعد للزحف على الإسكندرية، سار بجيشه من معسكره في إمبابة متوجهًا إلى الرحمانية ومنها إلى دمنهور في الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٠٧، وهناك التقى بالجنرال شربروك الذي فوضه فريزر لإبرام الصلح بين الطرفين المصري والبريطاني.

وبعد مفاوضات قصيرة عقد الطرفان معاهدة دمنهور في الرابع عشر من سبتمبر في نفس العام، والتي بمقتضاها جلت القوات البريطانية عن الإسكندرية، ثم أقلعت السفن البريطانية بما تبقى من جنود الحملة إلى صقلية، وضُمت الإسكندرية إلى محمد علي بفرمان سلطاني بعد أن كانت تتبع مباشرة السلطان العثماني وحاكمها يعيَّن من قِبلِهِ.

- ٧ -

مـن اللحظـة الأولى الـتي جلـس فيهـا محمـد عـلي عـلى عـرش الولايـة المصريـة، وهـو يعلـم أن القـادم في الطريـق أصعـب وأشـد خطـورة ممـا مـر عليـه مـن قبـل، وأن المواجهـات الـتي عليـه مجابهتهـا سـتكون أشـد خطـرًا ممـا واجـه، خصوصًـا اللحظـة الـتي يجـب فيهـا إبعـاد مـن سـاندوه وسـاعدوه للوصـول للحكـم؛ ليكـون بمفـرده صاحـب الأمـر الأول والأخـير، وليكـون الآمـر الناهـي الوحيـد في هـذه البـلاد.

كان مـا يـزال شـابًا فتيًـا، لحيتـه السـوداء تمـلأ وجهـه، وشـاربه كـث، ممتـلئ الجسـم قليـلًا، لكـن تبـدو عليـه قـوة البـدن والعصـب، بالطبـع كان مـن ضمـن حسـاباته أن البـاب العـالي إلى حـد مـا مرغـم عليه مـن قِبل الشـعب، وأن السـلطان لـم يوليـه الولايـة بكامـل الرضـا، وأولى أمـارات عـدم الرضـا كانـت عـدم رحيـل قبطـان باشـا وبقـاءه في الإسـكندرية، متربصًـا بـأي أحـداث ليتدخـل، بينمـا الألفـي رجـل الإنجلـيز في البـلاد قابع في مكانـه بالجـيزة يـأبى الاعـتراف بمحمـد عـلى واليًـا، ويحـاول أن ينضـم بمماليكـه إلى قـوى سـلحدار خورشـيد باشـا، وإلى الألفـين وخمسـمائة مقاتـل التابعـين لقبطـان باشـا، لينقضـوا عـلى محمـد عـلي في المحروسـة وينزعـوه مـن القلعـة، الإنجلـيز كانـوا يسـاندونه ويؤيـدون رغبتـه، وأبـدوا نيتهـم أنهـم عـلى اسـتعداد لإنـزال قـوات مـن جيشـهم ليتَّحـدوا مـع المماليـك.

لكـن الفرنسـاويين دعمـوا موقـف محمـد عـلي وحـذروا قبطـان باشـا مـن الانصيـاع لتحريـض الألفـي ودسـائس الإنجلـيز، ليـس فقـط لعدائهـم الطويـل معهـم، ولكـن بتأثـير كتابـات القنصلـين الفرنسـاويين في مـصر ماتييـه ديلسـيبس ودروفـتي، إلى السـفير الفرنـسي في الأسـتانة الـذي سـاند محمـد عـلي لـدى رجـال الديـوان العثمـاني، بقولـه إن محمـد عـلي

محبوب من المصريين كما أنه يعمل على تجهيز حملة لمساعدة الدولة العثمانية في حربها ضد الوهابيين، عضد محمد علي باشا كلامه وموقفه بإغراق قبطان باشا ورجال الديوان العثماني بالهدايا، رغم موقف الدولة المالي الصعب، واستغل هدوء موقفهم معه بأن انقض على سلحدار خورشيد باشا وأجبره على اللحاق بمولاه في الإسكندرية، بعد ما أجبره على تسليم جنده والتخلي عن مهماتهم.

هدوء الباب العالي لم يستمر طويلًا، فقد كان من ضمن خططهم الدائمة، عدم إبقاء والٍي على القطر المصري أكثر من عام، حتى لا تقوى شوكته، ويصير غُصة في حلقهم، وشوكة في ظهرهم، فأرسلوا موسى باشا مع ثلاثة آلاف جندي على ظهر عمارة عثمانية بقيادة صالح باشا، ألقت مراسيها في الثغر، ومن هناك أُرسل إلى محمد علي برسول يحمل الفرمان القادم من الأستانة، يأمروه فيه بالتخلي عن الولاية لموسى باشا، والاستعداد للسفر لتولي ولاية سلانيك مكانه.

أرسل محمد علي باشا الرد مع القابجي، يعلن فيه موافقته وامتثاله لأوامر الباب العالي، لكن رحيله معلق بالجنود الذين يمانعون رحيله إلا بعد سداد متأخراتهم التي بلغت عشرين ألف كيس، ثم جمع قواده الذين تجاوز عددهم السبعين، وعرض عليهم الأمر، وأخبرهم أنه مضطر لطاعة الفرمان والرحيل، لكنهم أعلنوا رفضهم لرحيله، فرد عليهم في خطبة ألهبت حماستهم:

- أتريدون منعي من تنفيذ الأوامر التي صدرت إليَّ، أنتم لا تستطيعون رد الهجوم إذا وقع علينا، ما دام جنودكم يخالفون النظام ويهاجمون الأهالي ويفتكون بهم، ويطالبوني بأجورهم كل حين، تُفضلون هناء الراحة على الحرب ومشقاتها، تتمتعون بما جمعتم من أموال، وأنا هدف لضربات أعدائنا، أنوء وحدي بعبء الأمور الثقيل، فإذا شئتم أن أبقى معكم، رفيقًا أمينًا وزميلًا صادقًا، مثلما كنت في الماضي، فأقسموا لي على القرآن الشريف بأنكم لن

تتركوني ولن تتخلوا عني، وأنكم ستموتون إذا اقتضت الحال في سبيل قضية واحدة، هي قضيتنا جميعًا.

تعالت الهمهمات وتبادلوا النظرات فيما بينهم، ثم علا صوت أحدهم بالموافقة والتأييد لقول محمد علي، تبعه ثانٍ، وثالث، ثم رابع، حتى أعلن الجميع تأييدهم وموافقتهم لما طُلب، ولكي يجعلوه مقدسًا أحاطوه بسياج كما جرت إحدى العادات الألبانية القديمة، فأمسك اثنان منهم وكانا أكبر الموجودين سنًّا بسَيْف محمد علي من طرفيه ومداه، ومر الجميع فوقه واحدًا بعد الآخر، ثم جمعوا ألفي كيس أعطوها إلى محمد علي، ليرسلهم للأستانة، ويؤكد في رسالة يرسلها مع الأموال أنه جاد في تجهيزاته الحربية لمساعدتهم.

بعد انصرافهم أرسل في طلب السيد عمر مكرم، والشيخ الشرقاوي، وعرض عليهم فرمان الباب العالي، واتفقوا على إرسال مكاتبات للباب العالي يوضحون موقف الشعب من رغبتهم في بقاء محمد علي عن غيره، ويصفون الأمراء المماليك بالظلم، ويوضحون ما عانوه معهم من قبل، في المقابل لم يعد محمد علي باشا يخفي نيته ولا عزمه على البقاء والاحتفاظ بعرش الولاية المصرية، حتى أنه صرح لهم القول:

- أيظنون أن مصر دار حمام مفتوحة يدخلها من يشاء؟ إني قد اكتسبتها بحد حسامي، ولن أتخلى عنها إلا مكرهًا بقوة السلاح، العثمانيون قوم يبيعون أنفسهم إذا وجدوا من يشتريها، فأنا سأشتريها، لقد فزت بالولاية وأنا على رأس خمسمائة جندي فقط، مقلقلي العزم، أفأتخلى عنها اليوم، ولدي ألف وخمسمائة بطل كلهم ولاء لي.

وأرسل إلى قبطان باشا رسالة مفادها أن الجند قد لا يطيعون أميرهم القادم، وقد يثورون إذا علموا باضطراره إلى الرحيل، فيعبثون بالأمن والنساء، وسموه رحيم لا يرضى بذلك.

هـذه اللقـاءات والتجمعـات والمراسـلات كانـت تحـدث بينمـا القنصـل البريطـاني بالإسـكندرية يجنـد أروامًـا (يونانيـين) وإيطاليـين في الإسـكندرية ويرسـلهم مـددًا إلى الألفـي الـذي وعـد الأسـتانة بألـف وخمسـمائة كيـس، بضمانـة الخزينـة البريطانيـة، إذا هـي أخرجـت محمـد عـلي مـن مـصر، وكان حينهـا الألفـي يحـاصر دمنهـور.

مـوسى باشـا فـاض بـه الصـبر، واسـتمر في إلحاحـه عـلى القبطـان باشـا بتنفيـذ أوامـر الديـوان الـذي أتى بهـا معـه مـن البـاب العـالي، والسـفير الفرنسـاوي في الأسـتانة يحـاول تدعيـم الرسـول الـذي جـاء بالهدايـا والأمـوال مـن محمـد عـلي باشـا، ويعضدهـا بـكل النفـوذ الـذي كان يسـتمده مـن نابليـون الأول، حـاول الديـوان أن يتخلـص مـن عـبء القـرار، وبعـث لقبطـان باشـا مـوكلًا إيـاه بكامـل التـصرف في الأمـر، فكـر في الأمـر كثـيرًا ثـم أرسـل للألفـي يطالبـه بالألـف وخمسـمائة كيـس الـذي وعـد بهـا، فجـاءه الـرد بأنـه لـم يتفـق مـع بـاقي الأمـراء، ويرجـوه أن يقبـل منـه وحـده فقـط خمسـمائة كيـس، طـوح القبطـان باشـا بالمكاتبـة في الهـواء غاضبًـا وهـو يـصرخ:

- الألفي يهزأ بلحية الصدر الأعظم ولحيتي.

وبعـث عـلى الفـور لمحمـد عـلي ليتفـق معـه، واتفـق الـرأي عـلى دفـع محمـد عـلي أربعـة آلاف كيـس سـنويًا، ليوافـق الديـوان والقبطـان ببقائـه مقابـل ذلـك في منصبـه، عـلى أن يرسـل العلمـاء والأعيـان التماسًـا بذلـك في عريضـة لـكي لا يقـال إن ذمـة الديـوان اشْـتُرِيَتْ. كُتبـت العريضـة وسـافر إبراهيـم بـك ابـن محمـد عـلي بهـا، حامـلًا هدايـا فاخـرة إلى أمـير البحـر، وبقـي رهينـة هنـاك حـتى يفـي أبـوه بتعهـده المـالي، بعدهـا أرسـل القبطـان باشـا كتخـداه إلى القاهـرة بالمرسـوم المثبـت لمحمـد عـلي في ولايتـه، عـلى أن يمتنـع عـن محاربـة المماليـك ويتصالـح معهـم.

دفـع محمـد عـلي الأربعـة آلاف كيـس، وحـضر بعدهـا قابجـي مـن الأسـتانة يحمـل معـه فرمانـين، أحدهمـا يقـر ببقـاء محمـد عـلي عـلى

ولاية القطر المصري، والثاني يأمره بتسفير الحج والمحمل وإرسال ستة آلاف إردب برًّا إلى جدة، بذلك تخلص محمد علي من مشاكله التي تؤرقه من ناحية الباب العالي، بعدها دبر محمد علي أولى مكائده للمماليك، بأن أرسل بعض رجاله يعرضون على المماليك أنهم سيُدخلوهم إلى المحروسة مقابل المال، ودعموا كلامهم بمكاتبات ممهورة بتوقيع السيد عمر أفندي مكرم وأكابر الشيوخ، فظن المماليك أن الشيوخ عادوا لصوابهم وأقبلوا عليهم يريدون عودة الأمور إلى ما استبق عليه الحال من قبل، فاتفقوا على اليوم الذي يخرج فيه الوالي للقيام بمراسم العيد، ليدخلوا المدينة، كان محمد علي قد أمر بترك أبواب المدينة مفتوحة على مصاريعها، وأمر بقطع الخليج في الليل، دخل المماليك مطمئنين لهدوء الأجواء والحال، يتبعهم جِمال عديدة وأحمال، اتجه بعضهم إلى الأزهر قاصدين بيت السيد عمر مكرم، فأبى أن يستقبلهم في داره، فغيروا وجهتهم إلى الشيخ الشرقاوي، ولحق بهم السيد عمر مكرم هناك، ذهب الفريق الآخر إلى جهة حارة اليانسية متخذين باب زويلة طريقًا، فقابلهم عساكر هناك أطلقوا عليهم الرصاص، فتراجعوا مسرعين، فر البعض ناحية باب النصر فوجدوه قد أُغلق، فترجلوا عن خيولهم، ومن تسلق منهم الأسوار نجا بحياته، وتفرق الباقون في العطوف والحارات، واحتمى الآخرون بجامع البرقوقية، نجح اثنان منهم في الهرب لتحذير باقي المماليك عند الشيخ عبدالله الشرقاوي، فولوا هاربين، أما الباقون في الجامع فقد حاصرهم العساكر وقبضوا عليهم وعروهم من ثيابهم، واستولوا على كل ما معهم من أموال وذهب وأسلحة، ونحروا ما يقرب من خمسين رجلًا منهم كالنعاج، وسحبوا الباقين عراة موثقين في شوارع المدينة إلى الوالي.

فرح محمد علي لما رأى المماليك واقعين في الأسر، ورأى بينهم أحمد بك تابع البرديسي، وسخر منه لوقوعه في المكيدة التي أعدها لهم، طلب الرجل منه الماء في كَسرة وذل، وهو عار أمامه كما ولدته أمه،

فأمر بحل وثاقه ومناولته الماء، فتفلت من بين أيديهم وخطف من أحدهم يطقانًا، ووثب ناحية الوالي محاولًا قتله، لكن محمد علي كان خفيف الحركة، ماهرًا، تراجع في سرعة وخفة، فطاشت الطعنة في الهواء، تكالب عليه الجنود وقتلوه بعد أن أثخنوه بالجراح وقتل منهم البعض، رُبط الباقون في حوش الدار، على حالهم من العري، وقد أُلحق بهم المهانة والذل، في اليوم التالي استقدموا لحَّامين (بائعي اللحوم) سلخوا رؤوس قتلى المماليك أمام الأسرى منهم ، وحشوها تبنًا وخيطوها، وفي الليل انقضوا على المعتقلين طعنًا وقتلًا، ثم اقتلعوا رؤوسهم وفعلوا بها كما فعلوا بالآخرين، وعمد محمد علي إلى إرسال الرؤوس إلى الأستانة كدليل على نجاحه في القضاء على المماليك، لما بلغت أنباء ما حدث إلى المماليك الهاربين، رحلوا مبتعدين إلى أسيوط.

وكأن القدر يدعمه..

فما لبث محمد علي أن جاء خبرٌ بوفاة عثمان بك البرديسي، بعد أن انتابته حمى صفراوية، زاد عليه المرض واشتد، وحضر رجل ادعى أنه طبيب مغربي جاء من المحروسة لعلاجه، ولما دخل عليه خيمته، قتله، وأودى بحياته، دفنه أتباعه في الصعيد، وتولى أمرهم شاهين بك المرادي، الذي استمر على نفس الخصومة مع الألفي، الذي ظل على اتصال بالإنجليز عن طريق قنصلهم في مصر، علم الألفي عن طريق القنصل عن توتر العلاقة بين العثمانيين والإنجليز، ودخول الأسطول الإنجليزي تحت قيادة الأميرال دوكورث إلى بوغاز الدردنيل، وأنهم ينوون تسيير عمارات إنجليزية لمصر واحتلالها، فظل في البحيرة وزاد في حصار دمنهور ليفتحها ويتخذها معقلًا؛ ليكون قريبًا من الإنجليز حين يصلوا الإسكندرية، فيسهل عليه الاتصال بهم ، أُنهك جنوده واشتد بهم التعب ونقصت مؤونتهم من طول الحصار القائم على دمنهور، فتمردوا عليه وأرادوا الرحيل إذا أصر هو

على استمرار الحصار، فاضطر إلى فك الحصار حتى لا ينفض جنوده من حوله، بعد تأخر العمارة الإنجليزية المنتظرة، ورحل إلى الصعيد تحت لوائه ستة آلاف من العرب وستمائة من الفرسان المماليك، وثمانمائة من العثمانيين والنوبيين الكل بكامل بنادقهم وأسلحتهم، مع عشرة مدافع، كانت المسيرة والمؤونة تحملها آلاف عدة من الإبل، لم يمر الجنود ببلدة إلا سلبوها ونهبوها، فعمد أهالي بعض القرى للمغادرة والرحيل عن قراهم، إذا ما علموا باقتراب الألفي وجيشه منهم، فيخلونها من ماشيتهم ومتاعهم ونسائهم لينجو من نهب الألفي وجنوده.

لم يكد يمضي شهران على وفاة البرديسي، حتى جاء محمد علي خبر موت الألفي أيضًا، بعد أن اعتراه قيء دموي مستمر، ظنها من حوله أنها كوليرا، لم يتحملها طويلًا وأودت بحياته خلال ساعات، ودفن في البهنسا بعد أن كان ولَّى على أتباعه قبل ذلك بأيام جاهين بك الألفي.

وصل الخبر إلى محمد علي وهو أيضًا مصاب بالكوليرا، وسط حملته التي أعدها وسيرها لمحاربة مماليك الوجه القبلي لكنه شُفي منها، بعد اعتناء طبيبه الإيطالي الخاص «بتزري» به عناية فائقة، ساعده على مقاومة الإعياء قوة بنيته التي تحملت شدة المرض، عهد بإدارة الأمن في المحروسة لكتخدا، قبل أن يخرج مع حملته على رأس ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان، وست سفن مسلحة، وما يقرب من ثمانمائة مركب، أرسل إلى المماليك في المنيا يعرض الصلح، في خدعة منه كما تعود، استمال العربان الموالين للماليك بالمال، ثم انقض على المماليك وهم نائمون بإرشاد ومساعدة العربان، واستولى على مدافعهم ومهماتهم وتعقب الفارين، وأوقع بهم الهزيمة في منقباد بالقرب من أسيوط التي اتخذها معسكرًا، وهناك وصلته الأخبار بوصول العمارات الإنجليزية.

وصلت العمارة الإنجليزية في مارس ١٨٠٧ بسفينة استطلاع أولًا للتعرف على الحالة في الثغر، وصلت بعد وفاة الألفي بأربعين يومًا، وبمجرد رسوهم في المياه استدعوا سفيرهم في مصر على الفور، الذي لم يكد يعود إلى الثغر حتى بادر بإرسال رسائل إلى بكوات المماليك في الصعيد لإخبارهم بوصول الحملة الإنجليزية، ويستدعيهم للوجه البحري، وصلت أخبار العمارة إلى القاهرة، فاجتمع كتخدا بك وحسن باشا وبونابرته الخازندار وطاهر باشا والدفتر دار والروزنامجي وباقي الأعيان، وأرسلوا لمحمد علي يطالبونه بسرعة العودة مع جنوده، تولى السيد عمر مكرم زعامة المقاومة الشعبية، فجمع المتطوعين لحفر الخنادق وبناء الاستحكامات شمال القاهرة لصد الإنجليز إذا ما جاءوا عن طريق شبرا، كان العمل يستمر ما يقرب من طيلة النهار، وُزعت تكلفة الحفر على أهل الوكائل والحانات والتجار وأرباب الحرف والروزنامجي، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل وعلى البعض أجرة خمسين وعلى البعض عشرين، ومعهم النصارى والأروام والشوام والأقباط، اشتروا المقاطف والغلقان والفئوس، وآلات الحفر وبنوا حائطًا مستديرًا بأسفل تل قلعة السبتية، بعض العمال كان يعمل متطوعًا نصف نهار، ويعود إلى أعماله عند الظهر. كما أمر السيد عمر مكرم الناس ومجاوري الأزهر بحمل السلاح، وأمر المشايخ بالتوقف عن إلقاء الدروس، وشرع أهل الإسكندرية وأبي قير في تحصين قلاعها وأبراجها، وأرسل كتخدا بك من يتقيد ببناء قلعة في البرلس.

اشترى قنصل إنجلترا أمين أغا محافظ الثغر، واتفق معه أن يسلم المدينة للإنجليز دون مقاومة، أقبلت العمارة المؤلفة من خمسة وعشرين سفينة تحت قيادة الأدميرال لويس وسدت مدخل الميناء الغربي، نزل الجنود على شاطئ العجمي، وزحفوا إلى الإسكندرية وعسكروا هناك، وأرسلوا فصيلة لاحتلال قلعة أبي قير، لم يكن عدد الإنجليز القادمين مع الحملة يتجاوز الستة آلاف وخمسمائة

مقاتل، في فرقتين، الأولى تحت قيادة الجنرال ستيوارت والأخرى تحت قيادة الجنرال ويكوب، والحملة كلها تحت قيادة الجنرال فريزر، كان اعتمادهم الكامل على انضمام المماليك لهم من الصعيد، وأنهم لن يجدوا مقاومة تذكر في البلاد، مع الضعف الشديد والتشتت الذي حدث فيها في الأعوام السابقة التي تلت خروج الفرنساويين منها، وصلت الأخبار إلى المحروسة بوقوع قتال وضرب بالمدافع من البحر ناحية القلعة وهَدم جانب من البرج الكبير والأبراج الصغيرة، وأن أهل الإسكندرية هاجموا الإنجليز في رأس التين والعجمي، وأجلوهم عن البر، وأنهم حرقوا بضعة مراكب، وأنه وصلت إليهم عمارة العثمانيين والفرنساوية وحاربوا الإنجليز في البحر وأحرقوا مراكبهم، لكن اتضح أن تلك الأخبار كاذبة وإشاعات ملفقة، فقد دخل الإنجليز المدينة ليلة الواحد والعشرين من مارس دون أن تطلق رصاصة واحدة، بعد أن سلم أمين أغا نفسه كأسير حرب مع ثلاثمائة مقاتل يمثلون كل حامية المدينة.

هادن محمد علي باشا المماليك في الصعيد، وفاوض زعماءهم أن يقفوا معه ويساندوه في حربه ضد الحملة الإنجليزية التي وصلت، لم يجد أمامه سبيلًا آخرَ كحلٍّ مؤقت يأمن به جانبهم، وليحيد المماليك عن المعركة القادمة، ويضمن عدم إنحيازهم للإنجليز على الأقل إن لم يساندوه، طلب جاهين بك أن يقيم في الجيزة على أن يكون له إيراد عشر نواحي في الجيزة وثلاثين في البهنسا وإيراد الفيوم كلها، دون أن يدفع ضرائب عليهم، فوافق محمد علي دون تردد، بعد الاتفاق ذهب جاهين بك لزيارة محمد علي متوجسًا من مكائده، لكن محمد علي باشا استقبله بحفاوة وأكرم وفادته، ودعاه لتناول الطعام معه على مائدة ابنه طوسون، ابتهج أمراء المماليك بما حدث وفعلوا مثل جاهين بك، وترك منهم الكثير الحياة البدوية وعادوا تحت راية محمد علي باشا، حتى إبراهيم بك الكبير أرسل مرزوق بك ابنه بحاشية كبيرة، وتم الاتفاق بينهم أجمعين أن

يـترك لهـم محمـد عـلي حكـم الصعيـد، وإيـرادات بلـدان معينـة، عـلى شرط أن يقدمـوا للمـيري كميـة معلومـة مـن الغـلال.

بعـد إتمـام الاتفـاق أخـلى الـوالي الصعيـد وعـاد بجنـوده إلى القاهـرة، وسـيطر المماليـك عـلى الوجـه القبـلي وتقدمـوا حـتى الجـيزة.

أرسـل عـلي بـك السـلانكي الأسرى الإنجليـز الـذي أوقعـوا بهـم في رشـيد مـع رؤوس قتلاهـم إلى المحروسـة، وصلـوا إلى بـولاق فتجمـع الكثـير مـن عامـة النـاس عـلى سـاحل بـولاق ليتفرجـوا عليهـم، دخـل الأسرى في صحبـة حراسـة مـن بـاب النـصر، سـاروا بهـم وسـط المدينـة، كان هنـاك ضابطـان يمتطيـان حماريـن، وبقيـة العسـاكر يمشـون عـلى أقدامهـم يحملـون رؤوس القتـلى معلقـة عـلى أربعـة عـشر نبوتًـا، وصلـوا إلى بركـة الأزبكيـة، وهنـاك ضُرب عنـد وصولهـم شـنكًا ومدافـع، وصعـد الأسرى إلى القلعـة، وفي اليـوم الثـاني وصـل مائـة وواحـد وعـشرون رأسًـا آخـرون، وثلاثـة عـشرة أسـيرًا وجريـح.

لـم يـرض الإنجليـز بمـا حـدث لقواتهـم وجنودهـم في رشـيد، فجهـزوا جيشًـا آخـر وأرسـلوه لدخـول رشـيد والسـيطرة عليهـا، زحـف الجيـش الإنجلـيزي الثـاني ناحيـة الحمـاد قبـلي رشـيد، وأقـام المتاريـس مـن سـاحل النيـل إلى الجبـل، وضرب الحصـار عليهـا، ثـم أقـام المدافـع على آكام أبي منـدور، ضُربـت رشـيد بالمدافـع والقنابـل اسـتعدادًا للهجـوم عليهـا وفتحهـا، تهدمـت الكثـير مـن البيـوت ومـات رجـال كثـير مـع أطفالهـم ونسـائهم تحـت الأنقـاض، وتـشردت أُسر أخـرى كثـيرة نجـت مـن تحـت الأنقـاض، أرسـل السـيد حسـن كريـت نقيـب أشراف رشـيد يسـتنجد بالسـيد عمـر مكـرم وأهـالي المحروسـة، فدعـا النـاس وحسـهم عـلى نجـدة رشـيد، وارتحـل الكثـير مـن المغاربـة وأتـراك خـان الخليـلي والأسـيوطية وكثـير مـن رجـال المحروسـة، لمسـاندة أهـل رشـيد، رغـم رفـض كتخـدا بـك لرحيلهـم إلا بعـد رجـوع محمـد عـلي باشـا وقواتـه مـن الصعيـد، وصلـت الأنبـاء لبـاقي البـلاد وتطـوع أهـالي البحـيرة والبـلاد

المجـاورة للذهـاب إلى رشـيد أيضًـا.

وصلـت أخبـار هزيمـة الإنجلـيز الأولى في رشـيد إلى محمـد علي باشـا بعد مـا وصـل إلى القاهـرة، أكمـل مـع النـاس عملهـم في بنـاء الاسـتحكامات حـتى أتمهـا، وشـق أخاديـد أمـام الخنـادق وأوصلهـا بالنيـل، فامتلئـت بالميـاه لتعرقـل تقـدم الإنجلـيز، وأغـرق بضعـة مراكـب بين جزيـرة بولاق والشـاطئ لتعرقـل السـفن الإنجليزيـة إذا مـا نجحـت في عبـور رشـيد، ثـم جمـع تسـعمائة كيـس مـن المـال خصصهـا لتجهـيز الحملـة ونفقـات الزحـف، وسـير أربعـة آلاف مقاتـل مـن المشـاة مـع ألـف وخمسـمائة مـن الفرسـان في اتجـاه رشـيد تحـت قيـادة طبوزأوغـلي.

أهـالي رشـيد تحملـوا القنابـل وضرب المدافـع، واسـتمروا في مناوشـات الإنجلـيز بـين الحـين والآخـر في الحمـاد، حـتى نجحـوا في تركيـب مدفعـين عـلى الشـاطئ الـشرقي، وألقـوا القنابـل عـلى ميمنـة الجيـش الإنجلـيزي بالـبر الغـربي، فعـبر الميجـور ماكدونالـد النهـر ومعـه مائتـان وخمسـون جنديًّـا عنـد مسـجد أبي منـدور، واسـتولى عـلى موقـع المصريـين والمدفعـين، لكنـه مـا لبـث أن عـاد أدراجـه متقهقـرًا إلى الـبر الغـربي بعـد وصـول عـدد مـن الرجـال المصريـين لذويهـم مـع مـدد، واسـتمر الـضرب والكـر والفـر حـتى وصـل جنـود طبوزأوغـلي ناحيـة الـبر الـشرقي للنيـل، وجنـود حسـن باشـا بالـبر الغـربي، الـتي تقدمـت طلائـع منـه نحـو مواقـع الإنجلـيز في الحمـاد وأحاطـوا بكتيبـة منهـم، وقتلـوا بعضهـم وأسروا البـاقي، أرسـل الجـنرال سـتيوارت مـددًا لهـم مـع الكولونيـل ماكلويـد الـذي جهـز مواقـع جنـوده ليدافـع بهـا عـن الـبرزخ بـين النيـل وبحـيرة إدكـو، ليسـدوا الطريـق أمـام الجيـش المـصري فـلا يسـتطيع اجتيـازه ولا الوصـول لرشـيد.

عـبر طبوزأوغـلي النيـل وانضـم لقـوات حسـن باشـا، بعـد أن كان مرابطًـا في برنبـال، وتأهبـوا معًـا لمهاجمـة الحمـاد، فوقـع الرعـب في قلـب الكولونيـل ماكلويـد لمـا رأى تكاثـر أعـداد قـوات الجانـب المـصري

أمامه، فلم ينتظر الرد على طلبه من الجنرال ستيوارت بالانسحاب، وانسحب من تلقاء نفسه، دون وضع خطة محكمة لذلك، فتفرقت قواته، وسقطت بين براثن فرسان الجيش المصري، ودخل المشاة الحماد وسيطروا عليها، وتعقب الفرسان بقية القوات وانهالوا عليهم بالرصاص، وقتلوا الكولونيل ماكلويد، واستسلم قائد الميسرة الميجور الإنجليزي مع بقية القوات، بعد أن قُتل أربعمائة وستة عشر جنديًّا منهم وأُسر النصف الباقي حوالي أربعمائة أسير تقريبًا.

لما أدرك الجنرال ستيوارت ما حدث لقواته في الحماد، سارع إلى رفع الحصار عن رشيد، وانسحب قبل وصول القوات المصرية إليه فتدك متاريسه عليه وعلى جنوده، أتلف مدافعه التي لم يستطع أخذها معه وتراجع مع خيبته وهزيمته إلى طريق أبي قير، لكن أهالي رشيد والبلاد من حولها تعقبوه وجنوده، وألحقوا به بعض الخسائر بعد مناوشات منهم على شاطئ البحيرة، فواصل تراجعه حتى أبا قير ومنها استقلوا سفنهم عائدين إلى الإسكندرية.

وصل محمد علي باشا إلى دمنهور بعد أن سار بجيشه من معسكره في إمبابة متوجهًا إلى الرحمانية ومنها إلى دمنهور في الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٠٧، هناك التقى بالجنرال شربروك الذي فوضه فريزر لإبرام الصلح معه، اتفق الطرفان على جلاء الإنجليز عن الإسكندرية مقابل استرجاعهم أسراهم وجرحاهم، فأرسل محمد علي يجلب الأسرى من القاهرة، وتسلم الإسكندرية طبوزأوغلي نيابة عن محمد علي ونزل بدار الشيخ المسيري هناك، أقلعت السفن البريطانية مع من بقي من حملتهم السليم منهم والمصاب على ظهرها متجهين إلى صقلية.

عاد محمد علي إلى القاهرة لكن أثناء عودته تعرض مركبه لحادث وانقلب به في النيل عند زفيتة شلقان، فعبره سباحة مع حسن باشا طاهر وسليمان أغا الوكيل، وأكمل سفره على ظهر جواده، الذي

انكب بـه وسـقط عـلى الأرض وهـو في الطريـق، فتطـيرت الحاشـية مما حـدث، وأكملـوا رحلتهـم في توتـر وتشـاؤم حـتى دخلـوا القاهـرة في أكتوبر ١٨٠٧، ضُربـت المدافـع مـن القلعـة لوصولهـم، وأقيمـت الشـنك ثلاثـة أيـام، وهنـأه البـاب العـالي في الأسـتانة بالنـصر الـذي حققـه، وأعـادت له ابنـه إبراهيـم بـك.

قابلـه النـاس بالشـكوى مـن أفعـال بعـض الجنـود في غيابـه وإخلالهـم بالأمـن والنظـام ومـا قامـوا بـه مـن نهـب وسـلب وعـدوان عـلى النـاس وانتهـاك حرماتهـم وأموالهـم، وكان قـد بلغتـه الأنبـاء وهـو بعـد في الإسـكندرية، ازداد يقينـه أن هـؤلاء الجنـود يمثلـون خطـرًا عليـه لا يقـل عـن خطـر المماليـك في الصعيـد وتربصهـم بـه، ورغـم أنـه تخلـص مـن الـدلاة أول مـا أمسـك زمـام الحكـم وقـام بترحيلهـم إلى الحـدود السـورية، لكـن مـا بقـي مـن الجنـود الأرنـاؤوط غـير النظاميـين وبقيـة مـن الـدلاة، يسـببون الفـوضى في البـلاد، أو في طريـق عودتهـم مـن الحمـلات عـلى القـرى.

في الثامـن والعشريـن مـن أكتوبـر تجمـع هـؤلاء الجنـود بعـد عـودة الـوالي، حـول سرايـاه بالأزبكيـة، يطالبونـه برواتبهـم المتأخـرة، وأخـذوا يطلقـون النـار مـن بنادقهـم عـلى أبـواب القـصر ومنافـذه، بعـد أن وُعـدوا بالدفـع فيمـا بعـد ورفضـوا الانتظـار، اسـتمروا في إطـلاق الأعـيرة الناريـة حـتى نفـدت ذخيرتهـم ورحلـوا، ولـم تمـر ثـلاث سـاعات حـتى جـاءت مجموعـة أخـرى منهـم وفعلـوا نفـس فعلهـم، ازداد فـزع النـاس وأغلقـوا محلاتهـم ودكاكينهـم واختبـأوا في منازلهـم، بعـد أن أغلقـوا الـدروب والحـارات وسـهر خلفهـا البعـض بالأسـلحة للحمايـة، غـادر محمـد عـلي سراي الأزبكيـة سرًّا إلى القلعـة؛ لأنهـا أكـثر أمانًـا مـن السرايـا دون أن يشـعر بـه الجنـود المتمـردون، فلمـا علمـوا بمغادرتـه السرايـا هجمـوا عليهـا ونهبوهـا، كمـا سـلبوا ونهبـوا واعتـدوا عـلى النـاس في بيوتهـم، اسـتمر الإضطـراب والاعتـداء عـلى الأهـالي سـبعة أيـام، حـتى

أنسـت النـاس الاحتفـال برؤيـة هـلال شـهر رمضـان.

حـاول السـيد عمـر مكـرم مـع آخريـن إخماد فتنـة الجنـود، واتفقـوا على أن تدفـع الحكومـة جـزءًا مـن رواتبهـم المتأخـرة قـدَّروه بألفـي كيـس، لكـن الأهـالي تحملوهـا لأن خزانـة الدولـة خاويـة عـلى عروشـها، فقامـوا بتقسـيمها وجمعهـا مـن التجـار والمـلاك والصنـاع وأرباب الحـرف، هدأت الفتنـة، بعـد أن دفعـت الأهـالي مـن مالهـا الخـاص مرتبـات الجنـود، لكن محمـد عـلي لـم يهـدأ بالـه، وهـو يعلـم أن الجنـود لـن يلبثـوا ويعـاودوا التمـرد، أصـدر قـرار نفـي فيـه رجـب أغـا أحـد رؤسـاء الجنـد الأرنـاؤوط، وقـرر في باطنـه التخلـص مـن كل الجنـود غـير النظاميـين وإنشـاء جيـش مـن أبنـاء الشـعب أساسـه الطاعـة والنظـام للرؤسـاء، فعمـد إلى التخلص مـن هـؤلاء الجنـود غـير النظاميـين في الحمـلات البعيـدة عـن البلـد وكان أولهـا في طريقـه، الحـرب ضـد الوهابيـين في جزيـرة العـرب، بعـد فشـل سـليمان باشـا والي بغـداد، وعبـدالله باشـا والي دمشـق، ويوسـف باشـا الصـدر الأعظـم.

- ٨ -

بـدأ تسـجيل البغايـا في القـرن السـابع الميـلادي، وكان البغـاء أغلـب الظـن موجـودًا في زمـن قدمـاء المصريـين وبنـاة الأهـرام، حيث افترضت بعــض الآراء أن بعــض الغــرف الــتي اكتشــفت في هــرم ســقارة والــتي عرفـت باسـم غـرف الإلـه «بـس» كانـت مخصصـة لممارسـة البغـاء، فيمـا سـميت العاهـرات بــ «بغايـا المعبـد».

في عهــد العثمانيــين أطلــق عليهــا العامــة «كرخانــات»، وهــي كلمــة عثمانيــة مكونــة مــن مقطعــين «كــرى» وتعــني نــوم، و«خانــة» وتعــني مــكان، وقــد كانــت البغايــا تــدون وتســجل اســمها وبياناتهــا في مقــر الصولبـاشي، أو رئيـس الشرطـة، الـذي كان تحـت إمرتـه أربعـون شرطيًـا يسـمون جاويشـية بـاب اللـوق، مهمتهـم حـصر ومراقبـة البغايـا.

محـلات البغـاء أقيمـت في القاهـرة بشـكل عشـوائي في بيـوت عاديـة، وحينمـا جـاءت الحملـة الفرنسـية حاولـت تنظيمهـا وتمييزهـا وعزلهـا عــن بيــوت النــاس، فبعــد أن قســم الفرنســاوية القاهــرة إلى ثمانيــة أخطـاط، الموسـكي، والأزبكيـة، وبـاب الشـعرية، والجماليـة، والـدرب الأحمـر، وعابديـن، والسـيدة زينـب، ومـصر القديمـة، خصصـوا منطقـة «غيـط النـوبي» القريبـة مـن شـارع الموسـكي للبغـاء، وأُنشـأوا فيهـا بيوتًـا مخصوصـة لذلـك، وفُرضـت رسـومٌ عـلى مـن يرغـب في الدخـول إليهـا، وبالنسـبة لجنـود الحملـة كانـت تكفـي ورقـة مختومـة مـن السـلطات الفرنسـية، لكـن ذلـك لـم يمنـع انتشـار بيـوت البغـاء في أحيـاء القاهـرة الثمانيـة، خصوصًـا بـاب الشـعرية، والجماليـة، والسـيدة.

أغــرب بيــوت البغــاء في القاهــرة كانــت في منطقــة عــرب المحمــدي بالقـرب مـن صحـراء الريدانيـة، الـتي شـهدت العديـد مـن الحـروب ومنهـا الحـرب الشـهيرة بين طومـان باي والسـلطان سـليم الأول العثمـاني والـتي

انتهت بهزيمة طومان باي وإعدامه شنقًا على باب زويلة، هناك كان بيت البغاء عبارة عن حفر ممهدة للمضاجعة، وأثناء الجماع تُغطى بستارة مثبتة بالحجارة من أطرافها بواسطة القوَّاد أو القوَّادة التي تنتظر حتى يفرغ الزبون ثم ترفع الستارة وتهيَّأ الحفرة لزبون جديد.

في بداية اعتلاء محمد علي ولاية المحروسة، بدأ توافد الأجانب للمعيشة في مصر، ومعهم ازدهرت الدعارة، فقرر الإبقاء على ضريبة البغاء، حينها كان البغاء يتركز في عدد من الأحياء مثل بولاق ووش البركة، ودرب طياب، وعطفة الجينينة، والحوض المرصود، وقد لاحظ الوالي ازدياد الأمراض الجنسية بين صفوف ضباطه وعساكره، كالسيلان، والزهرى، فأبعد مومسات القاهرة وراقصاتها إلى إسنا وقنا والأقصر.

كان محمود في مراهقته مع بداية تولي محمد علي باشا ولاية مصر بفرمان ١٨٠٥، حينها كان البغاء في أوج ازدهاره، كان محمود يلعب مع أقرانه جوار إحدى مقاهي باب الشعرية، وهناك كان يتلصص مع أصحابه الصغار على الراقصات والرقصات الخليعة التي انتشرت في هذه المقاهي، وأشهرها رقصة النحلة، وفيها تتخيل الراقصة أن نحلة تقرصها وتتجرد من ملابسها قطعة قطعة حتى تصبح عارية تمامًا في وسط الشارع، بسبب هذه الرقصة قام محمد علي بحظر الرقص العمومي للنساء والبغايا في مقاهي القاهرة، وقرر عقاب المخالفات بالجلد خمسين جلدة للمرة الأولى وبالأشغال الشاقة لمدة سنة للمرة الثانية، مع كل هذه الغوايات حاول محمود أن يمتنع عن بيوت البغاء فلم يقربها في البداية، لكن مقاومته لم تدم طويلًا رغم النصائح الكثيرة المتكررة من والده - الذي لم يكن قد توفي بعد - بالابتعاد عن الرذائل، وتعنيفه الشديد له بعد أن شاهده يتابع رقصة النحلة ذات مرة، وعاقبه بالضرب، لكن الفضول وحب المغامرة والتجربة، ساقته ذات يوم مع أصدقائه

لإحدى هذه البيوت، فكانت البداية في بيت «حسنة الطرابية»، كانت صاحبة البيت وكان جمالها صارخًا، ممتلئة الجسد، ترتدي ما قل ووصف وربما شفَّ، عندها الكثير من الخيرات النسائية، من ذوات الخبرات، التي يمكن أن تساعد فتى جديد مثل محمود على تحقيق رغباته المجهولة، التي لم يكتشفها بعد، ربما كانت المرة الأولى له أشبه بدرس يكتشف فيه ويلمس معالم جسد المرأة الغريب عنه، فلم يكن له أي معرفة بعالم النساء الخاص، حتى مراقبته لرقصات النحلة من قبل، لم تفده بأكثر مما أرقت ليله وأرهقته، جذبته إحدى النساء من يديه وسار يتبعها كالتائه مشدوه النظرات، أنفاسه متسارعة ومضطربة، المرأة كانت مغطاة بعرقها الساخن، جذبته وأراحته على السرير، خلعت عنه سرواله، وامتطته كخيال مُحَنَّك مُتَمَرِّس، جردته من عذريته دون أمجاد منه، سقط بعدها منهكًا في عرقه ونهجانه، وبقيت هي جاثمة على صدره لثوانٍ، كان اللقاء ناجحًا ومباغتًا إلى حد ما بالنسبة له، فلم يكن كما توقع وتخيل، ولا كما رسم لنفسه وخطط، لكنه بعد بضع مرات صار مُتَمَرِّسًا وخبيرًا، ولم يفت عليه أن يجرب طعم البيوت غير المصرية وكانت الأشهر حينها بيت السيدة «فريدة يني».

بعد وفاة والده اضطرب حاله، وتشتت فكره قليلًا، لم يكن قد أتم التاسعة عشر بعد، دخل في علاقات مع نساء مطلقات، وأرامل، بل أحيانًا نساء متزوجات، حاول بهن أن يبتعد عن أفكاره التي تلح عليه، وأن يهرب من حزنه على موت أبيه ودفنه بعيدًا عنه دون أن يرى جثته بعينيه أو يواريها بنفسه التراب، كان يمضي مذهولًا يعتقد أن والده ما زال حيًّا وأنه سيعود، وسيفاجأ به يومًا يدخل عليه الورشة أو يعود على البيت ويعنفه على أفعاله، فكر كثيرًا كيف سيتابع حياته من دون أب؟ وهو لم يفارقه يومًا من لحظة ولادته، ولم يتخلى عنه أبوه يومًا أو يبتعد عنه، لكن من اليوم الذي أمسك فيه الورشة وأصبح هو صاحب التعامل مع الزبائن، اختلفت رؤيته

للناس، فمع خبرته التي اكتسبها، صار البشر من الرجال وخصوصًا النساء مكشوفين أمامه، يستطيع أن يثبر أغوارهن من نظرة عينهن، حتى وإن كانت المرأة مغطاة بالكامل لا يظهر منها إلا عيناها.

زادت سهراته والتفافته حول حلقة «رقصة العوالم»، وسط الدخان المتصاعد، والصاجات الرنانة وألوان القلنسوات البراقة، واهتزازات الأذرع اللينة، مع حركة الأوراك المخملية، وكحل العيون القاتلة، وتوهج الوجنات الناعمة للراقصات، فوق جمالهن الأخَّاذ، وضياء قلنسواتهن المذهبة، التي تعلو جدائل شعورهن، كعوبهن الوردية التي تضرب الأرض، بينما أذرعهن ترتفع في اهتزازات عنيفة تثير النفوس، وهي تقرع أجراسًا وخلاخيل، يرى أوراك الراقصات عارية تختلج في حركات ناعمة، ونحورهن تتبدى عارية تحت نسيج الحرير الموصلي وتتأود بين لباسهن والحزام المترامي الذي يسقط على بطونهن.

وفي يوم استطاع من بين الدخان أن يميز في دورانهن بأجسادهن ورقصهن السريع ملامح هذه الكائنات الجذابة التي ترتج أصابعها بصنج صغيرة وكبيرة، مهتزين على نغمات الناي والطبول، كن شديدات الجمال مزهوات بعيون عربية زادها الكحل تألقًا، بوجنات ممتلئة تزينها مساحيق وألوان، لكنه لاحظ أن لدى بعضهن ملامح ذكورية، وعندما دقق في الأمر اكتشف أن بينهن ذكور يتمايلون في مياعة كالنساء ويرتدون مثلهن، فصُعق مما رأى وخرج مسرعًا ولم يعد مرة أخرى.

تبدل حاله من اليوم التي لجأت فيه ليلى أرملة محروس - أحد جيرانهم، الذي قُتل منذ سنوات في ثورة القاهرة الثانية أيام الحملة الفرنسية - لأمه، تشكي لها حالها مع حماتها، التي تسبها وتلعنها في كل لحظة، وتتهمها أنها كانت ذات فأل أسود على ولدها، الذي لم يهنأ بزواجه منها إلا بضع سنين لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة،

لم تحبل فيها، ولم يترك لها منها حفيدًا ذكرًا أو حتى أنُثى من رائحته، تتهمها أنها كانت عاقر، وتقول إنها طالما نصحت ولدها بالزواج عليها من غيرها، لينجب لها الحفيد الذي رجته من الدنيا، لكنه كان يأبى أن يتزوج عليها بأخرى، رأى في عينيها الاحتياج، الشوق لرجل جوارها، رغم أنها كانت تقريبًا في الخامسة والعشرين وربما أكثر، وهو بعد لم يجاوز العشرين، إلا أن هذا لم يمنعه من التودد لها والتقرب إليها، وهي تزور أمه أو وهو في طريق عودته من الورشة عندما يلمحها وهي تقف خلف مشربيتها في الدور العلوي، حتى أتى يوم جاءت إليهم ليلًا باكية، شاكيةً، أن حماتها أهانتها وتطاولت عليها بالضرب، دون سبب كالمعتاد، وطردتها إلى الخارج بملابس البيت، دون حتى أن تتركها ترتدي ملابس أخرى، احتضنتها أمه ودعتها لتبيت ليلها عندهم، وفي الصباح تصلحها عليها، أو تعود إلى أهلها.

ظل جالسًا على سريره طوال الليل لا يعرف ماذا يفعل، لكنها حسمت أمرها بدلًا منه، تسللت إلى غرفته بعد أن نامت الأم، أزاحت عن جسدها ملابس الحداد، وألقتها في الهواء دون رجعة، سقطت بعض أجزاء من ملابسها تحت قدميها مع فترة حدادها، حاول أن يساعدها في خلع ملابسها إلا أنها لم تترك عليها ما يمكن أن ينزعه عنها، بقيت في عريها الملتهب الذي ما زال يحتفظ بدوران الصبايا الصغار، ولم يمنعها حياء من اندفاع تلك المهرة الجامحة المختفية بأعماقها، حاولت أن تروي عطشها طوال سنوات حدادها، فقبل هذه الليلة لم تنم جوار أي رجل سوى زوجها، تلك السنون التي كانت تخفي عنه رغباتها، ولم تكن تجرؤ أن تظهر حتى مشاعرها وأفكارها حتى لا يظن بها الظنون، لقد نزعت الحداد عنها في هذه الليلة وقررت ألا تعود له من جديد، تركت نفسها بين ذراعيه يحركها ويداعبها كما يشاء، تتقلب وتتجاوب معه لأول مرة في حياتها كامرأة حقيقية بين ذراعي رجل، لها رغبات تلبيها، وأفكار

تحركهـا، للمـرة الأولى تـدع رجـلًا يلمـس روحهـا ويشـعر بشـهواتها، يـرى مخاوفهـا، وضعفهـا، وعجزهـا في مواجهـة عالـم لـم تعـرف عنـه شـيئًا إلا مـن خـلال عيـون رجـال عاشـت في كنفهـم، ولـم تُجربـه حقيقـةً مـن قبـل، اليـوم واليـوم فقـط، عرفـت كيـف يكـون حـال النسـاء السـعيدات بـين ذراعـي رجـل.

آخـر الليـل عـادت لمـكان مبيتهـا في الغرفـة الأخـرى، وفي الصبـاح قـررت العـودة لمصالحـة حماتهـا، كي تبقـى قريبـة مـن محمـود ومـن بيتـه، انتظرتـه مـرات في جـوف الليـل، ودعتـه إلى فراشـها بعـد أن تنـام أعـين المدينـة، ويغـرق أهـل الشـارع في أحلامهـم، لتغـرق هـي بـين أحضـان رجلهـا الجديـد.

لـم تكـن ليـلى المـرأة الوحيـدة في حيـاة محمـود، ظـل سـنوات يتنقـل بـين بضعـة فـرش لنسـاء جائعـات، ومحرومـات، لكـن مـع ليـلى كان يشـعر بالانتمـاء لـشيء، كأنهـا تداعـب روحـه وتتسـلل مـن بـين أنفاسـه لتسـكن قلبـه رويـدًا رويـدًا، كثـيرًا مـا كان يعـود متأخـرًا إلى البيـت تفـوح منـه رائحـة خمـر كريهـة، يـكاد ينكفـئ عـلى وجهـه كل مـا خطـا خطوتـين أو ثلاثـة، يسـتيقظ ظهـرًا، لكنـه يذهـب إلى الورشـة يتابعهـا ويهتـم بهـا، لـم ينقطـع عنهـا أو عـن عملهـا، حـتى لـو وصـل إليهـا متأخـرًا، يعـود إلى البيـت قبيـل المغـرب، يتنـاول مـا وجـد مـن طعـام، ثـم يخـرج ليـدور بـين المقاهـي أحيانًـا، وبـين الحانـات ودور البغايـا أحيانًـا أخـرى، إذا لـم تكـن هنـاك رفيقـة مترملـة مـن نسـاء المحروسـة أو أخـرى غفـل عنهـا زوجهـا، لـم يـترك صنفًـا إلا تذوقـه، الأرمينيـات بجمالهـن السـاحر، ولـون بشرتهـن الباهـت، شـعرهن الكثيـف الممـوج أحيانًـا، وكالحريـر أحيانًـا أخـرى، الإفريقيـات أو الحبشـيات كمـا يطلقـون عليهـن، ببشرتهـن الأبنوسـية وأسـنانهن البيضـاء الـتي تـكاد تنـير في ظـلام الليـل، الشركسـيات بشـعرهن الملتهـب وغطرتسـهن الـتي لا تُحتمـل، حـتى البدويـات الـلائي سـكنَّ عـلى أطـراف المحروسـة، بقذارتهـن ورائحتهـن الـتي لا تختلـف عـن

رائحة خرافهن وعنزاتهن، لا يعرف إن كان ما يفعله احتياجًا وإشباعًا لرغباته الحسية، أو مجرد طريق يهرب إليه بعيدًا عن حياته، لم يكن حاله مفضوحًا لأصدقائه، أو لأمه أو للسيدة رقُية، فكل هذا كان في الخفاء، فلم يلوث الأثر الطيب الذي تركه والده.

ظل على هذا الحال سنوات عدة حتى تجاوز الثالثة والعشرين، ثم أصابه فتور مفاجئ عن النساء، عزف عنهن وابتعد حتى عن بيوت بغائهن، ابتعد عن ليلى أقربهن إلى قلبه، وتركها تنتظره ليالٍ طويلة مرات ومرات، تناديه همسًا من خلف شباك مشربيتها، أصابه ضيق وشعر بالاختناق من شوارع المحروسة، شيء ما قبض صدره وجعله يشعر بضيق مما يفعل، أشعره بغضب داخلي، بركان يكاد ينفجر بداخله، يلهب عقله الذي لا يعرف ماذا يريد، تخلص من السهر والخمر، أغرق أفكاره في عمله، لكن شعوره بهذا الشيء بداخله أنغص عليه حياته وفكره وأرق مضجعه، هناك شيء ما يريده، ينقصه، في احتياج شديد له، لكنه لا يعرفه، أو لم يدركه بعد، حتى لما عرضت عليه أمه أن يتزوج ويستقر، وينجب لها أحفادًا تَسعد بهم ويلعب معهم، لم يشعر أن هذا هو ما ينقصه، فكر في الرحيل عن المحروسة والابتعاد عن أهله وأصدقائه والشوارع التي عاش فيها لفترة من الوقت، كان ذلك في الفترة التي قرر فيها الوالي محمد علي أن يُسَيِّر حملة إلى جزيرة العرب، للقتال والقضاء على الوهابيين، بعد تخلصه من المماليك، فكر كثيرًا ثم قرر أن يبتعد عن شوارع المحروسة ويرحل، حاولت أمه والسيدة رقُية أن يثنياه عم يفكر فيه، لكنهما لم ينجحا، لم ير دموع ليلى تنزف من عينيها كالمطر على وجنتيها وهي تتابعه في الخفاء من خلف مشربيتها يخرج من بيته ويبتعد، غادر القطر المصري في أولى حملاتهم على جزيرة العرب في أرض الحجاز.

- ٩ -

لـم يختلـف محمـد عـلي عـن سـابقيه في فـرض الضرائـب، بـل ربمـا كان أجشـع منهـم في فرضهـا، فالخزائـن خاويـة عـلى عروشـها، وأحلامـة أكـبر مـن أن يقيدهـا نقـص المـال وفقـر الدولـة؛ لذلـك قـرر محمـد عـلي بمعاونـة موظفيـه وعـلى رأسـهم المعلـم غـالي، بفـرض ضرائـب جديـدة، كفرضـة ضريبـة المـيري عـلى أطيـان الأوسـية والأراضي الموقوفـة، المرصـد ريعُهـا للـصرف عـلى المسـاجد والسُّـبل، كمـا أمـر الكشـاف - حـكام الأقاليـم - بالاسـتيلاء عـلى تلـك الأطيـان إذا لـم يقـدم أصحابهـا حجـج إنشـاء الوقـف، فقـد أُبلـغ الـوالي مـن خـلال موظفيـه أن الكثـير من تلـك الأطيـان الموقوفـة قـد تقـادم العهـد عليهـا، كمـا قـررت الحكومـة فـرض ضريبـة التمغـة عـلى المنسـوجات والمصوغـات والأواني، وإلـزام جميـع الملتزمـين بـأن يـؤدوا للحكومـة نصـف الصـافي مـن إيرادهـم مـن الأطيـان الداخلـة في التزامهـم، تـبرَّم النُّظـار والمسـتحقون والملتزمـون مـن تلـك الضرائـب وأبـدوا اعتراضهـم، ولـم يجـدوا مـن ينصـت لهـم، فلجـأوا للشـيوخ ونقيـب الأشراف بالشـكوى، فكانـت سـببًا لبدايـة وقـوع الخـلاف بـين محمـد عـلي والسـيد عمـر مكـرم.

امتنـع الشـيوخ عـن لقـاء الـوالي وأصروا عـلى ذلـك مكتفـين بالعرضحـال الـذي يحتـوي عـلى مطالبهـم لسـكرتير الـوالي ديـوان أفنـدي الـذي أرسـله الـوالي للقائهـم، فمـا كان ردهـم إلا بقولهـم:

- لقـد بايعنـاه عـلى العـدل لا الظلـم والفجـور، ولـن نقابلـه إلا بعـد امتناعـه عـن إحـداث البـدع والمظالـم بالنـاس.

مـرت أربعـة أيـام بعـد لقائهـم مـع سـكرتير الـوالي ولـم يصلهـم جـواب أو رد، اسـتغل محمـد عـلي تلـك الأيـام في اسـتمالة بعـض الشـيوخ، فـكان أثـره أن اتفـق الشـيخ محمـد المهـدي والشـيخ الداوخـلي

ومحمـد أفنـدي طبـل ناظـر المهمـات، عـلى أن يذهـب الشـيخان إلى عمـر مكـرم يدافعـان عـن محمـد عـلي ويبرئانـه مما وجـه إليـه مـن تهـم الظلـم والفجـور، فذهبـا وأنكـرا أمـام السـيد عمـر مكـرم أنـه طلـب مـال الأوقـاف والأوسـية، اسـتغرب السـيد عمـر مكـرم مـن قولهـم وطريقتهـم المتعصبـة لمحمـد عـلي وأسـلوبهم في الحديـث معـه، فـرد عـلى قولهـم بالحجـة وأخـرج لهـم أوراق المباشريـن الـتي تحتـوي عـلى طلـب الضريبـة ونصـف فائـض الأوسـية والأوقـاف، وأعلمهـم باسـتمراره عـلى رفضـه الذهـاب للقائـه، إلا إذا عـدل عـن قرارتـه.

ولـم يتراجـع عـن كلامـه حـتى بعـد لقائـه بعبـدالله بكتـاش ترجمـان الـوالي..

بعدهـا ذهـب الشـيخان المهـدي والدواخـلي الـذي تكلـم أيضًـا باسـم الشـيخ الشرقـاوي للقـاء الـوالي، يطمئنـوه عـلى وضعـه إذا تمـرد عليـه السـيد النقيـب، وأنـه لـن يقـدر عـلى شيء مـا دام تخـلى عنهـم وتخلـوا عنـه، فحدثهـم محمـد عـلي غاضبًـا في كلامـه مـن عمـر مكـرم أنـه يعانـده ويُبطـل أحكامـه بـين النـاس، ويهـدده بقيـام الجمهـور عليـه بأمـر منـه، خـرج الشـيخان مـن عنـد الـوالي بعـد أن اتفقـا عـلى توحيـد جبهتهـم ضـد نقيـب الأشراف، ثـم عـاودا زيارتـه مـرة أخـرى يحذرانـه مـن غضبـة الـوالي وتوعـده بقمـع حركـة الشـيوخ ضـده بالسـيف، ليدخـلا الرهبـة في نفسـه فيتراجـع عـن قرارتـه، لكنـه جاوبهـم بقولـه:

- لا أردكـم ولا أقبـل شـفاعتكم، ولـن تخوفـوني باجتماعكـم، فأنـا لا أفـزع مـن ذلـك.

استـمرت الجفـوة بـين الـوالي والنقيـب، وزادت بعـد رفـض السـيد عمـر مكـرم التوقيـع عـلى بيـان حـرره محمـد عـلي للدولـة العثمانيـة يذكـر فيـه مـا أنفقـه في مـصر مـن الخـراج، بـل أظهـر الشـك في محتوياتـه وقـال أمـام جالسـيه:

- أمـا الـذي جمعـه وجبـاه مـن البـلاد يزيـد عـلى مـا صرفـه أضعافًـا

كثيرة، وإن وجد من يحاسبه على ما أخذه من المظالم لما وسعته الدفاتر.

غضب محمد علي في شدة لاتهامه بتلك التهم، وأرسل في طلب مقابلته، لكنه استمر على رفضه، وبعد إلحاح من الشيوخ وافق أن يلاقيه في بيت الشيخ السادات، فزاد غضب محمد علي لما بلغه الرد وقال:

- هل بلغ له أن يزدريني ويأمرني بالنزول من مقر حكمي لملاقاته في بيوت الناس.

لحظتها قرر أن لحظة إقصاء السيد عمر مكرم من أمامه، قد آنت، نزل بعد يومين إلى بيت ابنه إبراهيم باشا بالأزبكية، وأرسل في طلب القاضي والمشايخ، وأرسل رسولًا من طرفه وكلف القاضي أن يرسل رسولًا من طرفه أيضًا لدعوة السيد عمر مكرم، فرفض متعللًا بمرض أصابه، فأمر محمد علي في حينه بحضور القاضي والشيوخ وعزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف، وعزم على نفيه من القاهرة إلى دمياط، وأمهله ثلاثة أيام للاستعداد لمغادرة المحروسة، ورفض شفاعة بعض الشيوخ بتغيير وجهة النفي إلى أسيوط مسقط رأسه، ثم خلع على السيد محمد السادات خلعة نقابة الأشراف، قابل السيد عمر مكرم الأمر بقوة وشجاعة وهو يقول:

- أما منصب النقابة فإني زاهد عنه، وليس فيه إلا التعب، وأما النفي فهو غاية مطلبي.

حاول أن يختار مكان نفيه والذهاب إلى الطور أو درنة، لكن الوالي قابل طلبه بالرفض، وأصر على قراره بالنفي إلى دمياط.

اجتمع كثير من عامة الناس في أول شهر رجب لوداع السيد عمر مكرم، علا وجوههم الحزن وسالت الدموع من الأعين لفراقه، فقد كان الرجل ملاذهم وملجأهم الأخير في رفع المظالم عنهم، غادر الرجل إلى منفاه في صحبة محمد كتخدا الألفي الذي كُلف بمصاحبته

إلى منفاه، وسط تشييع المئات الكثيرة من المتعممين وغيرهم في فورة بكاء ونحيب، حزنًا على فراقه.

شعر محمد علي بالنصر وتفرده بعرش الولاية بعد تخلصه من كبير زعماء الشعب، وأنعم على الشيخ السادات بما لم يتورع هو بنفسه عن طلبه نظير تخليه عن السيد عمر مكرم من نظر أوقاف الإمام الشافعي، ونظر وقف سنان باشا ببولاق، وما كان منكسرًا من راتبه مدة أربع سنوات مضت.

بقي السيد عمر مكرم في منفاه * تحت المراقبة أربع سنوات، إلى أن تَشَفَّع له قاضي قضاة مصر صديق أفندي لدى محمد علي باشا، فأذن له بالانتقال إلى طنطا، وبقي هناك سبع سنوات لم يخرج منها، إلا بعد أن طلب الإذن بالحج، فتلطف معه محمد علي تكريمًا للرجل ولخدماته معه من قبل، فوافق على خروجه للحج، ودعاه للعودة إلى القاهرة ليبقى في داره إلى أوان الحج، وقال يومها محمد علي لجلسائه:

- أنا لم أتركه في الغربة إلا خوفًا من الفتنة، والآن لم يبق شيء من ذلك، وبيني وبينه ما لا أنساه من المحبة والمعروف.

وبعث إليه بكتاب يُعلمه فيه بإجابة طلبه:

«مظهر الشمائل سنيها، حميد الشئون وسميها، سلالة بيت المجد الأكرم، والدنا السيد عمر مكرم، دام شأنه.

أما بعد..

فقد ورد الكتاب اللطيف، من الجناب الشريف، تهنئة بما أنعم

*تم نفي السيد عمر مكرم مرة أخرى عام ١٨٢٢ بالرغم من شيخوخته، واستمراره في اعتكافه إلى طنطا، بعد أن هاج العامة ضد فرض ضريبة جديدة على منازل القاهرة بعد فرضها على منازل البنادر في الأقاليم، وتوفي في نفس العام.

الله علينا، وفرحًا بمواهب تأييده لنا، فكان لذلك مزيدٌ في السرور، ومستديم لحمد الشكور، ومجبة لثناكم، وإعلانٌ بنيل مناكم، جزيتم حسن الثناء، مع كمال الوقار ونيل المنى، هذا وقد بلغَّنا نجلكم عن طلبكم الإذن في الحج إلى البيت الحرام، وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام، للرغبة في ذلك، والترجي لما هنالك، وقد أذناكم في هذا المرام، تقربًا لذي الجلال والإكرام، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام، فلا تدعوا الابتهال، ولا الدعاء لنا بالقال والحال، كما هو الظن في الطاهرين، والمأمول من الأصفياء المقبولين، والواصل لكم جواب منا خطاب إلى كتخدائنا، ولكم الإجلال والاحترام، مع جزيل الثناء والسلام».

لم تتأثر مكانة السيد عمر مكرم بطول بعاده، فقد قابله الناس وازدحموا أيامًا في داره، وهنأه الشعراء بقصائدهم حتى امتنع عن الجلوس في المجلس العام نهارًا، واعتكف بحجرته الخاصة، في بيته بمصر القديمة بساحل أثر النبي، حتى لا تؤخذ عليه هذه الاحتفالات.

- ١٠ -

بعـد أن استقرت الأمـور نسـبيًا داخـل البـلاد، شرع الـوالي عـلى الفـور في تجهـيز الحملـة الـتي مـا زال البـاب العـالي يلـح في إرسـالها إلى جزيـرة العـرب لمحاربـة الوهابيـين الخارجـين عـلى البـاب العـالي، وجـد محمـد عـلي أن نقـل المشـاة والمهمـات بحـرًا إلى جزيرة العرب، يسـتوجب إنشـاء عمـارة بحريـة مـن السـفن، فعـزم عـلى إنشـاء أول أسـطول مـصري لنقـل الحملـة، أحـضر الأخشـاب والمـواد اللازمـة لإنشـاء الأسـطول الـتي تنقصـه مـن شـتى أنحـاء مـصر، فأرسـل أوامـره لقطـع أشـجار التـوت والنبـق مـن الوجهـين القبـلي والبحـري، واسـتجلب الأخشـاب المجاويـة الـتي تنقصـه مـن الأناضـول، بـدأ في إنشـاء السـفن في ترسـانة بـولاق، وجمـع كل مـن اسـتطاع جمعهـم مـن صنـاع المراكـب المهـرة، تابـع العمـل وأشرف عليـه بنفسـه، الخشـب يقطـع ويُفصـل قطعـة قطعـة وترقـم كل قطعـة برقـم معـين، وتنقـل عـلى ظهـور الجمـال إلى السـويس لتركـب هنـاك، اسـتخدم مـا يقـرب مـن ثمانيـة عـشر ألـفٍ مـن الجمـال طـوال عـشرة أشـهر، حـتى اكتمـل إنشـاء ثمانيـة عـشر مركبًـا كبـيرًا تسـع أكـثر مـا أُعـد للحملـة، بـاشر محمـد عـلي ترحيـل الحملـة ومهماتهـا مـن السـويس، في أحـد الأيـام اقـترب منـه أحـد ضباطـه يخـبره أن بصاصيصـه وأعوانـه، أتـوه بخـبر عـن مكيـدة تدبـر لـه لمهاجمتـه أثنـاء عودتـه إلى القاهـرة، وأن بعـض المماليـك حـضروا مـن الصعيـد عـلى أطـراف البـلاد القريبـة مـن المحروسـة، تحـرك الـوالي في لحظتهـا عـلى هجـين مـن أسرع الهجـن لديـه، وقطـع المسـافة عائـدًا إلى المحروسـة في ثمانيـة عـشر سـاعة، لـم يسـتطع أن يلحـق بـه أحـد مـن حرسـه، إلا سائسـه الـذي تعلـق بلجـام الهجـين وظـل يجـري خلفـه حـتى وقـع ميتًـا، لـم يُبـد محمـد عـلي أنـه اطلـع عـلى المكيـدة المدبـرة، لكـن المماليـك تراجعـوا عمـا دبـروه، بيـد

أن أحدهـم أطلـق متخفيًـا ناحيـة الـوالي طلقـة ناريـة وهـو يجتـاز أحـد شـوارع المحروسـة، فاخترقـت ملابسـه وأردت ضابطًـا بجـواره، اضطربـت صفـوف مـن حولـه وهـرول البعـض خائفًـا أن تصيبـه طلقـة طائشـة كالـتي أصابـت الضابـط، لكـن محمـد عـلي كان ثابـت الجـأش لـم يتزعـزع، بـل طلـب مـن معـه التكتـم عـلى مـا حـدث، وبـد أ في الإعـداد لحشـد الجنـود عنـد شـبرا.

أحـس جاهـين بـك بالخطـر وغـادر مقـره في الجـيزة بعـد أن أتلـف أثـاث بيتـه وممتلكاتـه الـتي لـم يقـدر عـلى حملهـا معـه، وانضـم إلى رفاقـه العائديـن مـن الصعيـد اسـتعدادًا للحـرب.

تحـرك محمـد عـلي في اتجـاه جنـود أمـراء المماليـك بقواتـه، وأوقـع بهـم الهزيمـة عنـد جـسر اللاهـون، بعـد انهزمـت القـوات الـتي أرسـلها قبـل ذلـك أمامهـم، ثـم عـاد بعـد ملاقـاة النـصر إلى القاهـرة، ليتمـم تجهـيزات الحملـة عـلى الوهابيـين، وجـد في انتظـاره بالمحروسـة بـاش أغـاي الـسراي السـلطانية قـد حـضر إليـه بسـيف وخنجـر مـن الأسـتانة، وبرتبـة الباشـوية وطوخـين إلى طوسـن ابنـه المعقـود لـه لـواء تلـك الحملـة، مـع بعـض التعليمـات بخصـوص الحملـة، قُرئـت المرسـومات السـلطانية عـلى العامـة في العلـن، ثـم ً اصـدرت الأوامـر بجمـع كل المـؤن اللازمـة، وإرسـالها إلى السـويس، واحتشـدت العسـاكر المؤلفـة للحملـة في قبـة العـزب.

أصـدر محمـد عـلي باشـا الأمـر إلى رؤسـاء جنـده بمطـاردة الفاريـن حـتى يجلوهـم عـن القطـر المـصري، فاتبعـوا أوامـره وطـاردوا كل مـن لـم يشـأ المصالحـة مـن الأمـراء حـتى أجبروهـم عـلى اجتيـاز الشـلالات الأولى ودخـول بـلاد النوبـة، وأمـا مـن شـاء المصالحـة مـن الأمـراء وعـلى رأسـهم جاهـين بـك، عـاد إلى القاهـرة، اسـتقبل محمـد عـلي العائديـن فاتحًـا لهـم سـاعديه، وأقامـوا في المنـازل الفخمـة الـتي خصصهـا لهـم.

بعـد اكتمـال الاسـتعداد للحملـة المتجهـة إلى جزيـرة العـرب، أعلـن

الباشا عن نيته في إقامة مهرجان في القلعة للاحتفال بخروجها وتوديعها، وإلباس طوسون باشا فروة الإمارة عليها، فأرسل دعوة الحضور إلى جميع أرباب الوظائف المدنية والعسكرية، ودعا أمراء المماليك للحضور مرتدين ملابس التشريفة الكبرى.

فلما كان صباح يوم الجمعة المزعوم الاحتفال فيه، اليوم الأول من مارس لعام ١٨١١، احتشدت العامة في كل الطرق المؤدية إلى القلعة، منذ بزوغ الشمس لمشاهدة مواكب العساكر والضباط العثمانية والألبانية، والطبول والرايات، ورؤية موكب أمراء المماليك الفخم، السائرين بجيادهم في خيلاء وزهو، مرتدين زي التشريفة الكامل، معلقين أسلحتهم المصنوعة من الذهب والفضة في أحزمتهم تلمع في بريق ولمعان يخطف الأبصار، أربعمائة وسبعين من المماليك مهندمين في أجمل وأبهج ملابسهم دخلوا من باب العزب، باب القلعة من جهة الغرب وانغلق الباب من خلفهم، استقبلهم الباشا الوالي ببشاشته الخادعة واحتفى بهم، أكرم كبار أمرائهم جاهين بك كبير المماليك الألفية، ويحيى بك، ونعمان بك، وحسين بك الصغير، ومصطفى بك الصغير، ومراد بك، وعلي بك، وهم من الأمراء الألفية، ومن غيرهم أحمد بك الكيلارجي، ويوسف بك أبي دياب، وحسن بك صالح، ومرزوق بك ابن إبراهيم بك الكبير، وسليمان بك البواب، وتابعه أحمد بك، ورشوان بك، وإبراهيم بك، وقاسم بك تابع مراد بك الكبير، وسليم بك الدمرجي، ورستم بك الشرقاوي، ومصطفى بك أيوب، ومصطفى بك تابع عثمان بك حسن، وعثمان بك إبراهيم، وذي الفقار تابع جوهر، ومن الكشاف -الحكام - علي كاشف الخازندار، ورشوان كاشف، وسليم الكاشف، وفايد الكاشف، وجعفر كاشف، وعثمان كاشف، ومحمد كاشف، وأحمد كاشف الفلاح، وأحمد كاشف صهر محمد أغا، وخليل كاشف، وعلي كاشف قيطاس، وأحمد كاشف، وموسى كاشف، وأمر بنفسه بتقديم القهوة إليهم ووقف جوار من يقدمها، فازدادوا بهجة وسرورًا، لما

استقر المدعوين في أماكنهم واصطفت فيالق العسكر في مواضعها، أذن مؤذن بموعد الرحيل، قرعت الطبول وصدحت الموسيقى، نهض الوالي ودعا أكابر المماليك لامتطاء جيادهم والوقوف بها على رأس فيلقهم، ففعلوا بعد أن بادلوه عبارات التحية والسلام.

انتهى الاحتفال، وتقدم المسيرة من بقي من الدلاة يقودهم الضابط أوظون علي، يتبعهم والي الشرطة، والأغا المحافظ، والمحتسب، يليهم الوجاقلية، ثم مجموعة من الأرناؤوط يقودهم صالح أغا أق قوش ثم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب، من بعدهم بقية الجنود الأرناؤوط فرسانًا ومشاة، خلفهم سار الألبانيون، يليهم المشاة يقودهم كتخدا محمد علي بنفسه، وفي أثرهم كبار المدعوين من أرباب المناصب.

ساروا جميعًا خارجين من باب العزب، ولما خرج آخر انكشاري من باب العزب، كان الأربعمائة وسبعون مملوكًا يشغلون المنحدر كله بجيادهم من أسفله إلى أعلاه، ارتفع صوت صالح أغا أق قوش يأمر بإقفال الباب، انغلق باب العزب فجأة أمام المماليك، في نفس اللحظة الذي أطلق صالح أغا أق قوش أمره إلى ألبانييه، للتسلل من وراء المماليك وتسلق الصخور المحيطة بالمنحدر وإطلاق الرصاص عليهم، مع بدء تقدم الفيلق الذي يقوده الكتخدا منتشرًا على الأسوار، لم تمض لحظات حتى دوى صوت طلقة من إحدى النوافذ، بدا وكأنها إشارة البدء، فلم يكد صوت دويها يخبو، حتى انهال الرصاص على المماليك من كل حدب وصوب، وهم محاصرون على المنحدر، من أعلاهم وعن يمينهم وشمالهم بالجنوط الأرناؤوط، يقتنصونهم برصاص بنادقهم الغادرة، لم يكن لدى أي أحد من المماليك فرصة ليدافع عن نفسة، أو مكان يلجأ إليه أو يختبئ خلفه من سيل الرصاص المنهمر عليهم من كل حدب وصوب، لا مكان يتراجعوا إليه، ولا سبيل لديهم للتقدم، حتى بنادقهم حضروا من

دونهـا، وليـس معهـم غـير سـيوفهم، الـتي لـم تكـن لتجـدي في هـذا الموقـف، شـاهد أمـين بـك وهـو في مؤخـرة الصفـوف الرصـاص ينهـال عـلى زملائـه، تراجـع ونجـح في الصعـود وهـو عـلى صهـوة جـواده، إلى المكان الـذي يـشرف عـلى الطريـق، ووصـل إلى سـور القلعـة، لـم يجـد أمامـه مفـرًّا إلا بالقفـز مـع حصانـه مـن فـوق سـور القلعـة إلى خارجهـا، مـن عـلى ارتفـاع تسـعة عـشر مـترًا تقريبًـا، بعـد أن رأى ملـك المـوت يحلـق فـوق الـرؤوس يحصـد بمنجلـه أرواح زملائـة مـن المماليـك، وهـي تـصرخ مسـتغيثة، لا تجـد مـن يغيثهـا، لكـز جـواده وقفـز بـه مـن علٍ مترديًـا، ثـم قفـز مـن عـلى صهوتـه لمـا اقـترب مـن الأرض، سـقط الجـواد متهشـمًا مـن قـوة السـقطة، ونجـا أمـين بـك لكنـه سـقط مغشـيًّا عليـه.

في الداخـل جلـس محمـد عـلي مـع أمنائـة الثلاثـة، في صمـت وجـل، يعلـو ملامحـه الاضطـراب والقلـق، تـكاد فرائصـه ترتعـش مـن هـول مـا يصلـه مـن صراخ رعـب وألـم وعـذاب يخـترق الجـدران وينفـذ إلى أُذنيـه، يسـمع دوي الرصـاص وأصـوات الألـم الممزوجـة بتوسـلات الرحمـة، وطلـب الاسـتغاثة وهـو صامـت لا ينطـق يهـز ركبتـه اليمـنى في توتـر.

المماليـك الذيـن كانـوا في الصفـوف الأولى سـقطوا مقتلويـن غـرق في دمائهـم، وترجـل الباقـون عـن ظهـور جيادهـم، خلعـوا مـا كان عليهـم مـن ملابـس ثمينـة وفـراوى ليسـهل عليهـم الفـرار، حـث جاهـين بـك أحمـد بـك الكيلارجـي، ومـرزوق بـن إبراهيـم بـك، مـع بعـض مـن رفاقهـم عـلى تسـلق الصخـر هربًـا مـن ذلـك المنحـدر الـذي أصبـح كالحفـرة الـتي سـقطوا فيهـا، لكـن الرصـاص كان يقتنصهـم أينمـا حاولـوا الهـرب، تمكـن جاهـين بـك مـع رفيقيـه ومـن معهـم أن يتسـلقوا الصخـر حـتى وصلـوا إلى عتبـة قـصر صـلاح الديـن، فقابلهـم الجنـود الأرنـاؤوط برصاصهـم، اجتـاز سـليمان بـك البـواب الطريـق وجسـمه يـنزف مـن أكـثر مـن موضـع، بعـد أن شـاهد سـقوط تابعـه أحمـد بـك، ورشـوان بـك، وقاسـم بـك تابـع مـراد بـك الكبـير قتـلى، ووصـل إلى سراي الحريـم،

واستغاث بالنساء الموجودة صارخًا في هلع ورعب من هول الموقف المحيط به: «في عرض الحريم»، لكن جملته لم تشفع له ولم يرحمه الجنود الذين أطاحوا برأسه وفصلوها عن جسده، وألقوا جثته بعيدًا عن سرايا الحريم، وصل البعض الآخر من المماليك مع يحيى بك، ونعمان بك، وحسين بك الصغير، ومصطفى بك الصغير، حيث كان يقف طوسن باشا، فألقوا بأنفسهم على قدميه طالبين شفاعته ورحمته، راجين الأمان من القتل والغدر بهم، لكنه وقف كالصنم لا يستجيب، وأدار فيهم الجنود القتل طعنًا وبترًا، تكدست جثث المماليك القتلى فوق بعضها، حتى بلغ ارتفاعها عدة أمتار في أماكن عدة، لم يتوقف الجنود عن القتل إلا بعد سفك دم آخر مملوك أمامهم ما زال ينبض قلبه بنبض الحياة، ومن لم يدركه الموت رميًا بالرصاص، ممن كان تحت الجثث أو نجح في الابتعاد عن مرمى النيران وهرب مبتعدًا أو حتى أصيب بالطلقات لكنه ما زال يتنفس، ضُرب بالسيوف طعنًا وأطيح برؤوس بعضهم، حتى امتلأت ساحة القلعة بالجثث.

في الخارج وقف الناس محتشدون ينتظرون رؤية خروج الموكب، مرت بينهم المجموعة التي كانت في الطليعة، ثم انقطعت بقية الصفوف، سرى التساؤل بينهم لا أحد يخطر على باله السبب الحقيقي لانقطاع صفوف الموكب، لكنهم ما لبثوا أن سمعوا صوت إطلاق الرصاص وارتفاع أصوات الصريخ من داخل أسوار القلعة، بعد غلق باب العزب، هرول الجمع يفرون إلى بيوتهم وانتشر الخبر بين الناس كالنار في الهشيم، وأغلق الناس دكاكينهم وحوانيتهم وهرعوا إلى منازلهم حتى خلت الشوارع من الناس ومن المارة، أعقبهم جماعات من الجنود الأرناؤوط نزلوا إلى المدينة قاصدين بيوت المماليك الذين تخلفوا عن الاحتفال ونجوا من مذبحة القلعة، اقتحموا بيوتهم وفتكوا بهم، غرسوا نصال سيوفهم في أجسادهم وأطاروا رقابهم ورقاب من حاول الدفاع عنهم، ومنهم من اغتصب نساءهم وعمد

البعـض إلى سرقـة مـا يجـدوه مـن أمـوال وحـلي ومجوهـرات، ومنهـم مـن جـن وزاد جموحـه فهجـم عـلى بيـوت العامـة مـن النـاس ونهبوهـا وقتلـوا مـن فيهـا، استمر القتـل والنهـب في المدينـة حـتى صبيحـة اليـوم التـالي، فاضطـر محمـد عـلي للنزول مـع رؤسـاء جنـده وحاشـيته، لإنهـاء مـا يحـدث مـن سـلب ونهـب وقتـل، وأمـر بقطـع رؤوس مـن اسـتمروا في النهـب، والسرقـة، وتجـاوزوا أوامرهـم بالهجـوم عـلى بيـوت العامـة، ثـم أرسـل محمـد عـلي أوامـره إلى حـكام المديريـات بقتـل كل مـن يعـثرون عليـه مـن المماليـك في مديرياتهـم، أُغتيـل مـن أمـراء المماليـك في تلـك الليلـة ألـف رجـل في جميـع أنحـاء القاهـرة المحروسـة، وألـف آخـرون في الأيـام التاليـة في أنحـاء القطـر كلـه، ولـم ينـج منهـم إلا العـدد الضئيـل الـذي لـم يطمـئن لصفـاء نيـة محمـد عـلي للمصالحـة ممـن بقـي مـع إبراهيـم بـك الكبـير، وعثمـان بـك حسـن، اللذيـن لمـا بلغهمـا خـبر المذبحـة، فـرَّا إلى إقليـم النوبـة ودنقلـة، وأمـين بـك الـذي قفـز بحصانـه مـن أعـلى سـور القلعـة، ورآه بعـض البـدو وهـو يقفـز، فأسرعـوا إليـه، وانبهـروا بمـا كان يرتديـه مـن ملابـس وزينـة، فسرقـوا سـلاحه ونقـوده وكل مـا كان يحملـه، ثـم طعنـوه بسـيوفهم وفـروا هاربـين، أصيـب في عنقـه إصابـة بالغـة، لكنـه لـم يمـت، أنقـذه بعـض المارـين، وقامـوا بعلاجـه بعـد أن أخفـوه عـن الأعـين حـتى شُـفي واسـتطاع الهـرب إلى سـوريا ومـن هنـاك لجـأ للأسـتانة وعمـل في خدمـة السـلطان.

أغرقـت دمـاء القتـلى المـكان، واندفعـت إلى الطريـق المجـاور لبـاب العـزب حيـث لقـي المماليـك مصرعهـم، وعـلى الرغـم مـن أوامـر محمـد عـلي لجنـوده بغسـل الطريـق، إلا أن لـون أرضـه ظـل أحمـر مـن كـثرة الدمـاء الـتي التصقـت بـالأرض، فأطلـق عليـه النـاس منـذ ذلـك اليـوم اسـم: «الـدرب الأحمـر».

لـم يكـن أحـد يعلـم بأمـر تدبـير تلـك المذبحـة إلا حسـن باشـا قائـد الجنـود الأرنـاؤوط، والكتخـدا محمـد بـك لاظ أوغـلي صاحـب الفكـرة،

وصالح قـوش أحـد الضبـاط، وإبراهيـم أغـا حـارس البـاب، حـتى أمينـة هانـم زوجتـه لـم تكـن عـلى علـم، فلمـا علمـت بأمـر مـا حـدث مـن المجـزرة الـتي فعلهـا في المماليـك استبشـعت الفعلـة، وتشـاجرت معـه وعنفتـه وامتنعـت عنـه طـوال حياتهـا.

- ١١ -

انضم محمود إلى معسكر الحملة الموجود إلى جهة القبة القريبة من القاهرة؛ حيث يتم تجهيزها هناك، عُقِدَ لواءُ الحملة لأحمد باشا طوسن ابن الوالي محمد علي باشا، الذي رتب له حفلة لإلباسه زي القيادة، وانتقاله لمعسكر الحملة، وتخلص فيها من المماليك، تحرك على رأس موكب من القلعة إلى المعسكر بالقبة.

جُهزت الحملة بالرجال والعتاد فيما يقرب من ستة أشهر، حتى صارت على أهبة الاستعداد للرحيل، بعد أن بلغ تعداد رجالها ثمانية آلاف مقاتل، منهم ستة آلاف من المشاة، وألفان من الفرسان، الذين كان أغلبهم من البدو.

أغلب المشاركين في الحملة لم يكونوا على دراية بأسباب هذه الحملة، كل ما كانوا يعرفونه أنهم متجهين إلى جزيرة العرب وأرض الحجاز، فقد كانت تلك الحملة أول حملة يعدها الوالي محمد علي باشا ليحارب خارج البلاد منذ توليه السلطة، كان يصحب الحملة طائفة من الصناع من كل حرفة، السيد محمد المحروقي كان هو من تولَّى إدارة مهمات الحملة، وله في تجهيزها وإعدادها ورسم خططها شأنٌ كبير، فهو من كبار تجار المحروسة، حتى إن الباشا الوالي أوصى ولده الذي بالكاد أكمل عامه السابع عشر ألا يفعل شيئًا إلا بمشورته واطلاعه، ولا ينفذ أي أمر مهما كان إلا بعد مراجعة السيد محمد المحروقي، صَاحَبَ الحملة أربعةٌ من العلماء من أئمة المذاهب الأربعة، السيد أحمد الطحاوي الحنفي، والشيخ محمد المهدي الشافعي، والشيخ الخانكي المالكي، والشيخ المقدسي الحنبلي، بينما اعتذر السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد، والشيخ علي خفاجي الدمياطي.

تحركت الحملة حتى وصلت إلى ثغر السويس، باشر الوالي محمد علي باشا بنفسه على ترحيل الحملة ومهماتها من السويس حتى أقلعت السفن في الثلاثين من سبتمبر بالجنود المشاة إلى ينبع ميناء المدينة المنورة، احتلوا الميناء دون مقاومة تذكر من حامية وهابية لا يتجاوز عددها الثلاثمائة، فر قائدهم مع بعض رجاله، ووقع الباقون ما بين قتلى وأسرى، أمضى الجنود نهارهم ينصبون بعض الخيام، وقد غطتهم طبقة كثيفة من غبار الصحراء، فلم يكن بقية الجيش قد وصل بعد.

الفرسان وعلى رأسهم طوسون باشا اتخذوا البر عن طريق برزخ السويس فالعقبة حتى بلغوا ينبع، حيث التقوا بالمشاة، ومن هناك زحف الجيش في وحدة واحدة إلى وجهته زاحفًا على المدينة، في طريق الرحلة مع الفرسان إلى ينبع، تعرف محمود إلى رجل في مثل عمره تقريبًا، اسمه عبدالله قال إنه فلاح بن فلاح من إحدى القرى القريبة من الجيزة، قام الوالي بتجنيده إجباريًا وسُحب بالقوة للانضمام للجيش، فأصبح واحدًا من الجنود غير النظاميين أو ما كان يطلق عليهم باشبوزق، أخبره أن الوالي أمر بجلد أي شيخ قرية ٢٠٠ جلدة بالكرباج إذا ثبت أنه تواطأ لإخفاء مجندين من قريته، وإذا لم يبلغ عن المنسحبين في قريته خلال أربعة أيام، يتم صلبه وإعدامه، أما مأمور المركز الذي يثبت أنه يخفي أحدًا من قسمه يتلقى ١٠٠ ضربة بالفلقة على قدميه، بعدها يُرحَّل ويسجن مدى الحياة في أبي قير، كان أكبر إخواته، متعلمًا حافظًا للقرأن، تلقى تعليمه في الأزهر، ورغم أنه كان متفوقًا، لكنه لم يكمل تعليمه الأزهري، ليساعد والده في الفلاحة، وفي مصاريف البيت بعد أن مرض وضعف ولم يعد قادرًا على العمل كما كان، واسع الإدراك يتابع ما يحدث في المحروسة وفي البلاد، كان يأمل وهو صغيرٌ أن يكمل تعليمه، ويصير شيخًا كبيرًا كأحد الشيوخ الذين سمع وشب على حكاوى بطولاتهم أيام الحمله الفرنسية.

تحدث عبدالله معه أثناء سيرهم وسط الصحراء التي لا يبدو أن لها نهاية، والجبال تحيط بهم قائلًا:

- إن الوالي يريد أن يرسخ مكانته لدى العثمانيين، حتى لا يفكروا في عزله، بل إنه ربما يريد أن يفعل كما فعل علي بك الكبير من التخلص من سطوة الحكم العثماني عليه، فيستقل بمصر والمحروسة، ويستأثر بالبلد لحكمه، فعلي بك الكبير أيضًا ذهب بجيوشه إلى جزيرة العرب وفتحها وبسط نفوذ سلطانه على الحجاز، حتى إن شريف مكة لقبه بسلطان مصر وخاقان البحرين.

ضحك متهكمًا ثم تابع:

- كل حاكم يسعى لمجده الشخصي ومصلحته الخاصة، ألم ترى كمَّ الضرائب والإتاوات التي فرضها الوالي على الناس، والناس لا حول لهم ولا قوة، لا يقدر أحد منهم على الاعتراض؛ لأنه أخبرهم أنه سينفق المال على حرب مقدسة لاسترداد الحرمين الشريفين وتأمين سبيل الحج.

رد محمود متفهمًا:

- إذن الحرب لمصلحته وليست لنصرة الدين؟

هز رأسه أن نعم وهو يتابع:

- لقد قضى على المماليك في الداخل ويريد أن يبسط سلطانه على الخارج، ويبعد أيضًا الجنود الأرناؤوط وبقية الدلاة الذين زادوا في تمردهم وطغيانهم فيبعدهم إلى المناطق النائية من جزيرة العرب.

ساروا حتى وصلوا إلى بدر، وقبل الهجوم رفع طوسون باشا يده اليمنى للسماء، وهو على صهوة جواده، ونطق بأعلى صوته:

- «وإن جندنا لهم الغالبون».

فمال عبدالله على محمود هامسًا في سخرية:

- جند الله !!! وهل نحارب الكفار؟!!

نكزه محمود في كتفه محذرًا:

- اخفض صوتك حتى لا يسمعك أحدهم.

ظـل الباشـا الصغـير يُمعن النظـر في اسـتعدادات قواته، والاسـتحكامات الـتي اتخذوهـا، وبـدأ الجنـود غـير النظاميـون في التحـرك، حاملـين بنادقهـم، وبيارقهـم ترفـرف مـع قـوة ريـح الصحـراء، وعيونهـم تـكاد تمتـلئ بالرمـال السـاخنة، الـتي تمـلأ الهـواء مـن حولهـم، وتسـخن رئاتهـم، الفرسـان كانـوا في المؤخـرة بِطَـاءَ في انطلاقتهـم، اشـتبكوا مـع الوهابيـين في معركـة شـديدة، وارتفـع صـوت انطـلاق المدافـع، فأغمـض الباشـا الصغـير عينيـه، وأبقاهمـا مغمضتـين بضـع ثـوان، والطنـين يمـلأ رأسـه وشـعر بالـدوار للحظـات، ارتفعـت مـن حولـه صيحـات الهجـوم مـن الحناجـر، واندفـع المشـاة كنهـر كاسـح، انطلقـت الرصاصـات وسـالت الدمـاء، سُـحبت السـيوف والخناجـر، غرسـت في الأبـدان وجـزت الأعنـاق، اسـتمرت المعركـة مـا يقـرب مـن سـاعتين، وبـدا أن الهجـوم الـذي يـزداد عنفوانـه مـع كل لحظـه تمـضي، يحقـق أهدافـه، انتهـت المعركـة بالنـصر لجانبهـم وبسـيطرتهم عـلى بـدر، وارتـداد الوهابيـين إلى وادي الصفـراء حيـث تحصنـوا بهـا، وأقامـوا الاسـتحكامات والاسـتعدادات لملاقـاة الجيـش المـصري مـرة أخـرى.

أكمـل الجيـش طريقـه خلفهـم إلى وادي الصفـراء وهاجموهـم هنـاك، تراجـع الوهابيـون في مكيـدة دبروهـا واسـتعدوا لهـا، فوجـد الجُنـد المصريـون أنفسـهم قـد وصلـوا إلى طـرق ضيقـة يسـيطر عليهـا الوهابيـون مـن أعلاهـا، وفي المؤخـرة كان الباشـا عـلى أحـر مـن الجمـر لأن يسـمع صرخـة تعلـن انتصـاره، وارتفـاع ضجيـج المعركـة مـن حولـه يشـبه هزيـم الرعـد المتواصـل، انهالـت عليهـم القذائـف مـن عَـلٍ كالمطـر الحـارق، اضطربـت الصفـوف الأولى وانهزمـت، وانتـشر الذعـر في الصفـوف الـتي تليهـا، اختـل نظـام الحملـة وتشـت الجنـد تاركـين بنادقهـم ومدافعهـم وتراجعـوا مهزومـين قاصديـن السـاحل بعـد مـا

قُتل منهم ستمائة قتيل، وفقد معظمهم ذخيرته، وعادوا إلى ينبع في غير نظام، طاردهم الوهابيون في طريق عودتهم وقتلوا منهم بضعة آلاف فلم يبق من الجيش بعد أن رجع متقهقرًا إلى ينبع غير ثلاثة آلاف.

أصيب محمود بجرح في كتفه، وطعنة في فخذته، وتعرض عبدالله للجروح والسحجات، لكنه تحملها في بسالة وشجاعة وقوة، وحمل على كتفه محمود وساعده في الهروب معه من الوهابيين حتى وصلا إلى ينبع، ولولا ستر الله الذي حجب عن الوهابيين فكرة الهجوم على باقي الحملة بينبع، لقُضي على كل فرد فيها، فاكتفى الوهابيون بتحصين المدينة والمكوث فيها، بينما انتظر طوسون باشا في ظل تلك الغفلة المدد من مصر، بعد أن أرسل خبر الهزيمة إلى الوالي في مصر، محُملًا الهزيمة إلى تقصير القواد، فاستدعى محمد علي باشا البعض منهم للعودة، وعاد البعض من تلقاء نفسه، أقصاهم عن مراكزهم ونفاهم من مصر، وبدأ في تجهيز حملة جديدة وفرض ضرائب وإتاوات جديدة لم يتحملها الفلاحون، فأخذها منهم غلالًا ليمون منه الجيش.

وقف طوسون باشا يتابع الشمس الغاربة وجنوده المرهقة التي بالغها التعب، وطالها الإعياء، يرقدون تحت الخيام، يرجون الراحة والشفاء من الإصابات التي لحقت بهم، يساعد الصحيح منهم الجريح، رقد محمود على ظهره بعد أن افترش فرشة في إحدى الخيام، ساعده عبدالله على تنظيف جراحه وتضميدها، ثم خرج ليساعد جرحى آخرين، وفي الليل عاد وجلس جواره، يقرأ ما يحفظ من القرآن، لاحظ الرعشة التي أصابت جسد محمود وانكماشته تحت غطائه، فعلم أن الجرح الذي أصيب به، قد جلب عليه الحمى، بات ليلته جواره يضع له بعض القماش المبلل على جبينه، حتى بدت عليه علامات التعافي من الحمى بعد يومين، خرج يومها متعكزًا

على رفيقه ليرى الصحراء، وقد بدأت تغرق في ظلمة الليل رويدًا رويدًا، وخيام الجنود حولهم كركام من ضباب، والجنود الباقية من الحملة منهم من يرقد خارج خيمته، يتابع الفضاء ويتساءل ما الذي أتى به إلى هذه الأراضي البعيدة عن وطنه وديار أهله، كان يدرك إدراكًا يقينيًا أن الجنود وربما قائدي الحملة، يصبون اللعنات، ويأملون أن تأتي لهم الأوامر بالعودة، جلس جوار خيمته خائر القوى، وقد غلبه حنين فجائي لبيته ولأمه ولزوجة أبيه، وابتسم لما طاف بعقله ابتسامة ليلى ونظرة عينيها التي كان يرى الحب يضيئُها، سأل عبدالله الذي جلس إلى جواره:

- هل سنعيد الكرة من جديد؟

تنهد عبدالله وهو يداعب رمال الصحراء بأصابعه:

- علمت أن طوسون باشا أرسل في طلب المدد من الوالي، لن نستطيع الهجوم بتلك الأعداد القليلة الجريحة، المتبقية من الحملة، أتمنى ألا يهجموا هم علينا.

أمسك محمود برأسه وأغمض عينيه وهو يقول:

- رأسي يكاد ينفجر.

طال الصمت بينهما ثم سأل عبدالله:

- ما الذي أتى بك مع الحملة؟

نطق محمود وهو مغمض العينين، يسند رأسه إلى عامود مدخل الخيمة:

- أردت أن أبتعد عن حياتي قليلًا، كنت أشعر بفراغ من حولي، فكرت أن أبتعد عن أهلي وعن حياتي لفترة، لعلي أستعيد نفسي من جديد، سمعت بأمر المعسكر وتجهيز الحملة، فتوجهت هناك، أنا لا أعلم حتى مَن نحارب؟ ولم نحارب؟ لا أعرف سوى ما أخبرتني به في طريقنا إلى هنا.

أجاب عبدالله:

- عرفت من الشيوخ الذين أتوا معنا، أن هؤلاء القوم يُدعون بالوهابيين، نسبة إلى شيخ يتبعونه يدعى محمد بن عبدالوهاب، وأنهم يعدونهم من الخوارج، يقولون إنهم استولوا على نفائس الحرم النبوي وما فيه من جواهر لا تقدر بمال، قالوا إنها تملأ أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالماس والياقوت، وأربع شمعدانات من الزبرجد ويوجد بدلًا من الشمع قطعًا من ماس مستطيلة، يضيء نورها في الظلام، ونحو مائة سيف قراباتها ملبسة بالذهب الخالص المطعم بالماس والياقوت، ونصالها من الزبرجد والبشم، وسلاحها من الحديد الموصوف وعليها دمغات باسم الملوك والخلفاء، كما نهبوا مدينة الإمام الحسين عند الفرات بعد نهبهم المسجد الحرام.

فغر محمود فاه اندهاشًا وهو يقول متعجبًا:

- كل هذا؟!! إنهم لصوص.

تابع عبدالله:

- مع ذلك يدَّعون أنهم يدعُون إلى العودة لأصول الدين ويرفعون رايته، فقد أرسلوا إلى الباب العالي يخبروه أنهم هدموا القباب فوق القبور، وطالبوه بمنع مجيء المحمل من دمشق أو القاهرة لأنه ليس من الدين، وهم بالفعل قد منعوه من قبل من دخول مكة في صحبة الحجاج... يبدو أنهم متشددون ومغالون في دينهم، لدرجة أنهم منعوا الحجاج الذين لا يتبعون تعاليمهم من الحج.

في ينبع حاول طوسن باشا استمالة القبائل التي تعيش بين ينبع والمدينة بالمال وبالهدايا، فوزع الأموال والكساوى التي أرسلها الباشا الوالي على رجال القبائل، ولما وصل المدد بعد حين، كان محمود قد تعافى من جراحه، وتعافى بقيةُ الجند، فتحرك الجيش بعد أن انضم إليهم قبائل من عرب جهينة وحرب، فاستولوا على

الصفراء دون معركة تذكر بمساعدة الشريف غالب شريف مكة في أول أكتوبر ١٨١٢.

تابع الجيش بعدها السير حتى أسوار المدينة المنورة، لاقى الجنود الشدائد والأهوال في قطع المسافات البعيدة المترامية بين الفيافي والقفار، نالتهم المتاعب من وعورة الطرق، وشدة القيظ في الأرض والسماء، إلى قلة المؤن وندرة المياه، فاضطروا للسير ليلًا والراحة بالنهار، ظلوا في رحلتهم حتى المدينة ثلاثة أيام، حاصروها دون إطلاق أي قنابل، خوفًا من إصابة الحرم النبوي الشريف، لكنهم لغموا تحت سور المدينة لنسفه بعد أن أنذروا أهلها بأن يلزموا بيوتهم، فتح اللغم ثغرة في السور، في غضون ثواني من ذلك اندفع عدد من الجنود المصريين من الجانب الشمالي تجاه الثغرة الكبيرة التي فُتحت في السور، احتلوا المدينة وسيطروا عليها، بعد أن قتلوا من أدركوهم من بقايا الوهابيين الذين لم ينجحوا في الهروب، حمل طوسن مفاتيح المدينة بين يديه، ثم أرسلها إلى والده في المحروسة مع بعض الهجانة، والذي أطلق المدافع من القلعة احتفالًا بالبشرى وبالنصر، مارس بعض الجنود عادتهم المفضلة في قطع آذان قتلاهم وإرسالها للأستانة كعلامة على البسالة والقوة ولإعلان استهانتهم بالوهابيين.

بعد أن استتب الأمر بالجنود انطلق عبدالله واصطحب معه محمود إلى المسجد النبوي الشريف وأقدامهم متقرحة من طول المشى، وقفا أمام الروضة الشريفة، وألقيا السلام، ثم صمتا عن الكلام، لم يقدر أحدهم على النطق، أخذتهم الجلاله والرهبة من المكان الذي يقفا فيه، وهما يتخيلان أن جسد الرسول المصطفى على بُعد خطوتين أو ثلاثة منهم، مال عبدالله على محمود وقال هامسًا:

- نحن في الروضة التي قال عنها الرسول -صلى الله عليه وسلم: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي».

همس محمود في رهبة من المكان قائلًا:

- أحيانًا أشعر وكأننا نحيا في حلم سأستيقظ منه بعد حين.. أقف أمام القبر وأتخيله نافذة إلى عالم آخر، ربما لو دققت من خلالها لاجتزت الحجب واستطعت أن أرى منه بصيصًا يطفئ شغفي بمعرفة الجانب الآخر.. كيف هو الموت وماذا بعده.. وهل للموتى حياة؟! وكيف يحيونها؟!

لم يرد عبدالله وسرح بعينيه في الأعمدة حولهم المصنوعة من الحجر الأحمر بعضها من قطعة واحدة، مغطاة بطبقة من الرخام المزخرف والمزين بماء الذهب، عليها عقود تحمل أعلاها قبابًا، والأهلة المصنوعة من النحاس المطلي بالذهب تعلو القبة الخضراء ومآذن المسجد، أحدها على القبة وهلال على المنبر وخمسة أهلة لكل منار، باتوا أول لياليهم في الحرم النبوي الشريف بعدما صلوا ودعوا الله.

هبط الظلام على المدينة وقوات الجيش في حال مفعمة بالحيوية والابتهاج، جراء فتح المدينة وانتصارهم في المعركة دون قتال شديد أو جروح تذكر أو خسائر، أُضرمت النيران هنا وهناك بين الجنود، وغنى البعض منهم غناءًا كالإنشاد وبعض الابتهالات، وهم ملتفين ساهرين حول النيران، كان البدر قد ارتفع إلى كبد السماء، فجعل النيران المتوهجة تبدو خافتة.

راقب الأمير سعود بن عبد العزيز تطور القتال عن بُعد دون أن يحاول التورط في معركة تكون الهزيمة من نصيبه فيها، انتظر الأخبار من بصاصيه ودرس طرق الجيش المصري في الحرب، استعد لملاقاته حين يأتي الوقت الذي يراه مناسبًا، ولما حلت السنة الجديدة، كان الجيش المصري قد احتل جدة، وسار طوسون باشا منها على رأس جيشه إلى مكة واستُقبل فيها استقبال الفاتحين، ورغم إرهاق الجنود من الطريق، إلا أن هذا لم يمنع البعض منهم عن زيارة الكعبة،

كما لم يمنع البعض الآخر من متابعة نساء مكة بارعات الجمال، التي فاق حسنهن ما سمعوه، وتنشقوا رائحتهن العطرة من كثرة تطيبهن، حتى اللائي يقصدن الكعبة للطواف في كل ليلة جمعة، كن يأتين في أحسن زي متطيبات، فتغلب رائحة طيبهن على الحرم، مال محمود على عبدالله هامسًا وهو ينظر إلى عيني فتاة كحيلة مرت جواره، فخلبت لُبه:

- عينا المرأة وشعرها الطويل المسترسل أكثر الأشياء التي تخلب اللب، لكن عيني المرأة المستورتين بخمار تسلبان اللب أكثر مما يسلبه جسدها العاري.

نطق عبدالله وهو يجول بنظره حوله:

- لست خبيرًا في النساء، ولا أفهمهن إطلاقًا.

رد محمود باسمًا:

- ولا أحد يفهمهن، النساء لا يفهمن أنفسهن.

من مكة تحرك طوسون باشا من جديد ناحية الطائف ووضعها تحت سيطرته قبل أن يمر شهر على دخوله مكة.

حينها أدرك الأمير سعود أن الوقت المناسب قد حان، زحف الأمير بجيشين، أحدهما تحت إمرته، والآخر أمر ابنه فيصل بقيادته ناحية مكة والمدينة، بلغت الأخبار طوسون باشا فخرج لملاقاتهما، فأرسل مصطفى بك على رأس بعض القوات لمهاجمة فيصل في تربة، التي اتخذها معسكرًا له، وأحاطها بالخنادق فكانت صعبة الاقتحام، انقض الوهابيون عليهم تحت قيادة امرأة من نبلائهم تدعى غالية، وهي أرملة رجل من أغنياء «البقوم» -بنو عامر بن حوالة بن الهنوء بن الأزد- من سكان «تَربة» على مقربة من الطائف، من جهة نجد، بدأ إحساس الهزيمة يتسرب لقلب الجنود المصريين، فكان في وسع بعضهم أن يشعر بالموت نفسه يتحرك بينهم، يحمل منجله ويحصد أرواحهم في هدوء مخيف، ويقطف زهرة أعمارهم

بسكينٍ بـارد، أوقـع الوهابيـون بالجيـش المـصري الهزيمـة، وأجبروهـم عـلى الارتـداد إلى الطائـف بعـد أن تـرك مدافعـه وذخيرتـه.

في الليـل وسـط معسـكر الجيـش المـصري، ارتفـع صـوت العجـلات عـلى الرمـال، تحمـل مصابيـح مثبتـة عـلى جهاتهـا الخلفيـة، تلمـع كل منهـا بأضـواء متذبذبـة تمـزق نيـاط القلـوب، تثـير الشـجن والحـزن في النفـوس، خلـف العربـات مجموعـة مـن الجنـد، يحملـون المعـاول والمجـارف، في طريقهـم لحفـر القبـور ودفـن مـوتى المعركـة، نطـق أحـد الجنـود:

- يبـدو أن الأوامـر صـدرت بدفـن المـوتى، فيجـب أن يتـم الدفـن عـلى الفـور.

فرد عليه آخر:

- إكرام الميت دفنه.

ابتسم عبدالله متهكمًا:

- لا مـن أجـل إكرامـه، بـل حـتى لا تخـرج علينـا رائحـة المـوتى في الأيـام القادمـة.

كانـت الجثـث المكدسـة ينيرهـا ضـوء القمـر الشـاحب، انزلقـت إحـدى الجثـث وسـقطت عـلى الأرض، فتحـرك اثنـان عـلى مقربـة منهـا ليحملوها ويضعوهـا في الجـزء الخلفـي للعربـة، حفـروا ثـلاث حفـر مسـتطيلة طويلـة، ثـم أُلقيـت الجثـث في القـبر، حـتى امتـلأت الحفـر واحـدة تلـو الأخـرى، فيمـا شرع آخـرون في وضـع الـتراب عـلى القـبر الجماعـي، والـكل يقـف في صمـت مهيـب، يتمتمـون سرًّا بالدعـاء للمـوتى طالبـين الرحمـة لهـم، بعدمـا صلـوا عليهـم، ارتفـع صـوت أحدهـم يقـول:

- غطـوا القبـور جيـدًا حـتى لا تجـذب الـكلاب أو الذئـاب ووحـوش الصحـراء في الليـل، فتمـزق الجثـث.

همـس محمـود لنفسـه ونظراتـه واجمـة تتابـع جثـث قتـلى الحـرب

ودفنها:

- وهل بعد الموت.. موت؟!!

في ذلك الوقت هجم الأمير سعود بعشرين ألفٍ من الجند على الحناكية، التي كانت ترابط بها حامية مصرية تحت قيادة عثمان كاشف، ارتفعت أصوات الطلقات، وضربات المدافع من جديد، دافع الجنود المصريون في شراسة، طالت المعركة واحتد القتال وسالت الدماء أنهارًا، اقترب أحد الضباط على فرسه ووقف جوار عثمان كاشف قائلًا بصوت عالٍ في محاولة ليعلو صوته فوق ضجيج المعركة:

- لن تستطيع قواتنا الصمود أكثر في هذه المعركة، استمرارنا يعني انتحارنا والتضحية بأرواح جنودنا.

أدرك عثمان كاشف أنه لا فائدة من الاستمرار في المعركة فأمر بالانسحاب، ارتفعت أصوات الأبواق، واضطر للتسليم أمام الجموع الغفيرة المهاجمة، انسحبت الجنود المهزومة المنهكة تحت أشعة الشمس تحرقهم بحرارتها الشديدة، وشفاههم قد تشققت من العطش وقلة الماء، دماء المصريين القتلى مسكوبة على رمال الصحراء الصفراء، خضبتها بلونها الأحمر القاني، وجوههم يظهر عليها الإنهاك الشديد، البعض يساعد رفاقه المجروحين، والبعض يحمل رفيق سلاحه على كتفيه، احتل الوهابيون الحناكية، ثم ساروا منها ناحية المدينة.

انتشرت الأمراض في الجيش المصري، وأصيب الجند بالإعياء لشدة القيظ وقلة المؤن والماء، فكان يمر على الجند أحيانًا يومين أو ثلاثة دون طعام، وجو الصحراء كان أشبه بحرِّ جهنم، جفت حلوقهم وتشققت شفاههم، وفتكت بهم الأمراض وألمَّ بهم الضعف، ولم يكن هناك من أطباء لعلاج المرضى، أو حتى توفير وسائل للعلاج، فاعتصم طوسون باشا مع جيشه في مكة، وقرر الدفاع، وأرسل في

طلب المدد والمساعدة من مصر.

في الليل سمع محمود وعبدالله صرخة من إحدى الخيام المجاورة، فهبوا فزعين، وذهبوا لمصدر الصوت، ووجدوا جندًا، متجمعين حول مدخل إحدى الخيام، تساءل محمود عما حدث، فرد عليه أحدهم، أن أحد الجنود كان يشتكي من إصابة جوار عينيه في المعركة الأخيرة، ويبدو أنه قد فقد بصره وأصيب بالعمى؛ لأنه لم يلق علاجًا، دخل إلى الخيمة ووجد شابًّا يخفي عينيه بيديه، ويبكي، ورغم ذلك كان يقول شعرًا يندب فيه حظه ويتحسر على ما أصابه، تبادل النظر مع عبدالله وهو يهمس له:

- عجبًا يقول شعرًا وهو في حالته تلك ويبكي أيضًا.

فرد هامسًا:

- دعه يفرغ ما بداخله.

صمت قليلًا ثم قال:

- كان هناك شاعر ضرير قبل قرون في بلاد الإغريق القديمة، اسمه هوميروس.

سمعه الجندي المصاب الباكي، فحرك رأسه ناحيته وهو يقول:

- لم أسمع عنه من قبل، اسمي سعد ولا أعرف الشعر، لا أعرف إلا الأغاني التي كنا نتغنى بها، ونحن نمسك المناجل بين أصابعنا نحصد بها سنابل القمح، أخذونا من بيوتنا ومن أرضنا وجاءوا بنا هنا لنمسك المناجل ونحصد رؤوس بشرًا مثلنا وأُصاب أنا بالعمى، لعنهم الله جميعًا ولعن حروبهم.

وصلت الأخبار وأنباء ما حدث للمحروسة، طوح محمد علي باشا بالرسالة التي وصلته على طول ذراعه، وصرخ في حراسه:

- أحضروا لي غالي في الحين.

انطلق الحرس من حوله وأرسلوا من يطلب المعلم غالي أبو

طاقيـة للحضـور، حـضر مهـرولًا في عباءتـه السـوداء وعمامتـه الـتي مـن نفـس اللـون والـتي تشـبه القبـة، دخـل محييًـا الـوالي، الـذي نطـق بمجـرد دخولـه:

- نريد تجهيز حملة جيدة تذهب إلى أرض جزيرة العرب.

رد في خنوع وطاعة وهو يرد ملاطفًا:

- أمـرك يـا سـيدى، ولكـن النـاس مـا زالـوا يعانـون مـن الضرائـب الـتي فرضناهـا عليهـم مـن قبـل.

رد الوالي في صوت عالٍ:

- هـذا عملـك، أحـضر لي الأمـوال، إفـرض الإتـاوات وأحـضر لي الأمـوال الـتي أمرتـك أن تجمعهـا في أسرع وقـت، أمامـك بضعـة أيـام حـتى يتـم جمـع الجنـود الذيـن سـيذهبون للحـرب، سـأذهب بنفـسي إلى أرض المعركـة.

انـصرف المعلـم غـالي مهـرولًا وهـو يضـم عباءتـه بيديـه عـلى سـاقيه، ليدبـر أمـوره ويسـتعد لتنفيـذ مـا طُلـب منـه، وإلا حبسـه الباشـا الـوالي وعذبـه وأهانـه كمـا يفعـل في كل مـرة يغضـب عليـه، أو ربمـا نفـاه هـذه المـرة.

- ١٢ -

لم يكن محمد علي يفرق في تعاملاته مع المصريين بين المسلمين والمسيحيين، فقد تلاشت في عهده الفروق بين الأقباط والمسلمين، بل إن المسيحيين قد ازدهروا في عهده، وتبوأوا مراكز عليا، وبدأوا في أخذ حقوقهم إلى حد ما، فنجد أن محمد علي جعل بطرس أغا أرمانيوس مأمورًا لمركز وادي برديس الذي كان يشمل القسم الشمالي من مديرية قنا والجنوبي من مديرية جرجا، وجعل عيد فرج أغا ميخائيل حاكمًا لمركز دير نواس، وميخائيل أغا عبده للفشن ببني سويف، وتكلا سيداروس لبهجورة، وأنطوان أبو طاقية في الشرقية، ومكرم أغا حاكمًا في شرق أطفيح، وغيرهم، بل قام بتعيينهم كحكام أقاليم، كما كان كبير كَتَبَة محمد علي قبطيًا، وهو المعلم وهبة إبراهيم، ومن بعده المعلم نخلة إيريس المصري، وقد سُمح للأقباط في عهده بحرية بناء الكنائس وممارسة الطقوس الدينية ولم يُرفض أي طلب تقدم الأقباط به لبناء أو إصلاح أي كنيسة، ولم تعد هناك أي صعوبات للحصول على إذن بزيارة الأراضي المقدسة، وفي عهده خلع الأقباط الزي الأزرق والأسود الذي كان مفروضًا عليهم، وأصبحوا يرتدون الكشمير الملون، كما خلع عنهم الجلاجل الحديدية التي تسببت في إزرقاق عظام ترقوتهم حتى أصبحت العظمة الزرقاء لقبًا يُكَّنون به، مع ذلك كان المسيحيون في بداية عهد محمد علي يُمنعون من الالتحاق بالمدارس الحكومية التي أُنشئت لأغراض عسكرية، وكما هو الحال دائمًا، حاول البعض من الخارج التدخل في شئون مصر الداخلية للايقاع بين المسيحيين والسلطة، أو بين المسيحيين والمسلمين، كما يحدث على مر العصور، فقد أوفد قيصر روسيا في أحد الأيام مندوبًا للكنيسة القبطية، يقول للبابا

بطرس الجاولي بأنه سيقوم بحماية الأرثوذكس المصريين. فسأل البابا الأميرَ المندوب:

- هل ملككم يحيا إلى الأبد؟

فأجابه أنه يموت كسائر البشر، فرد الباب لحظتها:

- والكنيسة القبطية تحت رحمة وعناية هذا الإله العظيم الذي لا نريد أن نتخذ غيره بديلًا وحاميًا.

بالطبع لما سمع محمد علي باشا بهذا، أرسل يشكره، فرد عليه البابا:

- لا تشكر من قام بواجب عليه نحو بلاد تظلله وتظلل إخوانه في الجنسية الوطنية.

ولما أصيبت في إحدى الأيام زُهرة باشا ابنة محمد علي، وزوجة أحمد بك الدفتردار بمرض حار الأطباء في علاجه ولم يعرفوا لها شفاء منه، حتى قال البعض إنها تلبستها روح شريرة نجسة، وبمشورة رجال القصر طلب محمد علي معونة البابا، فأرسل إليه الأنبا صرابامون أسقف المنوفية الذي صلى عليها ليُخرج الروح الشريرة.

محمد علي لم يكن يشعر بشبع في طلب المزيد من الضرائب، قاوم المعلم جرجس الجوهري ذلك في البداية، حتى لم يستطع، وحقق المعلم غالي لمحمد علي باشا رغبته، فشعر المعلم جرجس بالخطر بعد غضبة الوالي عليه، بعد هذا الموقف، فاضطر إلى الهرب إلى الصعيد، فأسند محمد علي إلى المعلم غالي منصب كبير المباشرين الذين يجمعون الضرائب، كان المعلم غالي أبو طاقية كاتبًا لدى محمد بك الألفي، ثم تركه، وتعلق بخدمة محمد علي باشا، لم يُظهر للباشا معارضة أبدًا في أوامره بل كان يساعده على تنفيذ أغراضه بتسهيل الأمر له، ولا سيما فيما يختص بتحصيل الأموال، كان يعرف اللغة التركية ويتكلم بها فأحبه ورفع منزلته،

وعـوَّل عليـه في الأعمـال الماليـة، وركـن إليـه وعمـل برأيـه وفكـره فيهـا، كان اليـد اليمـنى لمحمـد عـلي.

وضـع المعلـم غـالي نظـام الضرائـب وجبايتهـا، كمـا قـام بتعيـين بعـض الأقبـاط في الوظائـف الصغـرى الـذي يشـترط فيهـا الأمانـة الكاملة، المعلـم غـالي كان عـلى علـم أنـه توجـد أراض كثـيرة يزرعهـا أصحـاب الاقتـدار بغـير دفـع أمـوال عليهـا، فـشرع في تحديـد مسـاحة عمـوم أراضي القطـر المـصري، فنمـت الإيـرادات، بعـد أن رُبطـت الأمـوال عـلى هـذه الأراضي المزروعـة دون علـم الدولـة.

سـهل المعلـم غـالي لمحمـد عـلي باشـا أمر تحصيـل الضرائب، وأسـندت رئاسـة الكُتَّـاب إليـه، ولكـن هـذا الأمـر صـار نقمـة عليـه لمـا طلـب الباشـا منـه ألـف كيـس، فقسـم جمعهـا عـلى المباشريـن والكتبـة لجمعهـا في أقـرب وقـت، لكـن الباشـا كان يريدهـا جاهـزة بـأسرع ممـا كان يتوقعـه المعلـم غـالي، ففوجـئ أن الـوالي أوقـع الحوطـة عـلى بيتـه بعـد فـترة قصـيرة وأمـر بمحـاصرة بيتـه، وبيـت المعلـم جرجـس الطويـل، وأخيـه حنـا، وفرنسـيس أخـي المعلـم غـالي، والمعلـم فلتـاؤس، واثـنين آخريـن وأخرجوهـم مـن منازلهـم عنـوة بصـورة مهينـة، بعـد أن تجمـع النـاس مـن حولهـم يتابعـون ويتفرجـون عـلى عمليـة القبـض عـلى المعلـم غـالي ورفاقـه، سـمَّروا ديارهـم، وأخـذوا دفاترهـم وحبسـوهم في القلعـة، وبعـد أيـام أفـرج عنهـم بعـد أن فُـرض عليهـم دفـع غرامـة وقدرهـا سـبعة آلاف كيـس قامـوا بدفعهـا مرغمـين.

لـم تمـضِ سـبعة شـهور أخـرى حـتى قبـض عليهـم مـن جديـد، وتـم حبسـهم مـرة أخـرى في القلعـة، وختـم عـلى دورهـم مـن جديـد، ثـم أنزلـوا المعلـم غـالي والمعلـم فلتـاؤس في مركـب ليسـافرا إلى دميـاط منفيـين، وكان عـلى ديـوان الجمـرك حينئـذ المعلـم منصـور صرابامـون ومعـه كاتبـان بشـارة، والآخـر رزق الله الصبـاغ، ورزق الله كان مـن عائلـة المعلـم جرجـس الجوهـري، فأحـضر الباشـا الـوالي المعلـم منصـور

وقلَّـده مبـاشرة الدواويـن.

قـام المعلـم منصـور حينهـا بتعيـين أشـخاص مباشريـن لـلإشراف عـلى النسـيج، فكانـوا يجوبـون النواحـي والبلـدان والقـرى ويتقاضـون مـا يلـزم لهـم مـن المصاريـف والمشـاهرات، فيحصـون ويقومـون بِعَـدْ كل مـا هو موجـود عـلى الأنـوال مـن القمـاش والـبز والأكسـية الصـوف، ويكتبـون عـدده عـلى ذمـة الصانـع، حـتي إذا مـا تـم نسـجه دفعـوا لصاحبـه ثمنـه طِبقًـا لمـا قامـوا بتسـعيره، وإذا أراد صاحبهـا الاحتفـاظ بهـا مـن الموكلـين فيشـتريها بالثمـن الـذي يقدرونـه بعـد الختـم عـلى النسـيج مـن طرفيـه بعلامـة الـميري، وإذا ظهـر هـذا النسـيج عنـد شـخص آخـر غـير صانعـه بغـير علامـة الـميري، تتـم مصـادرة هـذا النسـيج ومعاقبـة المشـتري، الـذي لـم يحـرص عـلى احـترام النظـام بـشراء نسـيج غـير مختـوم.

بعـد فـترة، سـعى السـاعون في مصالحـة المعلـم غـالي ورفقائـه عـلى محمـد عـلي باشـا، فقبـل الباشـا الـوالي العفـو عنهـم والرضـا عليهـم، بـشرط أن يدفعـوا أربعـة وعشريـن ألـف كيـس.

حـضر المعلـم غـالي مـن دميـاط وصعـد إلى القلعـة لمقابلـة الـوالي محمـد عـلي باشـا، فخلـع عليـه وألبسـه فـروة مـن السـمور، وتنـازل لـه عـن أربعـة آلاف كيـس، وأمـر أن ينزلـوا بـه إلى داره وأمامـه الجاويشـية بالعـصي المفضضـة، وأعـاده مـرة أخـرى مـن جديـد إلى مبـاشرة الدواويـن بـدلًا مـن المعلـم منصـور الـذي جعلـه كاتبًـا لابنـه إبراهيـم باشـا.

لـم يكـن أحـد يـدري مـا يـدور في عقـل الـوالي محمـد عـلي باشـا، فقـد تكـرر حـدوث ذلـك الأمـر مـرات عـدة مـن محمـد عـلي، فـكان يغضـب عليـه تـارة ويعزلـه مـن منصبـه تـارة، يرميـه في السـجن فـترة مـن الزمـن ويضربـه مئـات الكرابيـج، ثـم يعيـده إلى منصبـه بعـد إرغامـه عـلى دفـع مبالـغ طائلـة.

ففـي ذات مـرة توجـه الباشـا إلى الإسـكندرية لمهمـة، واحتـاج لنقـود فطلـب مـن المعلـم غـالي صرف سـتة آلاف كيـس كانـت باقيـة مـن الجمـع،

فاعتـذر بعـدم قدرتـه عـلى تحصيلهـا فـورًا، وأنـه سـاع في تحصيلهـا مـن أصحابهـا، فلـم يقبـل هـذا العـذر منه، وأرسـل إلى كتخـداه في المحروسـة بالقبـض عليـه مـرة أخـرى، وعـلى أخيـه فرنسـيس، وأمينـه المدعـو المعلـم سـمعان وسـجنهم في القلعـة حـتى يدفعـوا هـذا المبلـغ، حينهـا شـعر المعلـم جرجـس الطويـل وحنـا أخـوه بالخـوف أيضًـا، مـن سـوء العاقبـة، وكانـا يضمـران الـشر للمعلـم غـالي، فتحامـلا عليـه، وألقـوا بالوسـواس في أذني الباشـا الـوالي بـأن المعلـم غـالي إذا حوسـب سـيظهر عليـه ثلاثـون ألـف كيـس وربمـا أكـثر، وتعهـدا للباشـا الـوالي بأنهمـا إذا فـوض لهمـا عمـل حسـاب للمعلـم غـالي ولـم يظهـر عليـه هـذا المبلـغ، فيكونـان ملزومـين بأدائـه للخزينـة، هـاج الـوالي واشـتدت غضبتـه بعـد أن صـدق وشـايتهما، فعـزل المعلـم غـالي مـن رئاسـة الكتابـة، وولّى المعلـم منقريـوس البتانـوني بـدلًا منـه، ولـم يكتـف بذلـك، بـل ضيـق عليـه في الحبـس، وأهانـه إهانـة شـديدة في محبسـه، وأمـر بتكـرار الـضرب عليـه حـتى أشرف عـلى الهـلاك، بعـد ذلـك أفـرج عـن أخيـه وأمينـه ليسـعيا في التحصيـل، أمـا المعلـم غـالي فظـل في محبسـه، ولمـا شرع الباشـا في تغيـير هيئـة الدواويـن واسـتبدالها، رضي عـن المعلـم غـالي وأخرجـه مـن السـجن وكلفـه بذلـك الأمـر، فقـام بتقسـيم مـصر إلى مديريـات وأقسـام، والأطيـان إلى أحـواض وقبائـل، ولتسـهيل مأموريـة تحصيـل الضرائـب للخزانـة قـام بإنشـاء مصلحـة المسـاحة.

غـاب المعلـم غـالي نحـو سـنة في الصعيد وهو يشـتغل في ذلـك، بعدها عـاد إلى المحروسـة، فلمـا قصـد المعلـم غـالي العـود إلى المحروسـة، زوَّده محمـد بـك الدفـتردار وكان المتـولي إمـارة الصعيـد حينئـذ بكتـاب منـه للباشـا يمـدح فيـه نصحـه وسـعيه في فتـح أبـواب تحصيـل الأمـوال للخزينـة، وابتـكاره لأشـياء ولحسـابات يتحصـل منهـا مقاديـر وافـرة مـن المـال، فقابلـه الباشـا بالرضـا وأثـنى عليـه، وفي يـوم اقـترح المعلـم غـالي عـلى محمـد عـلي باشـا حفـر قنـاة بـين بحـر الـروم وبحـر العـرب، ولكنـه لـم ينفـذ، برغـم كل مـا فعلـه الباشـا الـوالي في المعلـم غـالي

إلا أنـه اتخـذه كاتبًـا لـسره نتيجـة لنجاحـه الكبـير في كل مـا طلـب منـه وقـام بتنفيـذه كمـا ينبغـي، فقابلـه بالرضـا وأثـنى عليـه، وخصَّـه بمبـاشرة الأعمـال الحسـابية الـتي ابتكرهـا، فكانـت يـده فـوق يـد الجميـع حـتى حـكام الأقاليـم.

- ١٣ -

حُشد الجند، وفُرضت الإتاوات على التجار، وتم تجهيز الحملة الجديدة، تحركت وعلى رأسها الوالي في أغسطس ١٨١٣، أبحر من السويس على ظهر سفينة ونزل بجدة، كان وصوله سببًا في رفع روح الجند المهلكين المعنوية، بعد معاناتهم من الهزيمة والقيظ والظروف السيئة التي يعانون منها، قصد مكة في بادئ الأمر، وأدى مناسك الحج، وكان قد حان ميقاتها، بعد أيام اجتمع مع ابنه طوسون باشا وقواده، استمع لهم في إنصات، سأل على كل الأمور الصغيرة قبل الكبيرة، اهتم بالتفاصيل التي جرت في المعارك وما حدث للحملة أثناء رحلة قدومه، من الحديث خامره شيء من الشك في الشريف غالب، أو ربما شعر منه بالتراخي في معاونة الجيش المصري، لم يتردد كثيرًا في الأمر واتخاذ القرار، اعتقله وأرسله ليحبس في المحروسة، وقرر مصادرة جميع أمواله، وأمر بتولية ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور خلفًا له.

في البداية قرر الهجوم على الوهابيين في معاقلهم، قام بتوجيه طوسون باشا على رأس خمسة آلاف من المشاة، وألفٍ من الفرسان وستة من المدافع، للاستيلاء على تُرَبَة، التي كانت موطنًا لقبيلة بني هلال، قبل أن تنزح من الجزيرة العربية إلى أقصى المغرب العربي، واسمها نسبة إلى وادي تُرَبَة الذي يمتد من قمم جبال الحجاز حتى أطراف صحراء نجد، بطول أربعمائة كيلو متر ويصب فيه العديد من الأودية والشعاب، وهي موجودة من أيام العصر الجاهلي.

ضرب عليها طوسون باشا ابن الوالي الحصار، وقد كان يحدها من الشمال أرض منبسطة بها عدد من التلال الصغيرة، ومن الشرق تلال الثغر، فأرض فسيحة منبسطة بها بعض التلال، ومن الغرب

أرض منبسطة.

قضى الجنود لياليهم الأولى في نصب الخيام وإعدادها للسكنى، وبالطبع كانت أولى الخيام التي نُصبت، وجُهزت، وأعُدت، خيمة طوسون باشا، كانت أبعد خيمة عن حدود المدينة، هبط الليل، وأضرمت النيران هنا وهناك، جثم الليل على المعسكر فغلبه السكون، سكون مطبق، لكن سكون ثقيل الوطأة كما هي الأوقات الحبلى بالمجهول، والتي تسبق العاصفة، جلس بعد الضباط حول النيران، أمام إحدى خيامهم، اشتكى أحدهم لقائدهم الأعلى رتبة الذي كان يدخن التبغ أثناء جلوسه معهم قائلًا:

- إن أقدام أغلب الجنود متقرحة من طول المشي.

رد عليه في هدوء:

- سنداويها ببعض الأعشاب، لا بد أن يتحمل الجند ظروف المعارك القاسية.

تنهد وهو ينفث دخانه وقد شرد بصره في النجوم:

- سيعاني محاربونا جروحًا بالغة، لكنهم لا يعرفون حتى الآن، نحن في حاجة إلى جند كالجنود الاستشهاديين.

استغرب الضباط من الكلمة، وكانوا أول مرة يسمعون بها ورد بعضهم متعجبين:

- جنود استشهاديون !!

رد القائد وهو ما يزال على شرود نظره في السماء والنجوم:

- فيلق الاستشهاديين فيلق كان موجودًا في الجيش العثماني، كان قانونه عدم التقهقر، أو التراجع من أي هجوم إلا والظفر حليفهم مهما كانت الظروف ومهما كان الخصم، فإن عادوا مهزومين قتلهم رفاقهم.

في الصباح، لم يكن الفجر قد بزغ عندما أطلقت إشارة الهجوم،

اتخـذ الجنـود مواقعهـم استعدادًا للهجـوم، الفرسـان يندفعـون عـلى صهـوات جيادهـم محاولـين النيـل مـن الخصـم، بعـد قصـف، وإطـلاق رصـاص، رمـال هائجـة، واضطـراب في الصفـوف، وكثـير مـن الدمـاء أُريقـت عـلى رمـال الصحـراء، بعـد كـر وفـر، واصطـدام مـع التحـام، ومحـاولات مسـتمرة لا تنقطـع لاقتحـام تُرَبَـة، ودك حصونهـا واقتحـام أسـوارها، بعـد أيـام طويلـة مـن المعـارك والمناوشـات، أُنهـك الجنـود وسـاءت حالتهـم، نفـذت مؤنهـم، فرفـع طوسـون باشـا الحصـار مضطـرًا، وتقهقـر بجنـوده وعـاد للطائـف، بعـد أن قـام بإحـراق خيامـه حـتى لا تقـع في أيـدي الوهابيـين كمـا حـدث في المـرة الأولى.

في المعسـكر بعـد العـودة جلـس محمـود أمـام خيمتـه واجمًـا، امتـلأت الطرقـات بـين الخيـام بأنفـاس الجنـود المتعبـين الثقيلـة، وبصـوت موحـش لأقـدام تمـشي بتثاقـل وبـطء وضعـف، وبالآهـات الـتي لا عـدَّ لهـا ولا حـصر، تناهـت إلى مسـامعه هتافـات المصابـين تعلـو بـين الحـين والآخـر: «مـااااء.. مـااااء..»، ومنهـم مـن كان يـصرخ أحيانًـا مناديًـا: «أمـي.. يـا أمـي».

وقـف عبـدالله عـلى جانـب الخيمـة لمشـاهدة ظـلال الجنـود تتحـرك ببـطء وسـط الظـلام، سـمع محمـود يسـأله، ونظـره شـارد للسـماء:

- كم بلغت خسائرنا؟

تنهد في حسرة وألم وهو يقول:

- واضـح أن أكـثر مـن نصـف عددنـا قـد مـات، ذبحـوا أحيـاء بسـكينٍ بـارد، لكـن الـشيء الأكيـد أننـا هُزمنـا هزيمـه سـاحقة.

ارتفع صوت من الخيمة المجاورة مُخاطبًا إياهم:

- نحمد الله على أننا ما زلنا على قيد الحياة.

فـرد عليـه عبـدالله في ضيـق ممـا هـم فيـه، وقـد امتـلأ حلقـه بالمـرارة وصـدره بالحـزن:

- لا تأمل في هذا كثيرًا فربما حان أجلك غدًا.

ساد الصمت بعد الكلمات الأخيرة، وكل واحد منهم يخشى أن تكون نهايته في الغد، ولم ينطق أحد بكلمة بعدها.

نهض محمد علي باشا من رقدته، وشرع يزرع الخيمة جيئة وذهابًا، على السجادة المفروشة داخلها، جلس على منضدة عريضة بعد أن أخذ مجموعة من الأوراق من حقيبة جلدية جواره، كانت عبارة عن بضعة خرائط، منها خارطة لجزيرة العرب، وللمواقع التي تدور فيها المعارك، الطعام جواره على الصينية لم يلمسه، أطال النظر فيها وهو يراجع الأماكن المهمة التي يريد أن يقتنصها من بين براثن الوهابيين، والموانئ التي يحتاج إلى السيطرة عليها، أرسل أحد الجنود لمناداة طوسون باشا، وبعضٍ من قواد الجيش، اجتمع بهم من جديد، طال السهر بينهم، وهم يناقشون ويُقَّيمون المواقع، يحددون مدى رغبتهم واحتياجهم لكل موقع أو مكان على الخارطة، بعد أيام قرر الباشا إرسال حملة أخرى إلى ميناء قنفذة، أُعدت الحملة وتم تجهيزها، وتحركت بعد يومين آخرين، وصلوا إلى الميناء، وبعد معركة صال وجال فيها الجند، وأصيب فيها البعض بجراح، وبعد أن غرقوا في دمائهم من جديد، احتلوا الميناء، وسيطروا عليه، وبعد أن بلغوا النصر تركوا فيها حامية من ألف ومائتي جندي.

نُصبت الخيام، وجهز القومندان الذي عُين رئيسًا للحامية خيمته بالوسائد، والآرائك، أعدها لتكون مكان راحة له في هذا الجو الحار الخانق بعد تلك المعارك التي خسر فيها بعضًا من جنوده، وبعضًا من رفاقه وأصدقائه، وأصيب فيها بجراح وسحجات، وتعب، وإرهاق، تأرق في الليل، وقلق في الصباح، ظن أن هذا الميناء سيكون ملجأ له، لينال قسطًا من الهدوء والراحة ولو لفترة.

بعد ثلاثه أيام، بينما هو جالس في الصباح يرتشف فنجان قهوته بعد أن تناول إفطاره، اقتحم عليه أحد الجند خلوته، ففزع وسقطت

بعـض مـن القهـوة عـلى صـدره، ولطخـت ملابسـه، فسـبه وهـو يـصرخ فيـه:

- كيف تجرؤ على اقتحام الخيمة هكذا دون إذن أيها الأحمق.

ارتبك الجندي بأكثر مما هو، ونطق متلعثمًا والتوتر يعصف به:

- اعذرني يا مولاي، ولكن هناك شيئًا ما حدث.

رد عليه في غضب وهو يمسح ملابسه وينفض عنها قطرات القهوة:

- مـا الـذي حـدث في الصبـاح لتقتحـم خيمـتي هكـذا؟ هـل هجـم علينـا الوهابيون؟

رد متلعثمًا:

- كلا أيها القومندان، لكنه البئر التي تستقي منه البلدة..

اعتدل واقفًا:

- ما به؟ هل جف فجأة؟!!

- لا يـا سـيدي، لكـن العربـان أخـذوا المـكان الـذي يقـع فيـه البـئر وسـيطروا عليـه، وقطعـوا عنـا الميـاه.

اتسعت عينا القومندان وهو يقول:

- سيطروا عليه؟!! ألم يكن عليه حراسة؟

- كلا يا سيدي، لم يأمرنا أحد بذك.

- اللعنه عليكم، وعلى هذه الحملة الشؤم الملعونة.

تحـرك إلى جانـب الخيمـة كي يرتـدي ملابـس القتـال، أمسـك بندقيتـه يُعِدُّهـا، ألقـى أوامـره للجنـدي وهـو يضـع سـيفه في جرابـه حـول خـصره:

- أبلـغ الجنـود أن يسـتعدوا، يجـب أن نحـرر بـئر المـاء اليـوم، ليـس لنـا مصـدر ميـاه غيرهـا.

ثم تابع محدثًا نفسه بعد أن انصرف الجندي:

- لقد انتهت لحظات الراحة.

انصرف الجندي ينشر الأوامر بين المقاتلين ليستعدوا من جديد لمعركة جديدة، وفي خلال دقائق استعدت قوات الحامية لمعركة تحرير البئر، اتخذوا مواقعهم، ورتبوا صفوفهم، وهجموا على مكان البئر، لكن الأمر لم يكن سهلًا، فقد وجدوا مقاومةً وبأسًا من العربان لم يتوقعوها، استمر القتال لبضعة أيام حتى نفذ تقريبًا كل ما كان لديهم من ماء، ونجح العرب في أن يردوهم على أعقابهم خاسرين.

سقط القومندان على فرشته في الخيمة منهكًا بعد معركة طاحنة فشل فيها من جديد في تحرير البئر، نظر لسقف خيمته لا يعرف ماذا يفعل، تشققت شفتاه، وتعفرت لحيته وشعر رأسه برمال الصحراء وترابها، لقد قُتل عدد كبير من الجند من أجل البئر، وأصيب الكثير من الباقيين بجروح ما بين هين ومميت، لم يعد هناك سبيل لمعركةٍ جديدة، لا العدد يكفي، ولا المؤن أو ما بقي لهم من بضع جرعات من المياه تكفي لتبل ريقهم، اعتدل على فرشته جالسًا، ثم نادى على أحد الجنود، فدخل مهرولًا، قال له القومندان في ضيق وهو يشعر بغصة في حلقه:

- أخبر الجنود أن يستعدوا للرحيل، وأن يساعدوا الجرحى على التحرك، سنرحل من هنا ونعود لجدة.

- ألن نحاول من جديد أيها القومندان؟

هز رأسه نافيًا:

- لا، لم يعد هناك مجالٌ لمحاولة جديدة، سنرحل قبل أن يقضوا على آخر رجل فينا، أو نموت عطشًا في هذه الأرض القاحلة.

نظر القومندان إلى الشمس الغاربة في طريق عودته، وهو يعلم أن العديد من الرجال الذين أصيبوا بجروح اليوم سيحملون صورة تلك السماء الشاحبة معهم إلى العالم الآخر.

رغم كل هذه الهزائم والخسائر الكبيرة المتتالية، في الأرواح،

والأموال، والمؤن، والذخائر، إلا أن عزيمة محمد علي باشا لم تنثني أمام كل هذه الصعاب، كان صلبًا صلدًا، لا تهزه شدائد الأمور مهما عظمت، نادى كاتبه وأعد مكتوبًا وأرسله لكتخدا بك لاظ أوغلي في المحروسة ليوافيه بالمدد والمؤن، وفي المحروسة تلقى كتخدا بك الأمر المكتوب وشرع في التنفيذ على الفور، استولى بناءًا على أمر الوالي على أملاك الملتزمين، استولى عليها بالقوة والإجبار، لكنه حشد الناس للحرب بطريقة التطوع هذه المرة، بدأ كتخدا في استكتاب أخلاط من مغاربة، وصعايدة، وفلاحين، وكان ضيق الحال ألمَّ بكثير من الناس في معيشتهم، فذهبوا متطوعين يعرضون أنفسهم، رُتبت أمور الحملة الجديدة، وتحركت لتكون مددًا وعونًا للباشا الوالي في أرض جزيرة العرب، سبعة آلاف من الجنود ومعهم سبعة آلاف كيس من الأموال.

وصل المدد إلى جدة، واستعد محمد علي باشا للزحف والحرب من جديد، أُعدت الخطط ورُتبت الصفوف والقيادات، وُزعت المهام، واستعد الكل للقتال، وللمرة الثالثة يساند ملك الموت محمد علي باشا، فنفذ أمر الله في تلك الأيام، وقبض روح الأمير سعود بن عبدالعزيز، الذي خلفه في الإمارة نجله عبدالله، وكان يبدو عليه أنه ضعيف القلب شديد التردد، لا يميل للحرب وغير بارع فيها.

أرسل محمد علي باشا عابدين بك على رأس حملة لاحتلال وادي الزهران، في الطريق كانت الشمس حارقة تُعمي الأبصار، مسددة نحو الجنود، ولا أمل في سحابة في السماء تخفف حدة الشمس ولو ثوانٍ، السماء منذ طلوع الفجر خاوية من أي سحاب، لكن من رحمة ربهم بهم أنهم لم يلقوا هناك مقاومة تُذكر، لكن الوهابيون عادوا للهجوم عليهم من جديد في قوة ومفاجأة لم يتوقعوها، وأجبروهم على الخروج والتراجع حتى الطائف، ثم جمعوا قواتًا وعتادًا أكثر، وأقبلوا بجموع حاشدة على القوات المصرية، وضربوا الحصار على

الطائـف؛ حيـث كان طوسـون باشـا موجـودًا فيهـا، بلغـت الأنبـاء محمـد علي باشـا، فهـب مـن جلسـته واقفًـا وتملكـه الخـوف والقلـق عـلى مصير ولـده، كان يخـشى عليـه ممـا هـو فيـه الآن ومـا يعانيـه ومـا يمكـن أن يعانيـه أكـثر تحـت هـذا الحصـار، دارت الأمـور في عقلـه في سرعـة، قـرر أن هـذا الأمـر لـن يفلـح بالصـدام المبـاشر بـين الجيشـين، وأنـه لا بـد مـن الخـداع، تحـرك مـع عشريـن رجـلًا نحـو الطائـف، هنـاك وقـف عـلى جبـل عـالٍ، يشـاهد مـن موقعـه الحصـار الـذي ضُرب عـلى الطائـف، أمـر رجالـه فجـاءوه برجـل مـن الوهابيـين، عـرض عليـه أن يطلـق سراحـه عـلى أن يحمـل رسـالة إلى ولـده طوسـون باشـا مضمونهـا:

«إني قادم إليك، فاحضر والحق بنا فوق الجبل».

ذهـب الرجـل بالرسـالة حـال وصولـه إلى أمـير الوهابيـين الـذي يقـود الحصـار، فوقـع في قلبـه الرعـب، ونـادى عـلى قـواده وحدثهـم قائـلًا:

- إن محمـد عـلي باشـا والـد طوسـون أرسـل يخـبره أنـه في الطريـق عـلى رأس جيـش جـرار، إن وصـل هـذا الجيـش ونحـن هنـا، سـنقع نحـن بـين المطرقـة والسـندان، وسـتكون نهايتنـا، سـنُذبح كالأغنـام الـتي وقعـت في المنتصـف بـين ذابحيهـا.

نطق أحدهم:

- إن قواتنـا ورجالنـا لقـادرون عـلى الحـرب والمقاومـة، وسـحق أي جيـش يـأتي بـه محمـد عـلي.

رد آخر غاضبًا:

- ومـاذا سـيكون حالنـا إذا كانـوا يفوقوننـا عـددًا، حينهـا سـنحارب عـلى الطرفـين، وسيتشـتت جيشـنا في حـرب عـلى جبهتـين، ونذبـح كالخـراف.

سأل رجلًا منهم يبدو عليه السن وهو يعبث بلحيته البيضاء:

- أتقترح علينا يا أمير أن ننسحب أم ماذا؟

رد الأمير:

- بل أسألكم المشورة؟

رد عليه دون أن يترك لحيته:

- وأنـا أؤيـد الانسـحاب، فـلا قِبـل لنـا بتشـتيت رجالنـا عـلى جبهـات مختلفـة، لـن نضحـي بهـم ونلقـي بهـم إلى التهلكـة.

رفع آخر يده وقال:

- وأنا مع هذا الرأي.

ارتفعـت الأصـوات مـا بـين مؤيـد ومعـارض، حـتى قـرر الأمـير العمـل بالـرأي الأحـوط وقـرر الانسـحاب، فانسـحبوا في سرعـة، ورفعـوا الحصـار عـن الطائـف.

بقـي محمـد عـلي باشـا وطوسـون في جـدة، وعمـل عـلى تدريـب السـبعة آلاف جنـدي الذيـن أرسـلهم كتخـدا، في جـو حـار مـليء بالعواصـف الرمليـة والقيـظ الشـديد، كانـت الريـح الحـارة لا تنقطـع وتـؤذي حنجـرة الجنـود، ومـن حـين لحـين تقـوم سـحابة غبـار كثيفـة تلقـي بشَرِّهـا عـلى الخيـام، تطيـح ببعضهـا وتعصـف بهـم.

بعـد أن انتهـت مراسـم الحـج في عامهـم، تجـددت الحـرب، أرسـل محمـد عـلي باشـا قواتـه إلى الطائـف اسـتعدادًا للزحـف والهجـوم مـن جديـد، جمـع الوهابيـون في مقابلتهـم عشريـن ألـف تحـت قيـادة فيصـل بـن سـعود بـين بسـل وتربـة، التقـى بهـم محمـد عـلي باشـا بنفسـه عـلى رأس أربعـة آلاف مـن الجنـود في بسـل الواقعـة بـين الطائـف وتربـة، بـدأت المعركـة مـن جديـد ودارت عجلـة الحـرب بـين الفريقـين والتهبـت نـيران المعركـة مـن الفجـر حـتى المسـاء.

في تمـام الظهـيرة، وقـد بلغـت الحـرارة أوجهـا، تزاحمـت أعـداد الجنـود المهاجمـين المخضبـين بالدمـاء، والمتفصديـن عرقًـا، مندفعـين للأمـام، يـدورون، ويلهثـون، يصرخـون مـع دوي المدافـع الهـادرة، حركـة أقدامهـم تثـير الرمـال مـن حولهـم، تصاعـد غبـار المعركـة حـتى غطـى

رؤوسـهم، أغـشى الرؤيـة أمـام أعينهـم وكاد يعمـي أبصارهـم، محمـود بـات لديـه خـبرة لا بـأس بهـا في القتـال، أصبـح خبـيرًا، كان يركـض مثـيرًا سـحابة غبـار تحـت قدميـه الحافيتـين بعـد أن خلـع نعليـه ليكـون أكـثر خفـة، وأكـثر سرعـة، ووجهـه الداكـن الـذي قـد لوحتـه الشـمس يقطـر عرقًـا، صـدره يعلـو ويهبـط، وهـو يتنفـس ويستنشـق الهـواء اللافـح بشراهـة، يحمـل سـلاحه ويتحـرك في خفـة غـزال، ويقظـة فهـد، جـواره رفيـق سـلاحه عبدالله الـذي لـم يختلـف عنـه في ازديـاد مهارتـه وقوتـه في القتـال، فأصبـح جنديًـا مقاتـلًا لا يُشـقُّ لـه غبـار كمـا لـو كان أحـد الجنـود النظامـيـن طيلـة حياتـه.

هُـزم الوهابيـون وقتـل منهـم مـا يقـرب مـن سـتمائة فـرد وتشـتت الباقـون بعدمـا اجتـاح الفرسـان مشـاتهم كالطوفـان الهائـج وأوقعـوا بهـم الخسـائر الفادحـة وأنزلـوا بهـم الهزيمـة، لـم يتوقـف محمـد عـلي باشـا بعدمـا حصـل عـلى النـصر، اسـتمر في زحفـه فاحتـل تربـة ورنيـة وبيشـة، رغـم المعانـاة الـتي كان يلاقيهـا مـع جيشـه مـن قلـة الطعـام، وعندمـا سـأله أحـد قـواده كيـف سـيتدبرون أمـر الطعـام بعـد النقـص الشـديد فيـه، رد عليـه بعـد تفكـير:

- ليـس أمامنـا إلا التمـر والعيـش عليـه في الأيـام القادمـة، وسيسـهل علينـا الحصـول عليـه في هـذه الأراضي، وسأشـاركهم الطعـام بنفسي، حـتى يـروا أن قائدهـم يتنـاول مـن نفـس طعامهـم.

وبالفعـل كانـت مشـاركة الـوالي لجنـوده الطعـام ناجحـة في رفـع روحهم المعنويـة، وشـجعتهم عـلى احتمـال تناولـه طيلـة هـذه الفترة.

بعدهـا توجـه للشـاطئ مـن جديـد، واحتـل قنفـذة، وأبقـى فيهـا حاميـة، وذهـب منهـا إلى جـدة، ومنهـا إلى مكـة، بينمـا زحـف طوسـون من المدينـة إلى شـمال نجـد، بعـد أن شـجعته الانتصـارات المتواليـة، فبلـغ في زحفـه حـتى الـرس الـتي تبعـد عـن المدينـة نحـو أربعمائـة وخمسـة وثلاثـين كـم، تحركـت الجنـود للهجـوم، ونطـق طوسـون باشـا صارخًـا

بأعلى صوته كما لو أن قائد الوهابيين يسمعه:

- اليوم سترون من أي مادة خُلق الجندي المصري! سأقضي عليكم اليوم، إذا لم نستطع الاستيلاء على المدينة بالوثوب عليها كالطير الجارح، فسنستولي عليها من تحت الأرض كالثعابين.

واصل طريقه حتى البيبية التي تقع على طريق الدرعية عاصمة الوهابيين، لكن بعد الوصول تشكك طوسون باشا في إمكانية حدوث النصر بعد أن نقصت مؤنه وقل عدد جنوده، ولأن القوات أمامه تفوقه عددًا وعتادًا، فبدت المعركة أمامه كامرأة عصية، يحاول أن يطوقها بين ذراعيه، لكنها ترفض الإذعان له، اجتمع مع قواده وقال لهم:

- لا أعتقد أننا بأي حال من الأحوال يمكننا أن ندبر هجومًا على الدرعية، فهم يفوقوننا عددًا، وعدة، وجنودنا طالهم التعب والإرهاق.

هز مَن في الاجتماع رأسهم مؤيدين، ونطق أحد القواد:

- المؤن التي لدينا أيضًا قليلة، وربما بعد أيام من المعركة لن يجد الجنود أي طعام.

بدا على صوت طوسون باشا الضيق والحزن وهو يقول:

- لا مفر أمامنا من التراجع والانسحاب، فلن نلقي بأنفسنا إلى الموت والهزيمة.

بعد الاجتماع والتشاور مع قواده، أصدر قراره بالانسحاب والعودة للمدينة، وقبل أن يشرع في الانسحاب، وصله رسول من الأمير عبدالله بن سعود، أمر بدخوله على الفور، دخل الرسول وألقى عليهم السلام والتحية، بعد أن جردوه من سيفه وسلاحه في الخارج قبل دخول خيمة الباشا الصغير وقال:

- الأمير عبدالله بن سعود يعرض على الباشا الصلح والطاعة،

وحقـن دمـاء جنودنـا.

استغرب طوسـون باشـا مـن الرسـالة، حـتى ظـن للحظـة أنهـا خُدعـة، كتـم اندهاشـته بداخلـه، وصمـت لحظـات مفكـرًا، ثـم رد في هـدوء وثبـات:

- قـل لأمـيرك إن رسـالته قـد وصلتنـا، لكننـا لـن نسـتطيع الـرد عليـه، والبـت في أمـر الصلـح، إلا بعـد عـرض الأمـر عـلى الباشـا الـوالي.

انحــنى الرســول، وهــم بالتراجــع والانــصراف، إلا أن طوســون باشــا عاجلـه قائـلًا:

- أخـبر أمـيرك أننـا سـنمنحه هدنـة عشريـن يومًـا حـتى يصلنـا الـرد مـن الباشـا الـوالي.

في الخيـام اسـتلقى الجنـد عـلى فرشـتهم، متكئـين عـلى مرافقهـم، بعـد أن علمـوا بأمـر الهدنـة، واطمأنـوا أن لا معركـة في الأيـام القادمـة، الجـو كان خانقًـا داخـل الخيمـة، والحـرارة لا تحتمـل، فقـال أحـد الجنـود:

- لا بد أن الجو في الخارج أكثر لُطفًا وبرودة من داخل الخيمة.

فرد آخر:

- الحـرارة خانقـة، ألا يحـضرون لنـا بعـض المـاء نغتسـل أو حـتى نبـل وجوهنـا قليـلًا؟!

رد عليهم محمود:

- ادعـو الله أن يـرد الـوالي ويبـت في أمـر الصلـح في سرعـة، حـتى ننتهـي مـن هـذا الأمـر ونعـود لديارنـا، قبـل أن ينتهـي مـا لدينـا مـن مخـزون ولا نجـد مـاءً للـشرب مـن بعـده، لقـد مـات منـا الكثـير، وأريقـت منـا الدمـاء أنهارًا.

نطق عبدالله وهو شارد النظر:

- النـاس سـتتذكر المعركـة وتنـسى الدمـاء الـتي أريقـت فيهـا، تختلـط دمـاء القتـلى كلهـم، وتصبـح دمًـا واحـدًا، حـتى ذكريـات المعركة سـتنتهي

بموتنـا، ولـن يتذكـر النـاس أو التاريـخ إلا النـصر أو الهزيمـة، بـل لـن يتذكرونـا نحـن، ونحـن مـن أتى بالنـصر أو نحـن مـن تسـبب في الهزيمـة.

بعـد يومـين وصلـت رسـالة مـن محمـد عـلي باشـا، وجـاء طوسـون باشـا الـرد مكتوبـًا مـن والـده يخـبره فيـه أنـه اضطـر للعـودة للمحروسـة لشـئون مهمـة، وأنـه تـرك لـه عـددًا عظيمـًا مـن الجنـد تحـت إمـرة الخازنـدار، وأمـره بالزحـف إلى الدرعيـة والقضـاء عليهـم نهائيـًا.

عـلى الفـور أرسـل طوسـون يسـتدعي الخازنـدار إلى مدينـة الـرس قبـل أن تنقـضي فـترة الهدنـة، وبعـد التشـاور، اسـتقروا عـلى قبـول الصلـح، أرسـلوا إلى الأمـير عبـدالله بـن سـعود شروطهـم بـأن تحتـل الجيـوش المصريـة الدرعيـة، وأن يـرد عبـدالله كل مـا أخـذه الوهابيـون مـن الحجـرة النبويـة مـن النفائـس والجواهـر، وأن يأتمـر بأمـر طوسـون باشـا، وأن يؤمـن سـبيل الحـج ويخضـع لسـلطة حاكـم المدينـة، عـلى ألا يتـم الصلـح إلا بعـد عرضـه عـلى الباشـا الـوالي في المحروسـة وإقـراره.

أرسـل عبـدالله بـن سـعود وفـدًا إلى المحروسـة، ليعـرض الصلـح عـلى الباشـا الـوالي، دخـل الوفـد عـلى الـوالي فقابلهـم كالأسـد المنتـصر الجالـس في عرينـه، وبعـد عرضهـم الصلـح، رفضـه في شـدة، حـتى أنـه هـب واقفـًا وعـلا صوتـه وهـو يقـول في حـدة:

- الوهابيون يجب أن يعاملوا معاملة الخوارج والعصاة.

أصر عـلى هـذا واحتـد، ربمـا لأنـه كان يريـد أن يبسـط قبضتـه عـلى الجزيـرة العربيـة، دون أن يقاسـمه فيهـا شـخص حـتى ولـو ظاهريـًا فيكـون حائـلًا دون اسـتقرار حكمـه في الجزيـرة العربيـة، كمـا صمـم عـلى أن يـرد الوهابيـون مـا أخـذوه كمـا اتُّفـق مـن قبـل، وأن يسـلم أميرهـم الدرعيـة إلى حاكـم المدينـة، ثـم يحـضر بنفسـه ليرسـله إلى الأسـتانة ليكـون رهـن أمـر السـلطان والبـاب العـالي.

وصلـت هـذه الطلبـات والـشروط المجحفـة إلى الأمـير عبـدالله، طـوى الورقـة المكتـوب فيهـا الـشروط وقـال متعجبـًا:

أيريـدني أن أسـلم عنقـي لسيف البـاب العـالي؟! وأي نفائـس يريدهـا؟! لـم يبـق لـدي شيء منهـا حـتى أردهـا.

أشـار إلى كاتبـه، وأمـلاه بـرد يرفـض فيـه تلـك الـشروط، ويرفـض الذهاب إلى الأسـتانة، ويعـرض أن يتـم تعيـين نائـب عـن محمـد عـلي باشـا في الدرعيـة، وأن يُحـدد الخـراج بمبلـغ معلـوم يتعهـد هـو بأدائـه.

ألقـى محمـد عـلي باشـا بالرسـالة بعـد أن وصلتـه، عـلى طـول ذراعـه، وأرسـل عـلى الفـور يتوعـده بالحـرب مـن جديـد.

فشلت مفاوضات الصلح، وتأهب الطرفان لمعركة طاحنة جديدة.

عـاد محمـود مـن الجزيـرة العربيـة إلى المحروسـة، بعـد مـا أصيـب في آخـر معاركـه، ودع عبـدالله الـذي أخـبره أنـه بـات يفضـل الجنديـة عـلى الفلاحـة في الأراضي، وأنـه سـيبقى في الجزيـرة ليخـوض المعـارك القادمـة تحـت رايـة إبراهيـم باشـا، احتضنـه مودعًـا وهـو يقـول:

- لا تـأتي للحـرب مـرة أخـرى هربًـا مـن حياتـك، مهمـا قـد تبـدو الحيـاة سـيئة، تأكـد أنهـا هنـا في الحـرب وسـط القتـلى والدمـاء أسـوا ممـا تظـن.

عـاد محمـود مـع طوسـون باشـا، الـذي قـرر العـودة بعـد وصولـه أنبـاء عـن تمـرد الجنـود الأرنـاؤوط في القاهـرة، ومـا وقـع منهـم مـن سـلب ونهـب، سـاروا مـن المدينـة إلى ينبـع، ومنهـا عـبر البحـر إلى السـويس، وصـل القاهـرة في الخامـس مـن ذي الحجـة، في الثامـن مـن نوفمـبر ١٨١٥، وكان في اسـتقبالهم احتفـال عظيـم أُعـد لهـم، عُلقـت الزينات في الشـارع الأعظـم، وزيـن النـاس حوانيتهـم، وأعـدوا موكبًـا حافـلًا، وحـين صعـد إلى القلعـة ضربـت المدافـع في كـثرة، وشـنكًا وحراقـات.

- ١٤ -

بعـد انتهـاء الاحتفـالات بعـودة طوسـون باشـا وحملتـه مـن جزيـرة العـرب، تابـع محمـد عـلي أشغاله الداخليـة الـتي كان يقـوم بهـا، فقـد بـدأ مـن يـوم اعتـلاء عـرش الولايـة في تحقيـق أحلامـه، وكان مما يؤرقـه في البدايـة ويثـير القلائـل في البـلاد، عـدم وجـود جيـش نظامـي في البـلاد، يتبـع أوامـر قيادتـه، ويعمـل لصالحهـا ولا يتمـرد لتأخـر مرتباتـه أو لأي سـبب كان، ووجـود العربـان أو البـدو المصريـين، أبـدى نيتـه في تكويـن الجيـش عـلى الفـور، لكـن القلائـل والاضطرابـات الـتي كانـت في البـلاد أول توليـه الحكـم لـم تساعده عـلى ذلـك، بعدهـا انشـغل بحروبـه مـع الوهابيـين وتثبيـت قدمـه في سـدة الحكـم، فعمـد للتخلـص مـن العربـان أولًا.

لـم يألـف أغلبيـة العربـان حيـاة الحـضر حـتى أوائـل القـرن التاسـع عـشر مـع بدايـة حكـم محمـد عـلي، كان تعدادهـم في مـصر بعـد إحصاء الحملـه الفرنسـاوية لهـم سـتون قبيلـة وصـل عـدد فرسـانها حـوالي عشريـن ألـف، ولـم يزيـدوا كثـيرًا في السـنوات الـتي تلتهـا، كانـوا يتنقلـون في الصحـراء في حـرب مسـتمرة مـع الفلاحـين، وانـصرف كثـيرٌ منهـم إلى قطـع الطريـق والاعتـداء عـلى القـرى الآمنـة، وفـرض إتـاوات عـلى الفلاحـين، رأى محمـد عـلي أنـه مـن الحكمـة أن يهـادن زعمـاء القبائـل ولا يدخـل معهـم في معـارك تسـتنزف مـن قـواه وقواتـه، فعقـد الاتفاقـات معهـم، لكـن القبائـل لـم تلـتزم بهـا طويـلًا ونقضـت هـذه الاتفاقـات، فـأدرك محمـد عـلي أنـه لا منـاص مـن أخذهـم بالقـوة، فوجـه نحـو خيامهـم كتائـب الفرسـان فاضطـروا إلى الإذعـان واتفـق زعماؤهـم عـلى الطاعـة للـوالي وطلبـوا الصلـح، فوافـق محمـد عـلي أن يصالحهـم عـلى أن يقيـم زعماؤهـم في القاهـرة، ليكونـوا رهائـن عنـده يضمـن بهـم

طاعتهـم وولاء قبائلهـم وأغـدق عليهـم الرواتـب وبذلـك نجـح في إخـلاد القبائـل الى الهـدوء والسـكينة، ومنـح البـدو المتشرديـن في أطـراف البـلاد أراضي شاسـعة أعفاهـا مـن الضرائـب ينتفعـون بهـا ويسـتغلونها. بعدهـا اجتـذب محمـد عـلي رؤسـاء العشـائر مـن العربـان وعـرض عليهـم أن تدفـع الحكومـة لمـن ينتظـم منهـم في سـلك الجيـش أجورهـم عـلى شرط أن يـأتي كل منهـم بفرسـه وبندقيتـه، فلبـوا الدعـوة واندمجـوا في جيـش مـصر، واشـتركوا معـه في كل حروبـه، حـتى إن إبراهيـم باشـا اتخـذ منهـم حرسـه الخـاص بعـد ذلـك.

في نفـس الوقـت عمـد محمـد عـلي إلى إنشـاء المـدارس العليـا بالأزهـر، ولـم يحـاول مـع بدايـة تطويـره للتعليـم في البـلاد، أن يمـد يـد الإصلاح إلى داخـل الأزهـر فتركـه كمـا كان عـلى نظامـه القديـم، ربمـا لخشـيته سـخط العلمـاء إذا هـو عـارض نظـام التعليـم فيـه أو أقـدم عـلى إصلاحـه وجعلـه يسـاير حركـة التقـدم العلمـي الحديـث فيقومـوا ضـده ويسـاندهم النـاس عليـه، وتكـون فرصـة للبـاب العـالي ليتخلصـوا منـه، أو لعلـه لـم تكـن لـه الرغبـة في ذلـك؛ لذلـك وجـه محمـد عـلي اهتمامـه إلى المـدارس النظاميـة، وجعـل مـن طلابهـا مصـدرًا أساسـيًا للبعثـات العلميـة في الخـارج، لكنـه اختـار مـن رجـال الأزهـر مـن طلبـة المـدارس العاليـة الـتي أنشـأها مـن قبـل كثـيرًا مـن أعضـاء البعثـات العلميـة الـتي أوفدهـا إلى أوروبـا، كمـا اختـار منهـم بعض المتضلعـين في اللغـة العربية لتنقيـح وتهذيـب الكتـب المترجمـة للغـة العربيـة في الطـب والرياضيـات وغيرهـا، وطائفـة أخـرى لتصحيـح الكتـب عنـد طبعهـا.

كان ذلـك متزامنًـا مـع تضـاؤل نفـوذ مشـايخ العلمـاء، وضعـف هيبتهم، وانحـلال زعامتهـم لعامـة الشـعب، بعـد تآمرهـم مـع الـوالي ضد السـيد عمـر مكـرم، وإقصائـه مـن المحروسـة، فصـاروا مجـرد أتبـاع لـه، بعـد أن كانـوا موئـل الشـعب الأخـير، يفـزع إليهـم عنـد وقـوع الملمـات، اختفـى أثرهـم عـلى سياسـة الدولـة المصريـة وإدارة شـئونها ولـم يعـد لهـم رأي

فيهـا، ولـم يبـق لهـم إلا قليـل مـن الاحـترام نتيجـة انتسـابهم للديـن والأزهـر، اسـتمر وضعهـم يـتردى مـع الوقـت طـول السـنوات التاليـة، حـتى إن إبراهيـم باشـا بعـد انتصاراتـه في حـروب الوهابيـة وعودتـه، اسـتقبل العلمـاء الذيـن جـاءوا لتهنئتـه عـلى مضـض، ولـم يقابلهـم بالاحـترام اللائـق، فلمـا ذهبـوا للسـلام وأقبلـوا عليـه، وهـو جالـس في ديوانـه لـم يقـم لهـم ولـم يـرد عليهـم السـلام، فجلسـوا في خجـل وإحـراج يهنئونـه بعودتـه سـالمًا ولـم يجبهـم هـو بكلمـة ولا بإشـارة.

في أحـد الأيـام طلـب أحـد مـن العامـة مقابلـة محمـد عـلي باشـا وهـو في قلعتـه، يتابـع أمـور الدولـة، ويراجـع مـع محتسـبه الأمـوال الـتي حصلهـا، فلـم يمانـع في مقابلتـه، دخـل الرجـل عليـه وكان زيـه بسـيطًا لا يبـدو عليـه أنـه مـن أغنيـاء المحروسـة أو عليـة القـوم، ولـم يُسـمع بـه مـن قبـل، اسـتغرب الـوالي لمـا قـدم الرجـل لـه نفسـه، باسـم حسـين شـلبي عجـوة، ضحـك الـوالي وجلـج صـوت ضحكتـه في أركان القاعـة، فقـد كان أول مـرة يسـمع باسـم كهـذا، لـم يضطـرب الرجـل ولـم يتراجـع مـن ضحـك الـوالي عـلى لقبـه، لكنـه تابـع بعـد أن سـكت الـوالي وأمـره بالمتابعـة وقـال:

- جئـت أعـرض عليـك يـا جنـاب الـوالي، مـا تفتـق عنـه عقـلي، فقـد اخترعـت آلـة لـضرب الأرز وتبييضـه.

اتسـعت عينـا الـوالي غـير مصـدق، أن أحـد أبنـاء هـذه البلـد يمكنـه أن يخـترع شـيئًا، لكـن حسـين عجـوة حـضر ومعـه نمـوذجٍ لمـا اخـترع، وقدمهـا وشرحهـا لمحمـد عـلي باشـا الـذي أعجـب بمـا قدمـه الرجـل لـه وقـال:

- إن في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف.

أنعـم الباشـا الـوالي عـلى حسـين عجـوة بمكافـأة، وأمـره بتركيـب واحـدة في دميـاط، وأخـرى في رشـيد، وأمـر وزرائـه وموظفيـه بمسـاعدته، بعدهـا شرع عـلى الفـور في إنشـاء مدرسـة للهندسـة، فأمـر ببنـاء مدرسـة بحـوش

السرايا بالقلعة، وجمع فيها ما يقرب من ثمانين شخصًا من أبناء المصريين الذين فيهم قابلية للتعليم، مع مجموعة من مماليكه، يتعلمون فيها مجانًا، وعين لهم حسن أفندي المعروف بالدرويش الموصلي معلمًا، بالمشاركة مع روح الدين أفندي وهو رجل رومي عثماني، واجتلب عددًا من المعلمين من أوروبا، وجهز الطلبة بمجموعة من آلات هندسية متنوعة، وسميت المدرسة بالمهندسخانة، يتجمعون الطلاب فيها للدراسة كل صباح حتى الظهيرة، ثم ينزلون من القلعة لبيوتهم، وفي بعض الأيام يخرجون معًا إلى الخلاء لتعلم مساحات الأراضي وقياساتها بالأقصاب.

ومن حسن تعامل محمد علي باشا معهم، أنه جعل لكل واحد منهم شهرية وكسوة في آخر السنة، وكان يمنح الفقراء منهم الكسوة مبكرًا حتى يكون مظهره لائق بين أقرانه، فلا يشعر أنه فقير أو أقل شأنًا وسط زملائه.

في تلك الفترة كلف محمد علي باشا ابنه طوسون باشا بعد عودته من حربه مع الوهابيين بتولي قيادة الفرق المكلفة بالمرابطة على فرع رشيد، وكان ذلك إثر تخطيط من الباشا الوالي بتوزيع الجنود في أنحاء البلاد بعيدًا عن المحروسة بعد التمرد والعصيان الذي افتعلوه من قبل، اتخذ طوسون باشا معسكره في برنبال بالقرب من رشيد، وتوفي هناك بعد فترة قصيرة من ذهابه، وهو بعدُ صغير، عقب إصابته بمرض غريب قضى عليه في ساعات معدودة، نُقلت جثته على مركب نيلية ودفن في مقابر الإمام الشافعي، حزن أبوه حزنًا شديدًا على وفاته، وحزن معه الناس لوفاة ولده شابًّا ولما كان عليه من شجاعة وكرم بالمصريين.

بعد الوفاة بفترة بسيطة، استقبل محمد علي باشا بالإسكندرية الطلبة الذين أرسلهم من قبل لتعلم النُّظم الخاصة بزراعة أشجار العنب والتوت والليمون والتين التي استحضرها من الأستانة في فترة

سابقة، تقدم إليه أحد الطلبه يدعى يوسف أفندي يحمل طبقًا من الفاكهة الجديدة وعرضها عليه، أعجب بطعمها وسأل الطالب ما اسمها في مصر فأجاب:

- نسميها طوسون باشا.

لم يتوقع الباشا هذا الرد، هاجت عليه أحزانه، وتأثر تأثرًا شديدًا من هذه المجاملة، صمت قليلًا يستجمع أنفاسه التي اختنقت في صدره، ثم قال:

- حسنًا سنسميها يوسف أفندي.

وأمر على الفور أن تخصص أراضي نبروة بالدقهلية ليوسف أفندي ليزرعها ويشرف عليها بنفسه.

بالرغم من تطوير الزراعة في البلاد وعودة الذين أرسلهم محمد علي باشا للبعثات من الخارج بعد أن درسوا أساليب جديدة للزراعة، إلا أن مع الضرائب التي يفرضها والاحتكار الذي تقوم به الدولة بات الفلاحون في حالة تعيسة، فزيادة الحاصلات الزراعية وإقامة العمران لم يتبعها تحسن حالة الفلاح بل ساءت لدرجة اضطرار الكثيرين منهم إلى الهجرة من قراهم، فخربت قرى عديدة بسبب ذلك، اضطرت محمد علي لإصدار أوامره المشددة برجوع الذين هاجروا إلى قراهم، وتهديد من لم يرجع بأشد أنواع العقاب.

تكونت طبقة جديدة من العمال الفنيين بعد انتظامهم في المصانع الكبرى التي أنشأها محمد علي كالترسانة البحرية والحربية والفابريقات، وبالرغم من ازدياد حجم التجارة فإن الناتج كان يعود على الحكومة وعلى الوسطاء من الفرنج الذين كانوا يتبادلون مع الحكومة حركة التجارة الخارجية؛ لذلك اقترنت زيادة حاصلات مصر وتجارتها الخارجية بتضاؤل الثروات الشخصية، ولم ينتفع من هذه الزيادة في الحاصلات سوى الإسكندرية التي اتسعت تجارتها وصارت سوقًا لأقطان القطر المصري وحاصلاته، أما المحلات التجارية في

القاهـرة ودميـاط ورشـيد فقـد هبـط عددهـا عمـا كانـت عليـه مـن قبـل.

كان محمـد عـلي باشـا قـد أمـر بحفـر ترعـة المحموديـة بعـد توليـه الحكـم في البـلاد، لتبـدأ مـن النيـل قـرب قريـة العطـف لتصـل ميـاه النيـل للإسـكندرية عـبر البحـيرة، وليصبـح هنـاك ممـرًا مائيًـا للمراكـب التجاريـة بـين الإسـكندرية ونهـر النيـل، ولتزيـد رقعـة الأراضي الزراعيـة في البـلاد، كان قـد عهـد بتصميـم حفـر ترعـة المحموديـة الى المسـيو كوسـت وهـو مهنـدس فرنـسي، لكـن في أبريـل ١٨١٩، توقـف العمـل بسـبب انتشـار الطاعـون بـين العمـال.

في عـام ١٨٢٠ اسـتقرت أمـور الـوالي كلهـا في حكـم مـصر، وتذكـر المسـيو ليـون الـذي كان يجالسـه أثنـاء إقامتـه عنـد شـوربجي قولـه، يتحـدث معـه ويتعلـم منـه، فأرسـل مـن يبحـث عنـه لمعرفـة مـا آل إليـه أمـره، ونجـح مـن أرسـله في تتبـع أخبـار مسـيو ليـون وعلـم أنه عـاد إلى مرسـيليا، مسـقط رأسـه، فكتـب إليـه رسـالة ألـحَّ عليـه فيهـا بالمجـيء لزيارتـه عـلى ضفـاف النيـل، فأجـاب المسـيو ليـون بقبـول الدعـوة، لكـن هـذه المـرة لـم يتوافـق معـه ملـك المـوت، فمـر بمسـيو ليـون في نفـس اليـوم الـذي كان عينـه لسـفره، بلـغ محمـد عـلي الخـبر المؤلـم وبعـث إلى أخـت المتـوفَّى بكتـاب تعزيـة بليـغ، وأرسـل معهـا هديـة ثمينـة فاخـرة إظهـارًا لاعترافـه بجميـل أخيهـا عليـه.

- ١٥ -

عــاد محمــود إلى بيتــه، اســتقبلته جميلــة أمــه مــع رقُيــة زوجــة أبيــه، واســتقبله شــارعه بالاحتفــال، والأفــراح، لامتــه أمــه عــلى طــول فراقــه، فوعدهــا ألا يفارقهــا مــرة أخــرى وهــو يُقبِّــل كفيهــا، أعــاد فتــح ورشــة والــده، اهتــم بهــا وأعــاد نشــاطها إلى ســيرتها الأولى، كأنــه يحــاول تعويــض الســنوات الــتي ظلــت فيهــا الورشــة مغلقــة، عــاد منــشرح الصــدر لمســتقره الأول، روحــه المتقلبــة النافــرة هــدأت، وشــعر براحــة التائــه الــذي عــاد إلى داره، ولــم تكــن أمــه وزوجــة أبيــه وحدهمــا مــن كانــا في انتظــاره، ليــلى جارتهــم الأرملــة كانــت عــلى شــوق لــه، انتظرتــه طيلــة فــترة غيابــه، مستأنســة بذكــرى الليــالي الــتي قضتهــا معــه، وانتظرتــه في مشربيــة بيتهــا كل ليلــة بعــد عودتــه، تحــاول أن تناديــه دون أن تلفــت انتبــاه أحــد، وفي ليلــة وهــو عائــد مــن ورشــته، بعــد أن غابــت الشــمس في مضجعهــا، كانــت ليــلى في انتظــاره وراء بــاب دارهــا المُــوَارَب، انتهــزت فرصــة مــروره أمــام بابهــا، وجذبتــه مــن ذراعــه للداخــل وأغلقــت البــاب في سرعــة قبــل أن يلمحهــا أحــد، ارتمــت في صــدره تحتضنــه، وتدفــن شــوقها إليــه، كتائهــة في صحــراء عــثرت عــلى ملاذهــا بعــد عــذاب، دفنــت رأســها بــين ضلوعــه تحتمــي بدقــات قلبــه، ورغــم أنــه فوجــئ بمــا حــدث، إلا أن هــذا لــم يمنعــه بعــد تــردد دام للحظــات، أن يلَــفَّ يــده حــول جســدها، ويضمهــا في رفــق وشــوق، يمــرر يــده عــلى شــعرها، ويربــت في حنيــة عــلى كتفهــا، وهــي تهــتز بــين ذراعيــه تبــكي وتنتحــب، تشــعر بقلبهــا ينتفــض بــين جنباتهــا، جذبهــا في رفــق وجلســا عــلى أريكــة قريبــة، وهــي مــا زالــت تحتضنــه، كطفــل يخــشى أن يفقــد أمــه وســط الزحــام، نطقــت بصــوت يغلبــه الشــوق والنحيــب، وأنفاســها تتســارع في عنــف متقطِّــع مصحــوب بالبــكاء، وعضــلات صدرهــا تختلــج في قــوة:

- اشتقت إليك كثيرًا، طيلة هذه السنوات وأنا في انتظارك.

نطق في رفق ورأسها ما زال على صدره:

- وأنا أيضًا.

انتبه عقله لحظة، تلفت فيها حوله وسأل في تخوف:

- أين حماتك؟ أليست هنا؟

ردت وقد بدأ صوتها يهدأ قليلًا:

- لقد ماتت منذ بضعة أشهر قبل وصولك، ومن يومها وأنا أعيش وحدي.

رفعت رأسها تنظر في عينيه، وهي تتحسس ذقنه بأصابعها:

- رفضت أن أعود إلى دار أهلي، فضلتُ أن أكون هنا، في انتظارك.

التقمت شفتيه بين شفتيها، امتصتهما كنحلة تمتص رحيقها، قبلته في وجنتيه ورقبته، جذبت رأسه تدفنه في صدرها، لم يقاوم، كان في شوق لحضن امرأة تشعره بالحياة من جديد، فتحت أزرار قميصها، وجذبت رأسه إليها، أحاطته بذراعيها، وهي تمسك رأسه من الخلف تداعب شعر رأسه وتجذبه أكثر ناحية نهدهيا المستديرين كالتفاحة الطازجة، مرر شفتيه بين نهديها وهو يعتصر خصرها بذراعيه، حتى بدا منها تأوهات خفيفة، أنشبت أظافرها في ظهره، بعد أن أدخلت كفيها من تحت قميصه، ثم نزعته عنه في خفة امرأة محنكة، نهضت وخلعت عن نفسها ملابسها في سرعة، تعرت أمامه في لحظات، جسدها ما يزال مشدودًا، كفتاة في العشرين، حلمتاها مرتفعتان كزبيبتين شهيتين، وثنيات جسمها تدعو الصائم للإفطار، قوامها الممشوق وجسمها الملفوف خلبا لبَّه من جديد، سحبته من يده ودخلت به إلى غرفتها، وعينيه لا تفارق مؤخرتها البيضاء التي تتحرك أمامه في خفة ودلال، تتراقص يمينًا ويسارًا، يكادا يقتلان من يبصرهما، جذبها إليه في قوة، قبلها في عنف ويده تعتصر مؤخرتها

الممتلئـة، حملهـا بـين ذراعيـه في قـوة، وعينـاه لا تفـارق عيناهـا، أراحهـا علـى السريـر، وأحاطـت هـي رأسَّـه بذراعيهـا وجذبتـه إليهـا تقبِّـل شـفتيه مـن جديـد وهـي تحتضنـه في قـوة تحـاول أن تدفنـه بـين ضلوعهـا وفي قلبهـا، قبَّلهـا بشـغف، تركتـه يفعـل بهـا مـا يريـد، داعـب حلمتيهـا، مـرر فاهـه عـلى رقبتهـا، وصدرهـا، وبطنهـا، وفخذيهـا الطريتـين، أفـرغ تعـب وتوتـر السـنوات الـتي عاشـها في قيـظ صحـراء لعينـة، وحـرب لا هـوادة فيهـا، عـلى جسـدها النابـض بالحيـاة والشـوق والحـب، تقلبـت بـين ذراعيـه في مهـارة امـرأة خبـيرة، كسـمكة في شـبكة صيـاد، طالـت لحظـات العشـق بينهمـا حـتى ارتـوت وانطفـأت، هـدأت العواصـف الـتي كانـت تختلـج جنباتهمـا، أراح محمـود رأسـه للخلـف عـلى السريـر يلتقـط أنفاسـه الـتي تتسـارع في قـوة، ووضعـت ليـلى رأسـها عـلى صـدره تقبلـه في حـب وحنـان، تداعـب شـعيرات صـدره الخفيـف بأصابعهـا الناعمـة المكتـنزة، بعـد أن هـدأت النـيران الـتي كانـت تسـتعر في جسـدها، حينهـا اسـتراحت مسـتلقية بجانبـه، قبلتـه عـلى خـده وهـي تهمـس بشـفتيها الرطبتـين بقبلاتـه: «أحبـك» وكأنَّهمـا لـم يفترقـا لسـنوات.

لـم تمـض دقائـق مـن الهُدنـة حـتى صعـدت بشـفاهها مـن جديـد تقبـل شـفتيه في قـوة، وكأول ليلـة بينهمـا مـن سـنوات، يـوم أن نزعـت عنهـا رداء حدادهـا، اعتلتـه، وأدارت هـي المعركـة هـذه المـرة.

تكـررت اللقـاءات بينهمـا، كانـت دائمًـا تنتظـره جـوار بابهـا، يختلسـان أحيانًـا لحظـات في جحيـم مـن القبـل، وأحيانًـا يلتحفـان ببعضهمـا البعـض، جسـدان عاريـان لا يفصلهمـا عـن بعضهمـا شيء، عـروق ملتصقـة ببعضهـا، والجلـد يحتـك بالجلـد يـكاد يومـض شررًا، شـفتاها المرتجفـة تلتصـق بشـفتيه، يغيبـان بعقلهمـا عـن الوجـود، لا يشـعران بما يـدور حولهمـا، الحـرارة المنبعثـة مـن جسـديهما كافيـة لتُشـعل المـكان مـن حولهمـا، نـسي كل شيء وهـو بـين ذراعيهـا، نـسي أيام القتـل والحرب في جزيـرة العـرب، لـم يفكـر في شيء وهـو غـارق بـين أحضانهـا، تنـاسى

كل شيء، كانـت أحيانًـا أصـوات المدافـع وصرخـات الجنـود المتألمـة تعلـو وتتصاعـد في عقلـه، ممتزجـة بأصـوات تأوهاتهـا وقبلاتهمـا تكسر صمـت الأشـياء المحيطـة بهمـا.

حـتى أتى يـوم أخبرتـه فيـه أنهـا تشـكو مـن مغـصٍ شـديد، ينتابهـا بـين الحـين والحـين، وأن الأعشـاب الـتي أحضرتهـا مـن العطـار لـم تنفـع معهـا، أو تهـدأ مـن وجعهـا، اتفـق معهـا أن يذهـب بهـا إلى الطبيـب الفرنـسي الـذي يعيـش قريبًـا مـن المارسـتان - أو المورسـتان كمـا يلفظهـا العامـة - في اليـوم التـالي، بعـد أن ترتـدي الحـبرة واليشـمك، حـتى لا يعرفهـا أحـد لـو رآهـا معـه، تخوفـت في البدايـة، لكنـه أخبرهـا أن الطبيـب لا يعمـل بالمارسـتان ولكنـه يسـكن جـواره فقـط، وهـو معـروف في المحروسـة، اسـتقر في البـلاد ولـم يغادرهـا مـع رحيـل الفرنسـاويين، وفي الميعـاد الـذي اتفقـا عليـه، كان في انتظارهـا جـوار مسـجد البرقوقيـة بمئذنتـه العاليـة وقبتـة الجميلـة المزخرفـة، سـارت خلفـه حـتى ضريـح ومسـجد السـلطان قـلاوون، الضريـح والمسـجد يكونـان الجـزء الأمامـي، والضريـح إلى يمـين المسـجد، وبينهمـا ممـر هـو المدخـل العـام الـذي يقـود إلى المارسـتان، أمـام الممـر مـن الناحيـة الأخـرى كان الطبيـب يسـكن ويسـتقبل مرضـاه، تحرجـت ليـلى أن تكشـف عـن جسـدها أمـام الفرنـسي، إلا أن محمـود طمأنهـا لوجـوده، ووجـود زوجـة الطبيـب الـتي تسـاعده وتعمـل ممرضـة معـه، وذكرهـا بالألـم الـذي تعانيـه، وأن مـا مـن سـبيل آخـر لعلاجـه، كشـف عليهـا الفرنـسي في صعوبـة بمسـاعدة زوجتـه، أعطاهـا قليـلًا مـن الـدواء وهـو يخبرهـم أنـه سيُسـكن الألـم قليـلًا، وقـال لمحمـود بعربيتـه الركيكـة، إن تكـرر الألـم وزاد، فمـن الممكـن أن تحتـاج إلى عمليـة، فهـو يشـتبه أن تكـون مصابـه بالتهـاب في المـصران الأعـور، ربمـا يكـون بسـيطًا فـيزول مـع الـدواء، أو يسـتمر فتحتـاج إلى إجـراء عمليـة.

ليلتهـا سـهر قليـلًا معهـا، نامـت جـواره كطفلـة صغـيرة وهـو يمـرر يـده

على شعرها الأسود المسترسل على كتفيها كليل شتاء، تابعها ببصره وحدقتيه تتفرسان في ملامحها الجميلة النائمة كأنه أول مرة يراها، شعرها الأسود مبعثر على ظهرها، وأطرافه تكاد تقترب من مؤخرتها، أزاح بعض شعيرات تغطي وجهها، وأطال النظر فيه، هل يحبها؟! أم هي مجرد امرأة يطفئ معها شهوته؟! لقد شعر بقلق حين أخبره الطبيب الفرنسي أنها من الممكن أن تحتاج لعملية، لا أحد ينجو من هذا النوع من العمليات بسهولة، بالطبع لم يخبرها أن الطبيب سيشق لها بطنها، أخفى عنها الأمر وأخبرها أن الألم سيزول نهائيًا مع الدواء، لكن ماذا سيفعل إن زاد الألم واحتاجت بالفعل لتدخل الطبيب، حينها فقط شعر أنه في احتياج لها جواره، ليس مجرد احتياج لجسدها فقط، بل لوجودها في حياته، هي أول امرأة شعر بها تقتحم قلبه، وأول امرأة يشعر أنه في اشتياق لها، لم ينسها من قبل مع أن له ليالي مع نساء أُخريات، ولم ينسها بعد غيبته سنوات، حين التقاها من جديد، أحس أن لها في قلبه شوق خفي، ربما ضعيف، لكنه كان موجودًا، زاد بقربها منه، واختلط بالخوف عليها بعد أن علم بتعبها.

اقترب من خدها وطبع قبلة حانية طويلة على خدها الأيمن، فتحت على أثرها عينيها في خمول وابتسمت له في نعومة، ثم سقطت في النوم من جديد وهو يمسح بكفه على رأسها، نهض من جوارها وألقى عليها الغطاء، ارتدى ملابسه وانصرف.

بات ليلته على سريره يفكر، هل يتزوجها؟! هل يخبر أمه بما جرى بينهما؟! أم يخبرها فقط أنه يريد أن يتزوجها؟! وماذا سيكون رد فعلها حين يخبرها أنه يريد أن يتزوج من امرأة مترملة؟

في مساء اليوم التالي، دق على باب ليلى، والشمس لم تكد تبلغ مغربها بعد، فتحت له وعلامات الاستغراب تملأ وجهها، تلفتت حولها تنظر مَن في الطريق، فوجدت بضع أُناس ما زالوا يسيرون

فيـه، تحركـت للخلـف في سرعـة حـتى يدخـل دون أن يشـعر بـه أحـد، لكنـه ظـل واقفًـا عـلى البـاب، وسـألها في هـدوء:

- أتتزوجيني؟

اتسـع فاهـا في دهشـة ممزوجـة بفـرح وهـي تغلقـه بكفهـا، اغرورقـت عيناهـا بدمـوع، لـم تعـرف لحلاوتهـا طعـم مـن قبـل، كادت أن تسـقط مغشـية عليهـا، أحسـت أن الأرض تـدور بهـا، مـد محمـود يـده يسـندها، قائـلًا:

- أرجوكِ لا تسقطي الآن، الناس حولنا.

تمالكـت نفسـها، وسـندت بجسـدها عـلى البـاب، وهـي تقـول بصـوت مخنـوق مـن دموعهـا:

- لن أسقط وأنا معك.

رد مبتسمًا:

- هذا يعني أنكِ موافقة على زواجي بكِ؟

أجابت في لهفة:

- بل أوافق على زواجي بك.

ولـولا أنهمـا كانـا عـلى بـاب الـدار والنـاس مـن حولهمـا، لألقـت نفسـها بـين ذراعيـه في سـعادة، ولاحتضنهـا في قـوة واعتصرهـا بـين سـاعديه، لكنهمـا صمتـا، وامتنعـا عـن الـكلام، والصمـت في العينـين، هـو صرخـة المحبـين.

عـاد إلى البيـت، وأثنـاء تنـاول العشـاء مـع أمـه ورقيـة زوجـة أبيـه، نطـق في تـردد:

- لقد قررت أن أتزوج.

تبادلت السيدتان النظرات، واتسعت ابتساماتهما، وقالت أمه:

- أخـيرًا يـا محمـود قـررت أن تُفرحـني بـك، وتحـضر لي أحفـادًا أحملهـم

قبل أن أموت.

نطقت رقية في سعادة:

- ليتني تعلمت الزغاريط من قبل، حتى أُزغرط لك الآن يا محمود، ألف مبروك، عروستك عندي أنا، بنت الشيخ...

قاطعها محمود في لطف:

- أنا أعلم أنكِ ستختاري لي أجمل الفتيات وأحسنهم، ولكن قد وقع اختياري على إحداهن.

نطقت أمه في لهفة:

- أخبرني من هي وسأخطبها لك الليلة.

تردد محمود وهلة، ثم حسم أمره وقال:

ليلى، جارتنا ليلى.

ضربت أمه يدها على صدرها وهي تقول في جزع:

- ليلى أرملة محروس؟!!

وتابعت زوجة أبيه القول:

- هل عليك ندر يا بني حتى تتزوج أرملة، وأكبر منك سنًا أيضًا؟!!

وضع اللقمة من يده على الطبلية وقال في صوت بدا يحمل رنة غضب:

- هذا لا يعيبها، أنتما الاثنتان أرملتان، لا أعتقد أن هذا يعيبكما أو يصيب سمعتكما بشيء مشين.

ساد الصمت لحظات، ثم قطعته أمه وهي تقول في محاولة لتهدئته ومراجعته عما يفكر فيه:

- ليلى جميلة، ولكن البكارى كثير وأجمل منها، دعني أزوجك من بكر تفرح بها وتكون أنت أول بختها.

تابعت رُقية مكملة:

- ربما أغواك جمالها وليونتها في الرايحة والجاية، وتركت في نفسك رغبة إليها، ستزول مع زوجة أخرى بكر صغيرة تمتعك وتتمتع بها.

نهض محمود واقفًا وهو يقول:

- لقد حسمت أمري بالفعل، لا أريد أن أغضبكما ولكني نويت، ولا أريد أن أتزوج وأنتما غير راضيتين أو أتزوج وأبتعد عنكما، أريد أن أتزوجها وأحضرها لتعيش معنا هنا.

تركهما وانصرف إلى غرفته، وتركهما يتبادلان النظرات وهما في حيرة من أمرهما، كانا ينتظران هذا اليوم بفارغ الصبر، خصوصًا أُمه، لكنه فاجأهما باختياره لامرأة مترملة، تكبره في السن، بل وعاقر أيضًا لا تنجب، بات ليلته متأرقًا يرتب كيف يتصرف إن استمرَّا على رفضهما، هل يتزوج ليلى ويعيش معها في دار زوجها الأول، ويكون جوار أمه وزوجه أبيه، أم يتخذ بيتًا آخر بعيدًا عنهما، وكيف يبتعد عنهن وقد صرن كبارًا؟! لا يستطيعا تصريف أمورهما كسابق عهدهما، ولم يعد يقدر على الابتعاد عنهما، ألم يكفهما فترة غيابه؟ لقد تركهما فترة الحرب، وهي فترة ليست بالقصيرة، وسيكون من الصعب عليهما وعليه أيضًا أن يبتعد ويتركهما يعيشا في البيت لحالهما مرة أخرى، ظل ساهرًا حتى غلبه النعاس وهو يسمع المآذن ترفع آذان الفجر.

استيقظ في الصباح على صوت أمه، نهض فزعًا من نومته؛ لأنه لم يتعود على أن توقظه أمه، وهو يسأل:

- ماذا هناك؟

جلست جواره في هدوء وهي تربت على صدره:

- لا شيء يا ولدي، أردت أن أُخبرك أننا لن نقف أمامك، وأمام رغبتك في الزواج من ليلى، فهي على كل حال لم نرى منها ما يسيء أو يضر، وأهلها أُناس طيبون، سنزورها اليوم أنا والست رقية، ثم نذهب بعدها لزيارة أهلها.

لـم يجـد مـا يفعلـه سـوى أن يحـني رأسـه يقبـل يدهـا في حـب، وهـي تمسـح عـلى رأسـه وتربـت عـلى كتفـه، تركتـه وقـد انـشرح صـدره، بعد أن بـات ليلتـه في كـربٍ يفكـر ويدبـر، تنـاول إفطـاره معهمـا على عجـل، وخرج مسرعًـا، يـدق عـلى بـاب ليـلى، يبشرهـا بأخبـار فرحـت لهـا، ويخبرهـا بمـا سـيكون مـن والدتـه والسـيدة رُقيـة، وفي أيـام تمـت الزيجـة، دون فـرح أو بهرجـة أو احتفـال، في حضـور والدهـا وأمهـا وأخواتهـا، وعـادت معـه لبيتـه، بعـد أن فـرش لهـا غرفتـه بفـرش جديـد، وسريـر بأعمـدة نحاسـية لامعـة، مغطـى بناموسـية ورديـة اللـون، يليـق بعروسـة، ورغـم أنهـا لـم تكـن ليلتـه الأولى معهـا، إلا أنهـا كانـت أكـثر جمـالًا وبهـاءً عـن كل مـرة رآهـا فيهـا، سـعادتها أضفـت عليهـا حُسـنًا، وجعلتهـا تبـدو كفتـاة صغـيرة تـتزوج لأول مـرة، حـين أقبـل عليهـا، كانـت جالسـة عـلى طـرف السريـر في حيـاء لـم يألفـه منهـا، لـم تنهـض وتحتضنـه أو تقبلـه كمـا تعـودت، اليـوم هـي عـروس خجـلى، رفـع الخمـار الـذي يخفـي وجههـا، وأمسـك ذقنهـا بأناملـه ورفـع وجههـا لتنظـر إليـه، داعـب وجنتيهـا الناعمتـين، لثـم شـفتيها الرطبتـين بشـفتيه، فأغمضـت عيناهـا لتتـذوق طعـم قبلته، كأنهـا أول قبلـة لهـا في الحيـاة، جلـس جوارهـا، فألقـت برأسـها في صـدره كلبـوة تحتمـي بعريـن أسـدها، ولفَّـت يدهـا حـول خـصره، كأنهـا تخـشى أن تفلتـه فيضيـع منهـا، ضمهـا إليهـا في قـوة، أحسـت بالـدفء والسـكينة بـين ضلوعـه، أراحهـا عـلى السريـر ورقـد جوارهـا، جذبهـا إليـه وأحاطهـا بذراعيـه مـن جديـد، ضمتـه في شـوق بـين أهدابهـا السـاجية، احتضنتـه بذراعيهـا، وأحاطتـه بسـاعديها، أسـقته مـن رحيـق شـفتيها، باتـا ليلتهمـا متعانقـين، دون أن يخلعـا ردائهمـا، نامـت عيـون ليـلى وقلبهـا يرقـص في سـعادة بـين ضلوعهـا، تحقـق حلـم لـم يراودهـا إلا لحظـة، ظنـت فيهـا أنهـا واهمـة.

عاشـا أيامهمـا في هـدوء وسـعادة يُحسـدا عليهـا، رغـم أن أمـه السـيدة جميلـة وزجـة أبيـه السـيدة رُقيـة، كانتـا تعاملانهـا في تحفـظ ممـزوج بـشيء مـن الجفـاء، إلا أن كل هـذا قـد زال بعـد أن بشرهمـا محمـود بـأن

ليـلى تحمـل في بطنهـا طفلهمـا الأول.

انقلـب الحـال، فأصبـح غـير الحـال، صـارت ليـلى سـيدة الـدار المدللة، تطلـب مـا تشـتهي، وتـأكل مـا تفكـر فيـه، منعوهـا مـن أعمـال البيـت، وجُعـل لهـا البيـت واحـةً للراحـة والهنـاء، جاءهـا المخـاض في شـهرها السـابع، فأرسـلت السـيدة جميلـة تسـتدعي الدايـة في عجـل، وأرسـلت مـن ينـادي محمـود مـن عملـه، الـذي تـرك ورشـته وهـرول إلى البيـت في خـوف، دخـل البيـت وصراخ ليـلى يَمـلأ جنبـات الـدار، فسـأل في جـزع:

- ماذا يحدث؟ هل هي بخير؟

نادتـه السـيدة رُقيـة الجالسـة عـلى الكنبـة، وهـي تربـت عـلى الوسـادة المجـاورة لهـا، تدعـوه للجلـوس عليهـا وهـي تقـول:

- اهـدأ، كل شيء عـلى مـا يـرام، كثـيرٌ مـن النسـاء يلـدن في شـهرهن السـابع.

رد في توتر:

- لقـد تركتهـا في الصبـاح وكانـت بخـير، لـم تشـك مـن آلام ولادة ولا حـتى مغـص بسـيط.

ربتت على ساقيه قائلة:

- ادعُ لها الله أن تنهض في سلام.

رأى التوتـر في ملامـح أمـه وهـي تهـرول بـين الغرفـة الـتي تلـد فيهـا ليلى، وبـين مطبخهـا، وبـين بـاب الـدار تسـتدعي إحـدى جاراتهـا، وصلـت أم ليـلى في الحـين، خلعـت عـن كتفيهـا عباءتهـا وألقتهـا جانبًـا وهـي تدخـل مسرعـة للغرفـة، وصراخ ليـلى لا ينقطـع، ثـم انقطـع الـصراخ فجـأة، وسـاد الصمـت، هـدوء هـز أركان البيـت، أثـار الرجفـة في سـاقي محمـود وهـو جالـس، لـم تمـض لحظـات حـتى عـلا صراخ أم ليـلى، والسـيدة جميلـة مـن الداخـل، نهـض في فـزع واقتحـم الغرفـة صارخًـا:

- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟!

دخـل والدايـة تلـف المولـود في قماشـة بيضـاء، وتضعـه جـوار ليـلى الـذي مـال وجهها عـلى جانبـه الأيـسر وهـي تقـول:

- يعوض عليك ربنا.

فسأل في رعب:

- وليلى؟!!

ردت أمه من بين صرختها:

- الاثنان راحَا يا محموووووود.

سـقط محمـود عـلى الأرض كمـن ضربتـه صاعقـة مـن السـماء، لـم تتحمـل ركبتيـه الصمـود، ولـم ينطـق لسانه بكلمـه، زحـف حـتى وصل إلى السريـر، حملتـه ساقاه في ضعـف، حـتى جلس جـوار ليـلى، رفـع رأسـها وضمهـا إليـه ضمتـه الأخـيرة، لـم يسـأل عـن المولـود فهـو لـم يقابلـه ولـم يعرفـه مـن قبـل، أمـا ليـلى كانـت فرحتـه وزهرتـه في فـترة حياتـه الأخـيرة مـن يـوم أن تزوجهـا، لـم يـر معهـا إلا طعـم الفـرح والسـعادة، حـتى مـن قبـل أن يتزوجـا، كانـت الصديـق الـذي يسـمع شـكواه، تضمـه إليهـا في حنـان أقـرب إلى حنـان الأم، كانـت لـه الحيـاة.

تمـت مراسـم الجنـازة في هـدوء، ودفنـت مـع وليدهـا في مقابر الـورداني، بعـد أن رفـض محمـود أن يدفنهمـا في غـير مدافنهمـا، اسـتقبل العـزاء في البيـت ثلاثـة أيـام، أغلـق فيهـا ورشـته حـدادًا، بـدا متماسـكًا صلبًـا أمـام النـاس، إلا أنـه كان يدفـن رأسـه ليـلًاً في مضجـع ليـلى، يستنشـق رائحتهـا الـتي لـم تـزُل بعـد، باكيًـا عـلى فراقهـا، حـتى بعـد انقضـاء أيـام العـزاء، وعودتـه للعمـل في الورشـة، ومحاولاتـه في دفـن نفسـه في العمـل، ظـل عـلى حزنـه وبكائـه ليـلى في ظلمـات ليلـه، كأن الأرض خلـت مـن الحيـاة بعدهـا.

كيـف اسـتطعتي أن تعـبري الدفاعـات والمتاريـس الـتي نصبتهـا حـول قلـبي.. لتطعنيـه بسـحر عينيـكي.. ثـم ترحـلي بعـد أن اسـتبحتي سـفك

دمـي في الأشـهر الحـرم.. وتتركيـنى غارقًـا في ذكـرى حـلاوة طعنتـك..

أحسـت أمـه بمـا يغـرق نفسـه فيـه، وباهتمامـه الزائـد بالورشـة وعملـه، ظـل عـلى هـذا عامًـا ويزيـد، حـتى جـاء يـوم لـم تسـتطع بعـده الصـبر أكـثر، طلبـت منـه أن يـتزوج مـرة أخـرى، رفـض الأمـر كأنـه لا يخصـه أو يعنيـه ثـم قـال:

- ليس لي رغبة في امرأة أخرى، اكتفيت بليلى واحدة في حياتي.

لـم تتركـه، ألحـت في طلبهـا مـرات ومـرات وهـو عـلى رفضـه، صمَّمـت أكـثر عـلى أن ينفِّـذ رغبتهـا، مـرت سـنوات جـاوز فيهـا الثلاثـين وهـو عـلى نفـس الحالـة مـن الرفـض، طعنـت أمـه في السـن وازدادت السـيدة رُقيـة مرضًـا وبـات نظرهـا أضعـف مـن أن تُبـصر ملامحـه، حـتى جـاء اليـوم الـذي قالـت لـه فيـه غاضبـة:

- سـأخطب لـك وسـآتي لـك بالعروسـة هنـا غصبًـا عنـك، لـن أدعـك تعيـش بقيـة حياتـك مترهبنًـا.

ألحـت عليـه أيضًـا رُقيـة زوجـة أبيـه الـتي تدهـورت حالتهـا الصحيـة أكـثر في فترتهـا الأخـيرة، وبعـد معانـاة الجميـع بـين الإلحـاح والرفـض، رضـخ، لـم يسـتطع أن يقـاوم أمـام إلحـاح المرأتـين، حينهـا كان في الثالثة والثلاثـين، لمـا دفعتـه أمـه للـزواج دفعًـا، لكـن هـذه المـرة اختـارت لـه هـي، فتـاة مـن إحـدى البيـوت الطيبـة، بعـد أن لفـت، ودارت، ودخلـت بيـوت عـدة.

اختـارت لـه أخـيرًا بعـد بضعـة أسـابيع مـن البحـث والفـرز والتـأني، مريـم بنـت السـيد مصطفـى عبدالرحمـن واحـد مـن أشـهر صانعـي الأسـلحة في سـوق السـلاح، كان يصنـع الأسـلحة البيضـاء كالسـيوف والسـكاكين، بالإضافـة إلى إصـلاح بعـض الأسـلحة كالغـدارات، كان يتمتـع بسـيرة طيبـة بـين جيرانـه، وأقرانـه، وبالطبـع محمـود ورث عـن أبيـه سـمعته وسـيرته الحسـنة أيضًـا، ولـم يكـن أحـد يعـرف عـن حياتـه السـابقة الخفيـة الـتي قضاهـا قبـل سـفره لجزيـرة العـرب شـيئًا، اتخـذ

بيتًا جديـدًا في الرويعـي، لـم يقـدر أن يـتزوج بأخـرى ويدخـل بهـا في بيـت ليـلى، وفي غرفتهـا، أو عـلى سريرهـا.

كانـت مريـم عـلى علـم بحبـه الشـديد وتعلقـه بزوجتـه الأولى، تقبلـت الأمـر وتعاطفـت معـه، لـم تكـن تغضـب حـين يخطـئ ويناديهـا بليـلى أحيانًـا، أو حـين تـراه شـاردًا سـاكنًا لا يتكلـم، كانـت في داخلهـا تعـرف أنـه يفكـر فيهـا، ويتذكـر ذكرياتـه معهـا، إلا أنهـا كانـت تُصـبِّر نفسـها وتقـول لنفسـها: «لـن أغـار مـن امـرأة ماتـت ورحلـت عـن دنيانـا».

ورغـم أنـه كان يعاملهـا بلطـف، إلا أنهـا كانـت تشـعر أنهـا لـم تـزل خـارج قلبـه، فقـط تعيـش معـه دنيـاه، أقسـمت في داخلهـا أن تعوضـه عنهـا وأن تجذبـه إليهـا وتنسـيه ليـلى ودنيـاه السـابقة، داومـت عـلى أن توقظـه صباحًـا وتقبلـه، تُجهـز لـه ملابسـه للخـروج، وتُعـد له أخـرى حين عودتـه، اهتمـت بـكل تفاصيـل حياتـه اليوميـة، حـتى إنهـا كانـت ترسـل لها بعـض الطعـام الخفيـف، أو بعضًـا مـن حلويات تعدها بنفسـها وترسـلها إليـه في الورشـة مـع مرسـال، تسـتقبله في المسـاء بابتسـامة لا تختفـي مهمـا كان بهـا مـن تعـب، تحـضر لـه العشـاء، وتسـاعد أمـه وزوجـه أبيـه، لإرضائـه، لـم تخجـل أن تناولـه بعـض اللقيمـات في فمـه أمـام أمـه، والسـيدة رُقيـة، فـكان يتقبلهـا في خجـل، مربتًـا عـلى يدهـا شـاكرًا، حـتى أتى يـوم أخبرتـه فيهـا بأنـه حبـلى، ابتسـم في سـعادة واحتضنهـا، فغاصـت بـين ذراعيـه، لتشـعر بهـدوء مـع دقـات قلبـه الرتيبـة.

لـم تـترك نفسـها أثـيرة لفـراش الراحـة أثنـاء الحمـل، ظلـت عـلى حالهـا كتفًـا بكتـف مـع سـيدات الـدار الأُخريـات، حـتى لمـا ماتـت السـيدة رقُيـة وهـي في آخـر شـهرها الخامـس، وقفـت تسـاعد في العـزاء واسـتقبال المعزيـات، وإعـداد الطعـام ولـم تـترك السـيدة جميلـة لحالهـا، طـوال فـترة العـزاء والحـداد، مـن بدايـة حملهـا شـعرت أن محمـود أكـثر قربًـا لهـا عـن ذكـرى ليـلى، ربمـا لـم ينسـه بعـد، لكـن المهـم لهـا الآن أنهـا تشـعر بقربـه منهـا، ووجـوده جوارهـا بعقلـه وقلبـه، وليـس بجسـده

فقط، على الأقل أغلب الأوقات، ولما جاءت لحظة الولادة، عاودت محمود ذكرياته الأليمة، شعر بخوف شديد أن يتكرر ما حدث مع ليلى، وأن يفقد مريم أيضًا وطفله من جديد، اليوم هو بحاجة لهذا الطفل، ليشعر أن له فرع على الأرض، ليشعر أن عنده سببًا للحياة من أجله، تعالى صراخ مريم من الغرفة، رأى نفس ما حدث من قبل، أمه رغم ضعفها وتعبها مع الأيام، تتحرك جيئة وعودة بين المطبخ والغرفة، أم مريم التي وصلت وخلعت عباءتها وألقت بها على الكنبة جواره، هبَّ من جلسته وتحرك ناحية الباب ليبتعد عن الدار حتى تصله الأخبار، فلم يعد يستطيع أن يتحمل ما حدث مرة أخرى، فتح باب الدار وقبل أن يخطو منه للخارج، ارتفع صراخ طفل من الغرفة، اخترق أذنه كألف آلة موسيقية، تطرب لها الآذان، عاد مسرعًا يقتحم باب الغرفة، وجد مريم منهكة الملامح تحتضن رضيعها في حب وحنان، استقبلته أمه بضمة قوية وهي تقول:

- أخيرًا رأيت خلفك يا بني.

والداية تلملم في حاجاتها وهي تقول:

- مبروك ما جالك، ربنا عوض عليك بخير، ولد زي الفل.

اتجه ناحية مريم، ضم رأسها في صدره في قوة مليئة بحب وحنان:

- حمدًا لله على سلامتك.

ثم حمل محمود الوليد ورفعه لأعلى وهو يقول:

- علي سأسميه علي.. علي محمود علي أحمد الورداني.

ارتفعت أصوات الزغاريط من أم مريم والداية، ثم أعقبها زغاريط من الجيران بعد أن علموا بالخبر.

استمرت الحياة هادئة، مستقرة، رزق فيها السيد محمود بحسن من بعد علي ثم بهند، لم يعكر صفو حياتهم إلا وفاة أمه السيدة مريم، بعد أن طَعنت في السن، انتقلت إلى ربها وهي تحمل هند

على ساقيها المتربعتين، تهدهدها وتغني لها.

رحلت في هدوء، وأبكت أهل الدار من ولدٍ وزوجة ولد وأحفاد، كانوا في تعلق شديد بها، حتى هند التي كانت بضعة أشهر ولم تكمل العام، شعرت بفقدها وغيابها عن الدار، فكانت تبكي وهي تبحث عنها في غرفتها، وفي أرجاء الدار وتسأل عن مكانها أين ذهبت.

- ١٦ -

كان الأطباء في الغالب من جالية بلاد المغرب يطببون بالحجامة والكي والفصد، ولم يكن هناك أي نوع من مدارس تعليم الطب في البلاد، لكن بعض هؤلاء الأطباء المغاربة كانوا يلقون دروسًا من تلقاء أنفسهم على من يرغب في تلك الصناعة من أهل البلاد أو غيرهم في البيمارستان المنصوري بالنحاسين، أو في أروقة الجامع الأزهر، أو في بيوتهم، وكانوا يتعلمون مما كُتب في العصور الإسلامية القديمة، كعصر العباسيين أو الفاطميين أو غيرهما.

في البداية كانت رغبة محمد علي باشا في وجود طبيب للجيش، فاستقدم أحدهم من أوروبا، منعًا لتفشي الأمراض في جيشه، استقدم كلوت بك وهو فرنسي الجنس والنزعة، واسمه الأصلي أنطون برطلمي كلوت، وُلد في جرينوبل بفرنسا عام ١٧٩٣ من أبوين فقيرين، عاش حياته في فقر وضيق، رغم ذلك وعلى صغره كان مولعًا بتشريح الحشرات ودرس طبائعها، انتقل إلى برينول بعد وفاة والده، عمل مساعدًا لصديق والده الدكتور سابيه، يرافقه في أعماله الطبية، ويتمرَّن على الجراحة، وكان كلوت يطالع ذلك العلم بنفسه لساعات، حتى قرأ كتاب الجراحة من تأليف لافا، فرأى أن برينول لا تفي بما تجنح إليه نفسه، ولا تروي مطامعه، فنزح إلى مرسيليا رغم إرادة والدته التي كانت شديدة التعلق به، لكنه كبح جماح عواطفه وأصر على الرحيل، ولم يلاق فيها إلا الفقر والفشل، فاضطر إلى العمل حلاقًا، عاد بعدها إلى بلدته، والتحق بالدراسة في مستشفاها بعد تكرار الالتماس، أتم دروسه رغم فقره عام ١٨١٧، وعين طبيبًا صحيًّا ثم نال الدكتوراة عام ١٨٢٠ بشق الأنفس نتيجة فقره الشديد، سافر بعدها عائدًا إلى مرسيليا وعمل فيها طبيبًا ثانيًا

بمستشـفى الصدقـة ومستشـارًا جراحيًّـا بمستشـفى الأيتـام، ثـم أقيـل بعـد فـترة، في تلـك الأيـام كان محمـد علـي قـد أوكل لمسـيو تورنـو -وكان تاجـرًا فرنسـيًّا- اختيـار مـن يليـق بمنصـب طبيـب لجيـش البـلاد، فـكان أن تقابـل مـع كلـوت عـام ١٨٢٥ وعـرض عليـه المنصب فوافـق لمـا علـم أن البـلاد تفتقـر إلى الطـب وتحتـاج إلى إصـلاح طـبي واسـع.

عهـد إليـه محمـد علـي تنظيـم الإدارة الصحيـة للجيـش المـصري، وجعلـه رئيـس أطبـاء الجيـش فعـني بتنظيـم هـذه الإدارة عنايـة تامـة، بعـد فـترة أشـار علـى محمـد علـي باشـا بإنشـاء مستشـفى عسكري بـأبي زعبـل بجـوار المعسـكر العـام، فوافـق علـى اقتراحـه وأنشـأ المستشـفى الـذي صـار فيمـا بعـد مستشـفى عامًّـا لمعالجـة الجنـود وغيرهـم، ثـم خطـر لـه أن ينشئ بجـوار المستشـفى المذكـور مدرسـة لتخريـج الأطبـاء مـن أبنـاء البـلاد.

فأصـدر محمـد علـي أوامـره بالـشروع في بنـاء مدرسـة الطـب سـنة ١٨٢٧ اسـتجابة لاقـتراح كلـوت بـك، وكان مقرهـا في أبي زعبـل حيـث المستشـفى العسـكري، فأنشـئت المدرسـة بالمستشـفى؛ لأنـه المـكان الوحيـد المناسـب لإيـواء المدرسـة وذلـك لتوفـر وسـائل التعليـم الطـبي والتمرين كان الغـرض منهـا في البدايـة تخريـج الأطبـاء المصريـين للجيـش، ثـم صـار الغـرض عامًّـا لمَّـا صـار الأطبـاء يـؤدون الأعمـال الصحيـة للجيـش وللبـلاد عامـة.

اختـارت الحكومـة للمدرسـة مائـة تلميـذ مـن طلبـة الأزهـر في البدايـة، وتـولى إدارتهـا وإدارة المستشـفى كلـوت بـك، الـذي اختـار لهـا طائفـة مـن خـيرة الأسـاتذة الأوروبيـين ومعظمهـم مـن الفرنسـيين يُدرِّسـون علـوم التشريـح والجراحـة، والأمـراض الباطنيـة، والمـادة الطبيـة، وعلـم الصحـة، والصيدلـة، والطـب الشرعـي، والطبيعـة، والكيميـاء، والنبـات، وكان فيهـا أسـاتذة آخـرون لتدريـس اللغـة الفرنسـية للتلاميـذ الأزهريـين.

كان المقـرر جعـل التعليـم باللغـة العربيـة، لكـن الأسـاتذة الأجانـب

الذين حضروا لم يكونوا على دراية باللغة العربية، فتم اختيار مترجمون لهم يجيدون اللغتين الفرنسية والعربية، فكان المدرس يأتي للتدريس ومعه المترجم فيلقي الدرس بالفرنسية وينقله المترجم إلى العربية، ويكتبه التلاميذ بخطوطهم في كراريسهم، وألحقت بالمستشفى حديقة للنبات فيها كل ما تُنبت الأرض من العقاقير والنباتات النادرة.

وقد ألحق بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة، ثم مدرسة للقابلات والولادة، واختيرت لمدرسة الولادة، طائفة من السودانيات والحبشيات تعلمن فيها اللغة العربية وفن الولادة، بعد أن واجهتهن صعوبة كبيرة في العثور على طالبات مصريات للمدرسة.

وبمشورة أصدقائه الفرنسيين، وجه محمد علي باشا عنايته للوثائق وضبط إداراتها والسيطرة عليها، فأنشأ محمد علي الدفتر خانة عام ١٨٢٨ بهدف جمع وتنظيم إدارة الوثائق.

بعد خمس سنوات من إنشاء المدرسة تخرجت الطائفة الأولى، اختير من بينهم العشرون المتفوقون على أقرانهم، بقي منهم ثمانية في المدرسة في وظيفة معيدين للدروس، وأرسل الاثنا عشر الباقون إلى باريس لإتقان علوم الطب وإتمامها، فلما عادوا عُيِّنُوا أساتذة في المدرسة.

في عام ١٨٣٢ أنعم محمد علي باشا على دكتور كلوت بلقب بك، دون الحاجة للتخلي عن دينه، عندما قام هو وتلاميذه بإنقاذ ستين ألف طفل من وباء الجدري عندما طبق نظام التطعيم السنوي على الأطفال وكذلك مقاومته لوباء الكوليرا.

- ١٧ -

مدينـة دميـاط في تلـك الأيـام كانـت مدينـة كبـيرة، يعـج ميناؤهـا بالحركـة، يختلـط في شـوارعها الأجانـب والمصريـون عـلى اختـلاف انتماءاتهـم وألوانهـم ودينهـم، شـهدت المدينـة تميـزًا ضـد الأجانـب والأقليـات؛ ذلـك لأنهـا كانـت مقـر سـجن الجنـود الأجانـب الفارِّيـن مـن جيـش محمـد عـلي، كمـا كانـت منفـى للجماعـات السياسـية أو الأشـخاص غـير المرغـوب فيهـم أو المغضـوب عليهـم، وكان يُنظـر إلى المسـيحيين فيهـا عـلى أنهـم ممـن تخلفـوا منـذ عهـد الحمـلات الصليبيـة عـلى البلاد، ورغـم تصرفـات الـوالي وأوامـره الدائمـة بعـدم التفرقـة في التعامـل بـين المسـلمين والمسـيحيين في كل أنحـاء البـلاد، وأن القانـون مفـروض عـلى الـكل جمعـاء وسواسـية، إلا أن المدينـة لـم تخـلُ كسـائر المـدن مـن الأحـداث الطائفيـة الـتي يشـعلها جهـلاء المدينـة، فقـد حـدث في المدينة عـدد مـن الحـوادث الطائفيـة، مـن قبـل كان يتـم إنهاؤهـا أغلـب الأوقات بالتصالـح عـن طريـق الشـيوخ والعلمـاء وقساوسـة البلـد، لكـن في يـوم دافئ مـن أيـام شـهر مـارس، بـدأت مشـاجرة كان طرفاهـا باسـيلي الخـولي وهـو موظـف مسـيحي بقنصليـة الإمبراطوريـة النمسـاوية، ودرويـش التاجـوري التاجـر السـكندري المسـلم، دبَّـت بينهمـا مشـاجرة عـلى خلفيـة معامـلات ماليـة، لكنهـا سرعـان مـا تحولـت إلى خـلاف طائفـي، تعظـم ليصبـح معركـة داميـة بـين المسـلمين والمسـيحيين في شـوارع المدينـة، تلـك الحادثـة تسـببت في شـحن النفـوس وتعبئتهـا مـن كلا الطرفـين، فأصبـح كل طـرف يتربـص بالآخـر، ينتظـر منـه هفـوة ليشـعل عـلى أثرهـا النـار، لينفـخ فيهـا حـتى تحـرق الأخـضر واليابـس.

ورغـم محـاولات العقـلاء في تهدئـة النفـوس، إلا أنـه بعـد أيـام عـدة حـدث احتـكاك بـين النـاس عـلى الطريـق المـؤدي للكنيسـة، فتجمهـر

الناس مشحونين بأحداث الأيام السابقة، أتى مفتي المدينة وكان بالقرب منهم، في محاولة لنزع الفتيل قبل الاشتعال، حدثه بعض الواقفين عن أن سيدهم بشاي مارسيدهم تطاول على الإسلام والمسلمين وأساء للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم، حاول حل الموقف وإنهائه، لكنه لم ينجح نتيجة الجهل والعمى الذي في القلوب، فلجأ العسكر في المدينة إلى إنهاء الموقف في سرعة، خوفًا من اشتعال الفتنة والاضطرابات من جديد، وألقوا القبض على مارسيدهم ووجهوا له تهمة ازدراء الإسلام بناءً على ما قيل من المتجمهرين.

تمت المحاكمة في حضور المحافظ خليل أغا والشيخ علي خفاجة والشيخ البدري ونقيب الأشراف في دمياط، مع نفر من التجار، وأميرلاي الرديف، وبالطبع تمت إدانته، بعد أن شهد عليه اثنان أحدهما بربري والآخر حمَّار، حُكم عليه بالاستتابة أو الجلد حتى الموت، هلل الناس وفرحوا بالحكم، وهاجوا على الرجل في المحكمة، وعمت الفوضى المكان، واضطربت المحكمة، وفقد العسكر السيطرة على الأمور، اشتعل الموقف في دقائق وتحول تنفيذ الحكم على مارسيدهم إلى فوضى تامة لا سيطرة فيها لأي شخص على أي شيء، العامة تملكهم الجنون والغضب الأعمى، اختطفوا مارسيدهم من أيدي العسكر، وتجاذبوا جسده فيما بينهم تنفيذًا لحكمهم الشخصي عليه، قاموا بجلده حتى سالت منه الدماء، وعذبوه وسحلوه في طرقات المدينة، ثم أركبوه جاموسة بالمقلوب اتباعًا للعرف السائد للتجريس بالناس، وطافوا به في المدينة، وهم ينخسونه بسياخ حديدية بين الحين والحين، تحولت المدينة كلها لحالة من الجنون والفوضى كمن أصابهم مرض معدٍ تفشى بينهم وانتشر في أبدانهم وقلوبهم، تجمعوا كالذئاب المسعورة التي تلتف حول فريستها، أعماهم الغضب والجهل، وساقتهم الحماقة كما تساق الدواب، حتى إن أحد الموجودين أفرغ على رأس الرجل القطران الساخن وهو

حيٌّ، ولم تهزهم صراخاته ولا توسلاته، ولم يتركوه حتى صار على وشك الموت، فألقوه أمام الدار، فحمل إلى منزله حيث توفي بعد خمسة أيام على أثر العذابات التي احتملها.

وصل الأمر إلى محمد علي باشا، فثارت غضبته على عدم تنفيذ القانون، وتراخي المسئولين وجنوده في دمياط، أرسل من يحقق في الفوضى التي حلت بالمدينة، وكيف آل الأمر إلى هذه الفوضى التامة، بعد تقاعس الجنود وتخليهم عن أوامرهم الأصلية.

وتمت إدانة المحافظ والقاضي والشيخ البدري وحكم عليهم بتجريدهم من مناصبهم؛ لأنهم ساهموا في خلق الأحداث بتقاعسهم عن منعها، وعدم الأخذ بالحزم والشدة لتنفيذ الحق والقانون.

شُيعت جنازة مارسيدهم رسميًّا، بأمر الباشا الوالي، الذي أمر بتكريم ذكراه في كل أنحاء مصر وأصدر أمره للمرة الأولى برفع الأعلام الكنسية والصلبان في الجنازة، استقبلت الطوائف المسيحية الخبر بالابتهاج، وسار الموكب الجنائزي في الطريق يتقدمه الكهنة في ملابسهم الكهنوتية لأول مرة في العلن، وعلى رأسهم القمص يوسف ميخائيل وطافوا أرجاء دمياط، مع مجموعة من الشمامسة، على مرأى ومسمع العامة من الطرفين، حتى وصلوا بالجثمان والجنازة إلى موقع كنيسة مارجرجس، حيث أتموا مراسم الصلاة، وقاموا بدفنه بأرض الكنيسة، حيث مدافن أقباط أهل دمياط.

- ١٨ -

القاهرة ١٨٣٥

الثاني عشر من رمضان..

والجـو مـا زال عـلى حرارتـه المرتفعـة، والنـاس في صيامهـم متماسـكون في إخـلاص، مـن مطلع الفجـر إلى غـروب الشـمس، إلا مـن غضـب عليـه ربـه وأفطـر سرًّا أو جهـرًا عـلى شربـة مـاء وبضـع لقيمـات، البعـض يجلس عاطـلًا ممسـكًا بعصـا مزركشـة أو مسـبحة في يـده، وهنـاك أولادٌ يصومـون لأول مـرة وربمـا بعـض الرجـال أيضًـا، يسـلون أنفسـهم ببعـض الألعـاب الصبيانيـة، ليظهـر عليهـم أن الصيـام لـم ينجـح في مسـاعدتهم عـلى تهذيـب حـدة طبعهـم، فكانـوا يتناحـرون ويتبادلـون الألفـاظ والسـباب.

انشـغل النـاس وامتـلأت أحاديثهـم في هـذه الأيـام بحـال النيـل الـذي يرتفـع مـن فـترة واسـتمر حـتى اليـوم الثامـن عـشر مـن شـهر أغسـطس، ويسـبب لهـم قلقًـا شـديدًا، وخوفًـا مـن تفـشي الطاعـون حينمـا تنحسر ميـاه الفيضـان، لـم يتأخـر انحسـار المـاء مـن قبـل كل هـذه الفـترة مـن قبـل، لقـد غمـرت الميـاة الجـزء الأسـفل مـن بعـض المنـازل المنخفضـة، بـل ربمـا وصلـت إلى ارتفـاع قـدم أو أكـثر قليـلًا في بعـض شـوارع القاهـرة وتدفقـت إلى العديـد مـن البيـوت.

كمـا شـغلهم في الفـترة السـابقة، الوبـاء الممـض الـذي عـم بـين الأبقـار في الأشـهر الثـلاث الـتي سـبقت رمضـان، سرى الخـوف بـين النـاس كالنـار في الهشـيم وخشـوا أن يتحـول إلى طاعـون بـين النـاس يفتـك بهـم، الـكل سـمع حكايـات كثـيرة عـن معانـاة النـاس مـن تفـشي هـذا الوبـاء اللعـين مـن قبـل، امتنـع النـاس مـن حينهـا عـن تنـاول اللحـوم وشرائهـا،

الخسـارة الفادحـة عـانى منهـا الفلاحـون البائسـون الذيـن يمتلكـون ماشـية، أمـا أثريـاء البلـد كانـت خسـارتهم باهظـة جـدًّا، العديـد مـن الأبقـار والجامـوس الميـت شُـهدت راقـدة في النهـر وعـلى جانبيـه، وحـتى الآن مـا يـزال هنـاك أعـداد كبـيرة مـن المـواشي تمـوت في كل أرجـاء البـلاد.

لـم تكـن تلـك السـنة الأول الـتي يصـوم فيهـا عـلي وحسـن، لكـن كانـت الأولى لهنـد الـتي أصرت عـلى الصـوم والتماسـك حـتى أذان المغـرب مـن أول يـوم، رغـم شـدة الحـر.

وقفـت في مشربيـة النافـذة المطلـة عـلى الشـارع أمـام البيـت، تتفـرج عـلى الغَادِيـنَ والرَّائِحِـينَ، قبـل أن يعلـو صـوت المـؤذن بالمغـرب، عـلي وحسـن كفًّـا عـن الذهـاب إلى الورشـة مـن أول الشـهر، لشـدة الحـر وكسـلهم، رغـم أنهـم لا يعملـون فيهـا، بـل ربمـا يذهبـون تمضيـة لوقتهـم، أو إرضـاءً لأبيهـم، ينامـان طـوال النهـار تقريبًـا، ولا يسـتيقظان إلا بعـد العـصر، أو قبيـل المغـرب بقليـل، حـين تنـادي عليهـم هنـد عندمـا تـرى والدهـا يقـترب ويظهـر عـلى ناصيـة الشـارع، واليـوم مـا أن لمحتـه حـتى جـرت إلى غرفتهـم تـصرخ مناديـة عليهمـا بصوتهـا الطفـولي وسـنواتها الخمـس وبراءتهـا قائلـة:

- استيقظا.. استيقظا.. محمود الورداني وصل على أول الشارع.

ابتسـمت الأم في الـدور الأرضي وهـي تضـع حلـة الأرز في الفـرن وتنهـض ممسـكة ببطنهـا المنتفخـة قليـلًا الـتي تحمـل جنينًـا في شـهره الثالـث، بعـد أن سـمعت صـوت زينـب تنـادي عـلى إخوتهـا، قفـز الاثنـان مـن عـلى السريـر، كمـن مسـهم مـن الشـيطان مـسٌّ، يتخبطـون في بعضهمـا ويتسـابقان إلى غسـل وجههمـا ببعـض المـاء، لإزالـة أثـر النـوم وربمـا بعـض مـن أثـار السـهر، قبـل أن يصـل السـيد محمـود الـورداني ويـرى عليهمـا آثـار نـوم النهـار ويوبخهمـا، مـا إن دخـل الأب البيـت حـتى اسـتقبلته هنـد قافـزة عليـه فاحتضنهـا وحملهـا عـلى ذراعيـه، بينمـا عـلي وحسـن يـنزلان مـن عـلى السـلم ذي الدرابزيـن الخشـبي الـذي

يـئن بخفـوت تحـت أقدامهمـا الصغـيرة، اقتربـا ليسـلما عـلى والديهمـا ويقبـلان يديـه، ضحكـت هنـد وقالـت كمـا تفعـل في كل مـرة:

- أبي، إن علي وحسن كانا نائمين، واستيقظا حين علما بوصولك.

نظـر إليهـا الولـدان في غيـظ وضيـق، والأب يبتسـم في حنـان ويحتضنهـا سا ئلًا :

- وأنتِ ما رأيك؟ ماذا نفعل معهما؟

ردت مبتسمة:

- نتركهما، ربما غدًا يكبران ويعقلان.

أنزلها على الأرض وهو يوجه حديثه إلى الولدين:

- أنتمـا تنامـان طـول النهـار ولا تشـعران بحـلاوة الصـوم كمـا تفعـل هنـد.

رد عليه الأصغر مبتسمًا بركن فمه الأيمن ابتسامة صغيرة في خبث:

- نوم الصائم عبادة.

ضحكت السيدة مريم وهي تقول:

- مـا زلـوا صغـارًا، لا تكـن حازمًـا معهـم في هـذه الأيـام، تلـك أيـام مباركـة.

جلـس محمـود الـورداني متكئًـا عـلى الدكـة بعـد أن دخـل غرفـة الجلوس وهنـد تجـري تجلـس ملاصقـة فيـه وهـو يتعجـب مـن قـول زوجته:

- أيـن هـذا الحـزم؟ لقـد امتنعـا عـن المجـيء للورشـة نهـارًا، وهمـا غـير منتظمـين في الذهـاب للشـيخ عبـدالله القنـاوي ليحفظهمـا القـرآن، وفـوق هـذا ينامـان طـوال النهـار فتضيـع عليهمـا صلاتـا الظهـر والعصر، وأحيانًـا ينامـان قبيـل أذان الفجـر بقليـل فتضيـع عليهمـا صـلاة الصبـح أيضًـا.

رد علي:

- نحن نستيقظ نصلي الظهر وننام ثم نستيقظ لنصلي العصر...

قاطعته هند وهي تحرك يديها الصغيرتين وتضمهما على صدرها قائلة:

- وننام أيضًا.

ضمها إليه أبوها في حب وحنان وهم يضحكون جميعًا على قولها وطريقتها، نهضت مريم تتابع الأكل الذي وضعته في الفرن، وتركتهم جالسين وهند تواصل حديثها مع والدها:

- اليوم وأنا أقف في المشربية في انتظارك لمحت امرأة تقود رجلًا ضريرًا من يده، تحمل غليونًا جاهزًا للتدخين، الرجل عجوزٌ وظهره محنيٌّ، وحزنتُ لأنه كان يبدو عليه التعب والعطش من الصيام وخُفت أن يلحقه أذى من الصيام أو يموت، فقد كان يسعل في شدة.

رد الورداني وهو يربت عليها:

- إن الله سيكافئهما بثواب عظيم لتحملهما الصيام في هذا الحر، الله يعينهما كما يعيننا على الصوم في هذه الأيام.

تساءلت من جديد:

- لكن أبانوب والسيد إبراهيم والسيدة عصابات يشربان الماء في السر، لقد رأيتهم من قبل.

أجاب علي:

- لقد قلت لك أكثر من مرة إن اسمها إليصابات وليس عصابات، كما أنهم غير مسلمين مثلنا.

ردت في استغراب شديد وتعجب بدا على ملامحها الدقيقة:

- وهل هذا سببٌ ليفطروا من أجله في رمضان.

ارتفعت ضحكاتهم والأب يقول:

- إن الصوم في رمضان للمسلمين فقط، وهم لهم أيام أخرى

يصومونهـا، كمـا أن صومهـم مختلـف عنـا.

تواصلت الضحكات من الداخل مع صوت طرقات على باب البيت تُسمِع الأم التي تجلس أمام الفرن تُخرج الطعام الذي طاب واستوى مع اقتراب موعد المغرب، ورجل بالخارج ينادي بصوت عميق كأنه منبعث من بطن بئر سحيق:

- «سقااااااا، يارب عوض علياااااا».

الأهالي كلهم في المحروسة يعتمدون على ماء النيل الذي يجري في الناحية الغربية للمدينة، والسقا يغدو ويروح بضع مرات عليهم في اليوم حاملًا المياه في قربة من جلد الماعز مرتديًا سروالًا قصيرًا بلون أزرق، قربته نظيفة، يأتي بالماء من المناطق البعيدة عن الشواطيء القريبة من الناس وعن المراحيض ومساقي الحيوانات، والسقا الذي يستخدم حمارًا يعلق دائمًا جرسًا في رقبته، فينتبه الناس لمجيئه، لكنه يدق الباب على بعض الزبائن المخصوصين كالسيد محمود الورداني أو السيد إبراهيم مرقص وغيرهم؛ لأنهم يوصونه بذلك، ويكرمونه ببعض المال الإضافي.

ملأت مريم منه الماء الذي تحتاجه في دارها، وبدأت في تجهيز الطعام في المغارف مع أصوات الرحمة التي ترددت من المآذن لتعلن انقضاء صوم يوم حار آخر من أيام رمضان.

الناس يشعرون بسبب الصوم في هذا الحر القارص بضعف شديد يحول دون تناولهم وجبة الأفطار كاملة، فيشقون صيامهم بتمرتين أو أكثر والبعض يشقه بفنجان قهوة، ومن ثم يذهبون لصلاة المغرب ثم يعودون إلى بيوتهم، منهم من يتناول إفطاره بنهم، ومنهم من يأكل بضع لقيمات خفيفات، أما الذي يأكل بنهم فيثقل جسده وغالبًا لا يقوى على النهوض لصلاة العشاء ويسقط غارقًا في النوم، والآخرون يذهبون لصلاة العشاء والتراويح ثم يعودوا لإكمال إفطارهم.

أبانـوب كان في سـن قريبـة مـن عـلي وحسـن، كان في العـاشرة مـن عمـره، مقربًـا لهـم يلعـب معهمـا ويـتزاوران فيمـا بينهـم، وتَعـود في رمضـان ألا يتقابـلا إلا بعـد أذان المغـرب؛ لأن عـلي وحسـن يسـهران معظـم الليـل معـه وينامـان طـوال النهـار غالبًـا، وهـو رغـم سـهره كان يسـتيقظ ظهـرًا ويجلـس في البيـت لا يفعـل شـيئًا حـتى يتقابـل مـع أصحابـه بعـد المغرب أو بعـد العشـاء أحيانًـا، معظـم الأيـام يتجهـون إلى سـوق الحلوانيـين الـذي كانـت تـروق لهـم رؤيتـه أكـثر في شـهر رمضـان، فهـو مـن أبهـج الأسـواق ومـن أحسـن الأشـياء منظـرًا بالنسـبة لهـم وربمـا بالنسـبة للكبار أيضًـا؛ حيـث كان يصنـع فيـه مـن السـكر أشـكال خيـول، وسـباع، وغيرهـا تسـمى «العلاليـق»، يطوفـون في الشـوارع أحيانًـا خلـف المنـادي الـذي يـأتي بعـد صـلاة العشـاء في الأحيـاء المختلفـة، يقـرع طبلتـه الصغـيرة عنـد كل بـاب ويحـيي أهـل البيـت ببعـض كلمـات الإطـراء، وهـذا المنادي يعـود مـرة أخـرى قبـل أذان الفجـر بحـوالي السـاعة والنصـف محدثًـا رقعًـا عـلى طبلتـه يواظـب عليـه حـتى يوقـظ أهـل كل بيـت طلـب منـه هـذه الخدمـة، ينـادي عـلى الأطفـال بأسـمائهم طفـلًا طفـلًا، السـيد إبراهيـم مرقـص كان يوصيـه أيضًـا أن ينـادي عـلى ابنـه الوحيـد أبانـوب حـتى لا يشـعر أنـه غريـبٌ أو مختلـفٌ عـن جيرانـه وأصحابـه، بـل لـم يكـن يعـترض حـين يخـرج أبانـوب مـع عـلي وحسـن وهنـد بعـد العشـاء للعـب بالفوانيـس والبمـب والصواريـخ وغنـاء الأغـاني الرمضانيـة الشـهيرة «وحـوي.. يـا وحـوي.. إيَّاحـا» وغيرهـا، وبالطبـع لـم يكـن بيتـه يخلـو مـن الكنافـة والقطائـف وكل مـا اشـتهر بـه شـهر رمضـان مـن ياميـش وزبيـب وجـوز الهنـد.

أشـهر مـن قامـوا بالتسـحير شـخص يدعـى «ابـن نقطـة»، وهـو المسـحراتي الخـاص للسـلطان النـاصر محمـد، وكان «ابـن نقطـة» شـيخ طائفـة المسـحراتية في عـصره وصاحـب فـن «القومـة» للتسـحير؛ حيـث كان يغـني في آخـر كل بيـت غنـائي بقولـه «قومـا للسـحور» ينبـه بـه رب المـنزل ويذكـر فيـه مدحـه والدعـاء لـه، وقـد تبعـه في أسـلوبه أغلـب

المسـحراتية في المحروسـة الذيـن يجوبونهـا عشـاءً وفجـرًا.

في الفجـر انطلـق المدفـع محدثًـا دويًّـا شـديدًا ارتجـت لـه البيـوت والمدينـة مـن أساسـها، فالأهـالي يتركـون النوافـذ الزجاجيـة عـلى المشربيات الخشـبية المنقوشـة مفتوحـة، فـكان الصـوت يخـترق البيـوت ويصـل إلى الداخـل في قـوة.

بعـد أسـبوع انتهـى الفيضـان، وكمـا لـو كان مكتوبًـا عـلى الأهـالي الاستمرار في شيء مـن المعانـاة، فقـد هبـت عاصفـة هوائيـة غـير عاديـة مصحوبـة بسـحب مـن الغبـار، لشـدتها يغلـق السـائرون أعينهـم خوفًـا عليهـا، ويلفـون وجوههـم بأقمشـة بيضـاء يـكاد لا يبـصرون مـن خلفهـا، فـكان مجـال الإبصـار أمـام النـاس قليـلًا في تلـك الأيـام، ظـل الأطفـال محبوسـين في منازلهـم خلـف النوافـذ الزجاجيـة الـتي أغلقـت عـلى المشربيـات في البيـوت منتظريـن بصـبر العاصفـة حـتى تهـدأ ويهـدأ إلى حـد مـا عنفوانهـا، بالطبـع غطَّـى السـيد محمـود الـورداني أعـلى البيـت بقمـاش متـين عليـه طبقـة مـن الشـمع، تحمـي مـن بداخلـه مـن الجـو العاصـف والـتراب.

تحولـت أيـام رمضـان عـلى الأطفـال إلى أيـام حبـس إجبـاري يمنعهـم مـن اللعـب والخـروج والاسـتمتاع بليـالي رمضـان والفرجـة عـلى النـاس في الشـوارع وعـلى حلقـات الذكـر في الأزهـر أو بقيـه الجوامـع، حـتى أبانـوب لـم يـأت لزيارتهـم طـوال فـترة العاصفـة، ولمـا هـدأت قليـلًا وباتـت الرؤيـة أوضـح إلى حـد مـا، خـرج الإخـوة الثلاثـة خـارج البيـت ليلقـوا نظـرة عـلى المدينـة، فلـم يسـتطيعوا سـوى رؤيـة أعـالي المـآذن فـوق بحـر مـن الغبـار، وأشـجار النخيـل الشـامخة تحـني في خشـوع أمـام شـدة اندفـاع الريـح، شـعرت مريـم بالهـواء المندفـع مـن بـاب الـدار فصرخـت في أطفالهـا بصـوت عـالٍ وهـي تجـري في اندفـاع ناحيـة البـاب:

- ادخلـوا يـا مجانـين، أليـس فيكـم عقـل رشـيد يميـز سـوء الجـو وخطورتـه.

سحبت هند الأقرب إليها التي كانت تتعلق بيد «علي» للداخل وتبعها علي وحسن، والأم تواصل صراخها وتعنيفها لهم، لم تكن العاصفة مجرد زوبعة أو كرياح الخماسين أو السموم، إنما هي ريح قوية جارفة تأتي من الشمال الشرقي.

ثم هدأت العاصفة فجأة، ثم أتبعها هدوء تام كما سبقها، كأن شيئًا لم يكن، وفي أواخر أيام شهر أغسطس بدأ انخفاض مياه النيل رغم أن ارتفاعه كان شديدًا في الأيام الأخيرة.

انقضت باقي أيام الشهر، وأعلنت المحكمة الشرعية بعد محاولة استطلاع هلال شوال أن شهر رمضان سينقضي بعد اليوم المتمم له بعد أن غم عليهم رؤية هلال شوال. استعدت السيدة مريم كسائر جاراتها بالكحك في آخر أيام رمضان، لكن دون أن تنقش عليه كل واشكر هذه المرة فهو كحك لأهل البيت والضيوف.

طقس زيارة الحمام العمومي من ضمن استعدادتها واستعداد أغلب سيدات المحروسة للعيد، فهو ليس فقط من أجل الحموم، ولكنه لإزالة الإرهاق والشعور بالكسل أو التعب، خصوصًا مع الطقس الحار لتلك الأيام، وللشعور الذي يغمر الجسم بالراحة والسكينة بعد زيارة الحمام؛ لذلك هي تجد في عملية الاستحمام ذاتها سعادة كبيرة، كما أنها تريد أن تستعد للقاء امتنع عنه السيد محمود الورداني طوال شهر رمضان، رغم أنها كانت تلمح له أحيانًا به، وبإمكانية حدوثه ما بين المغرب والفجر، إلا أنه كان يتهرب منها دون سبب واضح، فخمنت أنه ربما بسبب الصيام وإرهاقه، أو رداءة الجو الذي لا يشجع على شيء.

أيضًا لأنها أحيانًا ما تتقابل مع بعض النسوة اللائي لا تراهن بانتظام في أيامها العادية. اتفقت مع جارتها إليصابات على الذهاب واصطحبت معها هند، بعد أن أرسلتا مع مرسال ما يحتاجانه هناك من أردية وقباقيب وإناء نحاسي كبير للماء الساخن، وطاستين من

النحاس وبعض المناشف.

الحمامات أغلبها ذات طراز واحد تقريبًا وتحمل نفس المظهر، الواجهة مزركشة بالأحمر والأبيض ومن الداخل الغرف أرضها من الرخام، بعد المدخل هناك بهو فسيح وغرف للاستراحة، خلعت مريم وإليصابات فيها أرديتهن قبل الدخول إلى الغرفة الساخنة وهو نفس المكان الذي يعاودن فيه ارتداء ملابسهن بعد الاستحمام، وبالطبع فعلت هند مثلهما، استرخيا على مصطبة عريضة من الرخام مغطى بالحصر، بعد أن لفا نفسيهما بقطعة واسعة من القماش من تحت الإبط وتركا أكتافهما عارية وشعرهن مكشوف، في وسط الغرفة نافورة من الماء البارد لها شكل بديع، وصوت رقرقة الماء المنساب فيها يدفع المرء لا إراديًّا للاسترخاء والتخلص من تعب السنين، مروا عبر غرفة معتدلة التدفئة إلى البهو الرئيسي الداخلي؛ حيث كانت الحرارة شديدة جدًّا، حتى إن هند شعرت بسخونة المكان والبخار الذي عبأ البهو، لكن أمها طمأنتها بأن هذا الشعور سيزول وتتعود على الحرارة بعد قليل، البهو على شكل صليب بأربع حنايا، تغطي المنطقة الوسطى منه قبة، والأرض كباقي الغرف من الرخام الأبيض لكن يتخلله هنا بعض من الرخام الأسود بطريقة فنية في تجانس بديع، مع قطع صغيرة من الآجر الأحمر، بينها في منتصف البهو مصطبة عالية تسمح بالجلوس عليها، ينبعث من وسطها نافورة من الماء الساخن، وجوارها مغطس يُصبُّ فيه الماء الساخن من أنبوبة في سقف القبة باستمرار، الحمام مزدحم إلى حد ما ربما بسبب التوقيت، ففيه ما لا يقل عن خمس وعشرين امرأة من كافة الأعمار، وكثيرًا من الفتيات المراهقات والأطفال، أغلب النساء والفتيات عاريات تمامًا دون حياء منهن، لم يتعرف فيهن على أحد، الكل هنا سواء، سواء أكانت زنجية ببشرة سوداء أبنوسية لامعة أو حتى بيضاء ببشرة ناصعة، في خليط عجيب يتجاذبون أطراف الأحاديث والنميمة في حلقات بكل بساطة دون إكتراث من إحداهن كونهن عرايا، كأنهن

بكامـل ملابسـهن وزيناتهـن، غـير أن هنـاك أخريـات يتجولـن أو يجلسـن حـول النافـورة، جذبـت إليصابـات قطعـة القمـاش لتسـتر كتفهـا العـاري وهـي تقـول لزينـب:

- ما بال هؤلاء النسوة اللاتي غاب عنهن الحياء؟ اللي اختشوا ماتوا.

أحكمت مريم القماش حول جسدها أيضًا وهي تمصمص بشفتيها:

- عنـدك حـق، دعينـا نذهـب إلى الغرفـة الخاصـة مبـاشرة، لـن أسـتطيع أن أجلـس هنـا، فنحـن لا نعـرف إحداهـن كذلـك.

اعتـادت هنـد عـلى الشـعور بالحـرارة والبخـار السـاخن الـذي واجههـا لحظـة دخـول الغرفـة الحـارة، رغـم أنـه كان قويًّـا، فالسـخونة شـديدة الوطـأة حـتى إن إليصابـات ذكـرت لمريـم أن البخـار السـاخن ربمـا يلهـب جلـد هنـد الرقيـق.

دخلـت عليهـن إحـدى البلانـات وبـدأت في تكبيـس بسـيط للجسـد، تبعتـه بطقطقـة للمفاصـل ثـم بعـده بـدأت في عمليـة الحـك بمـبرد، البلانـات العامـلات هنـا يسـتخدمن نوعًـا خشـنًا للأقـدام وآخـر ناعـم للجسـد، واسـتخدمن لهنـد كيسًـا صغـيرًا مـن الصـوف الخشـن، غطـت الرغـوة الناتجـة الـرأسَ والوجـه نتيجـة فـرك الصابـون بحفنـة مـن ليـف شـجر النخيـل ملمسـها ناعـم ومريـح للبـدن، ضحكـت هنـد وهـي تـرى أمهـا وإليصابـات عائمتـين وسـط الرغـوة وهـي تلعـب بالرغـوة الـتي حولهـا أيضًـا وتحـاول أن تمسكها بـين كفيهـا الصغيريـن، صبـت الفتيـات العامـلات عليهـن المـاء السـاخن لإزالـة الصابـون تمامًـا وأعـادوا الترغيـة والشـطف مرتـين أخريـن، وفي النهايـة قامـت إحـدى البلاَّنـات بالتصبـين والفـرك برقـة متناهيـة وبطريقـة لطيفـة حـتى شـعرت زينـب وإليصابـات وحـتى هنـد بمتعـة حقيقيـة بعـد أن أحسـوا براحـة البـدن والجلـد بعـد نهايـة الفـرك.

نهضـن ولفـت الفتيـات حواليهـن قطعـة عريضـة مـن القمـاش الجـاف كإزار الحمـام، اتجهـن بعدهـا إلى غرفـه للاسـتراحة حيـث تـم تجفيفهـن

تمامًـا، ثـم أعـادوا ارتـداء ملابسـهن وجلسـن يرتحـن مـع شـعورهن بالاسترخاء، وهـن يتبادلـن أطـراف الحديـث عـن مناظـر النسـاء بالداخل، وعـن مهـارة البلانـة الأخـيرة في الفـرك وصراخ الأطفـال ينبعث مـن الداخل يصـم الآذان، بينمـا هنـد سـقطت في سـبات عميـق عـلى حجـر أمهـا.

السـيد محمـود الـورداني اسـتعد للعيـد باصطحابـه لعـلي وحسـن إلى الحـلاق، ورغـم أن الحلاقـة أمـر يدعـو للملـل خصوصًـا لعـلي وحسـن إلا أنـه كان أمـرًا لا بـد منـه قبـل العيـد، جلسـوا عـلى كـرسي خشـبي غـير مريـح داخـل الدكانـة، مسـتندين إلى الجـدار، وانتظـرا بعـض الوقـت ولـم يكـن بالوقـت القليـل حـتى حـان دورهمـا، جلـس السـيد محمـود عـلى كـرسي الحلاقـة بعـد أن خلـع عمامتـه، فـشرع الحـلاق في عملـه عـلى الفـور بتمشـيط الشـعر، ثـم بـدأ في القـص باسـتخدام أدواتـه المقـص والمشـط، في حـركات سريعـة ماهـرة، كأنـه فنـان يرسـم لوحـة باسـتخدام المقـص والمشـط عوضًـا عـن الفرشـاة والألـوان، ولسـانه مسـتمر في الحركـة لا يكـف عـن الـكلام نـاشرًا عديـد أخبـاره الـتي لا يعرفهـا إلا هـو.. وهـو فقـط..، كأن الأخبـار تـأتي إليـه مـن بصاصـين محترفـين لا يفشـون الأسرار إلا لـه، ومـع عـودة اهتمامـه بـرأس الزبـون عـلى الكـرسي قاطعًـا كلامـه الجـاذب لاهتمـام السـامعين، دخـل السـيد إبراهيـم مرقـص دكانـة الحـلاق مـع ولـده أبانـوب، وألقـى عـلى الجالسـين التحيـة، ثـم وجـه كلامـه إلى محمـود الجالـس عـلى كـرسي الحلاقـة:

- نعيمًا مقدمًا.

فرد عليه شاكرًا:

- أنعم الله عليك.

في الأيـام العاديـة غـير أيـام رمضـان، كان الحـلاق سـيترك زبونـه الجالـس عـلى كـرسي الحلاقـة كائنًـا مَـن كان، ويتوجـه لإعـداد القهـوة للزبـون الجديـد الـذي وصـل مـع أرجيلـة، ويدخـن الجالـس عـلى كـرسي الحلاقـة أيضًـا بقيـة حجـر أرجيلتـه الـتي ربمـا لـم ينههـا أو قـام بتغييرهـا

مـن قبـل مـرات عـدة أثنـاء جلوسـه في الانتظـار الممـل، رحَّـب عـلي وحسـن بأبانـوب ثـم اسـتأذن كلٌّ مـن والـده ثـم خرجـوا معًـا للشـارع للفرجـة عـلى النـاس ومـن أجـل بعـض اللعـب حـتى يحـين دورهـم.

وضـع الأسـطى عبـد الـرزاق الحـلاق سـاقًا معدنيـة مثبتـة مـن طرفهـا في الحائـط، وحاملـة في الطـرف الآخـر المقـوس آنيـة معـدن عـلى شـكل قمـع مثقوبـة ثقبًـا ضيقًـا بينمـا تحـت ذقـن السـيد محمـود صحنًـا للحيـة مـن المعـدن مسـتديرة، ينسـكب مـن الآنيـة المعلقـة سلسـول مـن المـاء الفاتـر عـلى رأس السـيد محمـود لغسـل الوجـه والـرأس والرقبـة بالصابـون، واسـتغرق عبـد الـرزاق وقتًـا طويـلًافى حـك الشـعر ومنابتـه بأظافـرة الحـادة كأسـنان المشـط، جفـف الوجـه والـرأس بمنديـل ثـم الـرأس بمنديـل آخـر، ثـم رطـب اللحيـة ببعـض المـاء، وتنـاول المـوسي الـذي شـحذه باسـتخدام حجـر السـن وقطعـة مـن الجلـد المعلقـة في ظهـر الكـرسي، حـتى أصبـح جاهـزًا للاسـتخدام.

ارتكـز الحـلاق بقدمـه اليسرى عـلى كـرسي خشـبي وسـند رأس زبونـه على ركبتـه بعـد تغطيتهـا بالمنديـل، وبـدأ في إزالـه الشـعر مـن أعـلى الخـد الأيـسر إلى أسـفلها، ثـم انتقـل للأيمـن وكـرر نفـس الحركـة، ثـم سـاوى الشـارب بعـد أن طلـب مـن زبونـه أن يضـم شـفتيه ليحـدد جوانـب الشـوارب، عاود الحـلاق حديثـه عـن آخـر أخبـار الحـارات والشـوارع المحيطـة بدكانتـه بينمـا يزيـل مـا في الوجـه مـن الشـعرات الشـاذة النافـرة الـتي لـم يزلهـا المـوسي، وعمـد بمقراطيـه إلى فتحـتي الأنـف فقـص مـا فيهـا مـن شـعر، أمـا الأذنـان فغسـلهما بوضـع مـاء فاتـر فيهمـا، وأزال مـا في صـوان الأذن وفتحتهـا بآلـة صغـيرة عنـده، عقـب الانتهـاء قَـدَّم صـبي الحـلاق الصغـير مـرآة إلى السـيد محمـود الـذي أمعـن النظـر فيهـا لنفسـه، ثـم أثـنى عـلى حلاقـة الأسـطى عبـد الـرزاق بـأن قـال:

- تسلم إيدك يا عم عبدالرزاق.

فمـا كان مـن الأسـطى عبدالـرزاق إلا أن ابتسـم في انشكاح ومشـط شـعر

الرأس مرة أخرى ثم غطاها بالعمامة التي كان يرتديها السيد محمود حين مجيئه.

وجاء الدور على «علي» الذي كرر معه نفس الحركات في تسوية وتجميل شعر الرأس، لكن بالطبع لم يكن بلغ كفاية لحلق لحية أو تشذيبها، وبعد أن انتهى الحلاق من حسن أيضًا، ناوله السيد محمود بضع قطع من الفضة ذات العشرين قرشًا المعروفة بالريال الفضي، انصرفوا بعد أن سلم على الجالسين في انتظار دورهم وحيا جاره وولده الذي ودع صاحبيه قبل انصرافهما مع أبيهما.

- ١٩ -

لـم ينـس محمـد عـلي باشـا طـوال السـنين الـتي مضـت المعانـاة الـتي لقيهـا مـن قبـل مـن تمـرد الجنـود عليـه بواعـز منـه أو حـتى من غـيره، فقد عـانى هـو أيضًـا فـترة مـن تمردهـم، ولـم ينـس مـا خطـط لـه مـن قبـل مـن التخلـص مـن المتمرديـن مـن الجنـوط الأرنـاؤوط والـدلاة وغيرهـم، ورغبتـه في وجـود جيـش مـصري يسـير عـلى أحـدث النظـم والأسـاليب الـتي كانـت موجـودة في ذلـك الوقـت والـذي شـاهد مثلهـا معمـولًا بـه في الجيـش الفرنـسي والإنجليـزي وسـائر الجيـوش النظاميـة، ليحمـي بهـذا الجيـش مـصر ويحقـق طموحاتـه في التوسـع والفتوحـات الخارجيـة.

بعـد عـودة حملتـه الأولى مـن جزيـرة العـرب شرع في الإعـداد الفعـلي لتهيئـة الظـروف وإعدادهـا لبنـاء هـذا الجيـش، فـكان يجـب أن يجـد الجيـش كفايتـه مـن السـلاح والذخـيرة ومختلـف العتـاد الحـربي، وكل مـا كان يبنيـه أو ينشـئه كان هدفـه في الأسـاس خدمـة صناعـة الجيـش، فمدرسـة الطـب ترجـع إلى تخريـج الأطبـاء الذيـن يحتـاج إليهـم الجيـش، وتطـور الزراعـة وزيـادة الحاصـلات الزراعيـة واحتكارهـا مـن قِبـل الحكومة لخدمـة تمويـن الجيـش في الأسـاس، حـتى مصانـع الغـزل والنسـيج كان الغـرض منهـا توفـير احتياجـات الجيـش مـن الكسـاء، ولتوفـير احتياجـات الجيـش والجنـود مـن السـلاح والذخـيرة قـام بإنشـاء المصانـع الحربيـة المختلفـة في أرجـاء مـصر، وبالطبـع المهندسـين مـن المهندسـخانة سـاهموا وأشرفـوا عـلى بنـاء ثكنـات الجنـود والمعسـكرات والمستشـفيات الـتي يحتاجونهـا، أمـا البعثـات إلى أوروبـا فسـاعدته عـلى وجـود عـدد كافٍ في البدايـة مـن الضبـاط، والعلمـاء، والمهندسـين ممـن يتصلـون مـن قريـب أو مـن بعيـد بـالأدوات الحربيـة.

بـدأ محمـد عـلي باشـا أولى محاولاتـه للنهـوض بالصناعـة الحربيـة في

سنة ١٨١٥م على يد أحد الضباط الفرنسيين واسمه جونتار دي فينور، أمر بالبدء في تدريب فرقة من جنود ابنه إسماعيل باشا على النظام الجديد، وصارح الجنود بذلك بنفسه لمَّا ذهب إليهم في بولاق، وأعلن أن من يخالف التعليمات التي سيتلقاها سيعاقب على تمرده، اعترض بعض الجنود على ما يريده الباشا الوالي، فأصدر أوامره بطردهم على الفور ومصادرة كل ما لديهم، حتى ملابسهم التي على أجسادهم، حاول البعض منهم في حينها التصدي لما يُفعل به فقوبل من حراس محمد علي باشا والجنود التابعين له بالضرب.

غادر محمد علي باشا بولاق واتجه إلى شبرا، وبمجرد رحيله اجتمع الجنود معًا وتبادلوا عبارات الغضب التي كتموها بعد ما رأوا ما فُعل بأصحابهم، أبدى الجنود تذمرهم لأكابرهم من القادة، وانتهز بعض رؤسائهم هذا التذمر من الجنود في رغبة محمد علي تنفيذ نظام جديد عليهم، ودبروا مؤامرة لخلعه، فذهبوا إلى عابدين بك العائد من جزيرة العرب مع الحملة التي كانت هناك، وكان من رؤساء الأرناؤوط، واتفقوا معه أن يهاجموا محمد علي في قصره بالأزبكية في الفجر، استأذنهم عابدين بك قليلًا للقيام ببعض أشغاله الخاصة، وتركهم جالسين على الوليمة التي قدمها لهم، غيَّر من هيئته وخرج متخفيًا إلى الأزبكية، دخل على الباشا الذي أبدى استغرابه من هيئته في قصره، أفضى عابدين بك إليه بكل ما قيل ورُتب في جلسته مع المتآمرين، ورجع إلى أصحابه وهم لا يشعرون بخروجه أو عودته، أمر محمد علي بعض الجنود بمحاوطة القصر، واتخذ هو طريق الصعود إلى القلعة مع عساكر طاهر باشا، وفي الفجر جاء المتآمرون وجنودهم، فقابلهم الجنود الذين يحاصرون القصر، أطلقوا عليهم الرصاص، ومنعوهم من دخول القصر، مات منهم عدد لا بأس به، فتراجعوا وعادوا متخذين الطريق إلى القلعة وتجمعوا بالرميلة وقرميدان، انتشروا في الأسواق واعتدوا على الناس وبضائعهم وأموالهم، فلم يجد محمد علي باشا بد من التراجع

عـن قـراره بتفيـذ النظـام الجديـد عـلى الجيـش؛ لأن وضعـه الحـالي لا يسـمح بدخـول معركـة مـع جنـود متمرديـن في وسـط العاصمـة، هادنهـم لكنـه أبـدى استياءه مـن تمردهـم، وأمـر بتعويـض التجـار والنـاس عما افتعلـه الجنـود في أسـواقهم وأموالهـم، وتـرك تقديـر التعويـض للسـيد محمـد المحـروقي كبـير التجـار، وخـلال الخمس سنوات الـتي تلـت قـام بتوزيـع هـؤلاء الجنـود خـارج حـدود العاصمـة لتشـتيت جمعهـم، قـام بتوزيعهـم عـلى الثغـور في دميـاط ورشـيد، والبـلاد عـلى فرعـي النيـل، وحـتى لا يثـير ريبتهـم أرسـل معهـم قـادة مـن أبنائـه مثـل إسـماعيل باشـا وطوسـون باشـا الـذي تـوفي وسـطهم جـوار رشـيد.

أعـاد محمـد عـلي باشـا في سـنة ١٨٢٠م محاولاته لتحديث نظـام الجيش، وأبـدى نيتـه في إقامـة مدرسـة حربيـة، ولـم يجـد مانعًـا مـن اسـتحضار ضبـاط ومعلمـين أوربيـين عـلى علـم بأسـاليب وأنظمـة الجيـوش الحديثـة لتعليـم صفوفـه، وكانـت البدايـة مـن خـلال الكولونيـل الفرنـسي سـيفيز Seves - سـليمان باشـا الفرنسـاوي فيمـا بعـد، فرنـسي الأصـل وُلـد في ليـون، قاتـل في صفـوف الجيـش الفرنـسي تحـت إمـرة نابليـون حـتى بلـغ رتبـة الكولونيـل، ثـم خـرج مـن الجنديـة وعمـل بالزراعـة والتجـارة، وفي يـوم طلـب مـن صديقـه الكونـت سـيجور أن يسـعى إليـه لـدى أحـد شـاة العجـم أن يعهـد إليـه بتدريـب جيشـه، فنصحـه بالقـدوم إلى مـصر، فجـاء وقابـل محمـد عـلي باشـا الـذي أعجـب بـه وبحديثـه الـذي وجـده متوافقًـا مـع رغباتـه فعهـد إليـه بإعـادة تنظيـم الجيـش المـصري عـلى النظـام الحديـث.

قـدم للكولونيـل خمسـمائة فـرد مـن مماليكـه الخاصـين، وطلـب مـن رجالـه أن يفعلـوا بالمثـل، وذهـب بهـم إلى أسـوان بعيـدًا عـن الأعـين، حـتى لا يثـير الضيـق والهيـاج في نفـوس الضبـاط القدامـى الكبـار حـين يـروا كولونيـل فرنـسي يـدرب الجيـش بـدلًا منهـم، وحـتى يكـون الجنـود بعيديـن عـن أماكـن اللهـو في المحروسـة، في تلـك الفـترة جمـع محمـد

علي باشا كل الأطفال المتشردين في شوارع مصر كلها، وكان عددهم ما يقرب من ثلاثمائة ألف متشرد، وأرسلهم إلى معسكر في عهدة الكولونيل سيفيز، ليتعلموا القراءة والكتابة واللغة الفرنسية، والحرف اليدوية.

أنشأ بأسوان أربع ثكنات فسيحة لإقامتهم، على بعد ثلثي ساعة من قصر وبستان محمد بك لاظ أوغلي، وأمدها بكل ما تحتاجه من الأدوات، لقي الكولونيل صعوبات جمة في تدريب هؤلاء المماليك الذين اعتادوا على عدم النظام والصخب والتمرد من آن لآخر، ولم يعتادوا من أساليب الحرب غير المواجهة بالكر والفر، غير أن تدريبهم من قِبل ضابط أوروبي مسيحي كان أمرًا جديدًا عليهم وغير محبب، فكانت نفوسهم تعاودهم بالرغبة في التمرد وتدبير المؤمرات والتخلص من الضابط الأوروبي، فأطلق أحد العساكر ذات مرة طلقة من الرصاص ناحية الكولونيل وهو يمرنهم، لكنها انحرفت قليلًا ومرت جوار أذنه حتى سمع صفيرها، لم يتزعزع في وقفته ولم يضطرب، بل وقف رابط الجأش واستمر في عمله وأمرهم بإعادة إطلاق النار، وفي مرة هدده بعضهم بالقتل، فطلب منهم أن يبارزوه واحدًا تلو الآخر، فإن قتلوه كان قتلًا شريفًا في مبارزة، لا قتل غدرٍ وخيانة، فكان لشجاعته في طلب القتال عمل السحر بينهم؛ لأن مقياسهم للجندي هو شجاعته في القتال وجرأته، صاروا بعد ذلك مع الوقت من أخلص أوليائه، لا يمنحوه إلا الطاعة والتقدير، استمر في تدريبهم ثلاث سنوات، واستمر على ذلك حتى تكوَّن من تلاميذه الهيئات الأولى للضباط.

كان يصحب الكولونيل خلال التدريبات أحيانًا إبراهيم باشا فساعد ذلك على حمل المتدربين على الطاعة واتباع النظام الجديد، أما الذين تعلموا وتغيرت حياتهم من المتشردين احتفظ محمد علي باشا بالنوابغ منهم، وأرسل الباقين فيما بعد كخبراء للمناطق التابعة

لـه الـتي تفتقـر لتلـك الحـرف، وأنشـأ لهـم المـواني حـتى يسـتطيعوا أن يتواصلـوا بإنتاجهـم مـع الـدول المطلـة عـلى المتوسـط لصالـح مـصر.

حَمْـلُ المصريـين عـلى التجنيـد الإجبـاري كان أمـرًا يصعـب تنفيـذه؛ لأن المصريـين لـم يعتـادوا عـلى التجنيـد في عهـود المماليك السـابقة، فخشي محمـد عـلي باشـا أن يثـوروا عليـه عندمـا يجـدون أن التجنيـد الإجبـاري عبئًـا جديـدًا قـد أضيـف للضرائـب المفروضـة عليهـم، أو معـه تقـل الأعـداد الـتي تقـوم بالزراعـة فيقـل الإنتـاج، ولـم يكـن محمـد عـلي باشـا يريـد تجنيـد أرنـاؤوط أو عثمانيـين في الجيـش الجديـد، فـشرع في تجنيـد السـودانيين مـن سـكان كردفـان وسـنار، فجـاءه إسـماعيل باشـا وصهـره الدفـتردار بحـوالي عشريـن ألفًـا مـن السـودانيين، تدربـوا في بـني عـدي بالقـرب مـن منفلـوط عـلى أيـدي الضبـاط الذيـن تخرجـوا مـن مدرسـة أسـوان الحربيـة، لكـن عـددًا كبـيرًا مـن هـؤلاء الجنـود مـات لضعـف بنيتهـم، وعـدم قدرتهـم عـلى التكيـف مـع جـو البـلاد والتدريبـات، غـير أنهـم لـم يتحملـوا أعبـاء الجنديـة، فأعـاد محمـد عـلي باشـا فكـرة تجنيـد مصريـين، وهـي مـا كانـت تصـادف هـواه مـن البدايـة، وأنشـأ ثكنـات جديـدة لتدريبهـم في فرشـوط.

ورغـم مـا لقيـه مـن نفـور الفلاحـين المصريـين وسـخطهم مـن فكـرة تجنيدهـم الإجباريـة، إلا أنـه لـم يتراجـع عـن تنفيذهـا مـرة أخـرى، فليـس هنـاك بديـل عـن دفـاع المصريـين عـن أراضيهـم ودولتهـم بأنفسـهم، انتظـم الفلاحـون في البدايـة في الجنديـة مكرهـين، وسـيقوا إلى المعسـكرات بعـد القبـض عليهـم مـن قِبـل الحكومـة بالقـوة غصبًـا، كان البعـض يحـاول التهـرب بإصابـة أنفسـهم بإعاقـات، فعمـد كثـير إلى قطـع سـبابته، فيصبـح ناقصًـا ولا يصلـح للجنديـة، وآخـرون كانـوا يضعـون سُـمًّا كان مخصصًـا للفـئران في أعينهـم، فيصابـون بعمـى مؤقـت، اكتشـف القائمـون عـلى التجنيـد هـذا، وأخـبروا الـوالي، فأمـر بالقبـض عـلى الأمهـات الـتي يسـاعدن أبناءهـن في إعاقـة أنفسـهم، وطلـب مـن رجالـه

جمع كل قاطعي سبابتهم أو من أصاب نفسه بعاهة، ليستخدمهم في أورطة خاصة للمعاقين، حتى اعتاد الناس على التجنيد الإجباري، ومنهم من وجدها أحسن حالًا من معيشتهم السابقة في القرى، فالزي العسكري ومظهره جعلهم أكثر رقيًّا، والطعام أفضل، فكانوا يأكلون بأمر الوالي رزًا مفلفلًا، ولحمًا محمرًا ثلاث مرات في الإسبوع، وهذا ما لم يكن يناله أي منهم في داره وسط أهله، مع الوقت زال عنهم شعورهم السابق بالضعف والمهانة الذي غرسه في نفوسهم العثمانيون والمماليك من قبل، فباتوا يفتخرون بكونهم من جنود محمد علي باشا ومن وضعهم الجديد، يقابلون غطرسة العثمانيين بمثلها، ويرفضون مناداتهم بالفلاحين بعد أن صاروا جنودًا.

مع بداية يناير من عام ١٨٢٣ اكتملت ست كتائب من الجيش النظامي، أو كما يسمونها الأوُرطة، وبعد عام آخر من التدريبات المكثفة، نزل الأورط النظامية إلى القاهرة، وقام بضعة آلاف من المشاة بكامل أسلحتهم وعدتهم وعتادهم، بمناورات حربية في الخانكة أمام الوالي، وهم يرتدون صديري، وسروالًا واسعًا مربوطًا على الوسط، ومتمنطقين بحزام وعلى رأسهم طربوش أحمر، ويتميز الضباط عن الجنود بالتطريز الذي يزين زيهم ذا اللون الأحمر، ابتهج محمد علي باشا بنجاح مسعاه، ووصوله لما أراد وخطط له طوال سنين مضت، وأمر بإنشاء معسكر عامٍّ للجيش النظامي الجديد في الخانكة، كان يحتوي من عشرين إلفٍ إلى خمسة وعشرين ألفٍ من الجنود النظاميين على الدوام، وبدأ بتكليفهم في الحروب، فبعث أول أورطاته إلى الحجاز، لإخماد الثورات التي تقوم من حين لآخر، والثانية إلى السودان، وأرسل الأربعة الأخرى إلى بلاد المورة لمحاربة اليونانيين تحت إمرة ابنه إبراهيم باشا.

اتسعت دائرة التجنيد بعد ذلك، واستجلب محمد علي باشا ضباطًا فرنسيين جدد ليعاونوه في تنظيم الجيش، وبدأت تتكون طوائف من

الضباط المصريين على أيديهم، أرسل منهم طائفة لإتمام تعليمهم الحربي في أوروبا، ثم عادوا ليحلوا محل المعلمين الأجانب، وأصبح هناك مدارس حربية عدة غير الموجودة في أسوان وفرشوط، فأنشأ غيرها في النخيلة وأخرى في جرجا، حتى أنه أنشأ مدرسة تجهيزية للتعليم الحربي بقصر العيني، قوامها نحو خمسمائة طالب، نقلها بعد فترة إلى أبي زعبل بعد أن خُصص قصر العيني لمدرسة الطب، حيث كانوا في تلك المدرسة التجهيزية يتم إعدادهم لدخول المدارس الحربية والبحرية، ثم للمدارس العليا من بعدها.

بعد عودة إبراهيم باشا من حرب المورة، حدث والده عن نظام الخيالة الفرنسيين الذي شاهده، وأشار عليه بتشكيل فرق خيالة، فأعجب محمد علي باشا بالفكرة، وأرسل يستدعي معلمين من أوروبا للتدريس في المدرسة الحربية للفرسان التي أنشأها بالجيزة في قصر مراد بك، تولى تنظيمها مسيو فارين Varin، وارتدى الطلبة فيها زيًّا مطابقًا لزي الفرسان الفرنسيين ما عدا القبعة، فكانوا يلبسون في الشتاء صديري أزرق اللون، وبعضهم يرتديه أحمر، وفي الصيف يرتدي رجال الجيش كلهم ملابس بيضاء من قماش القطن السميك، بينما في الشتاء قماش الجوخ.

اتبعت المدرسة نفس نظام مدرسة سويمور Saumur الحربية الموجودة بفرنسا، وطور المدرسة الحربية الموجودة في الخانكة وجعلها على أحدث النظم، وجعلها لتنظيم وتدريب فرق المشاة، وجعل في طرة مدرسة حربية للطوبجية تحت إدارة الأسباني الميرلاي الدون أنطونيو دي سيجرا Seguera، ثم اقترح عليه عثمان نور الدين باشا ذات يوم أن يُنشئ مدرسة أركان حرب بالخانكة بالقرب من المعسكر العام للجيش، ففعل.

- ٢٠ -

في طريق العودة وهن على ظهر الحمير قالت مريم:

- أنا لم أزر الحسين من قبل أن يأتي رمضان بفترة، لا بد أن أذهب اليوم قبل أن أُعاود الرجوع للبيت، ما رأيك أن تأتي معي؟

دُهشت إليصابات من قول مريم؛ لأنها تعرف أنه من الصعب جدًّا أن يدخل الجامع مسيحي قبطي أو حتى غير قبطي، فردت في دهشة:

- وكيف أدخل؟

ردت مريم في بساطة:

- ستدخلين معي وكأنك مسلمة ولن يشك أحد في أمرك.

فكرت قليلًا في الأمر، فأحست أن عندها من الشغف لاستكشاف أماكن لم تدخلها من قبل، وتعد من المحرمات عليها زيارتها في هذا البلد، لكنها تعرف أنه إذا صادف وحدث شك في أمرها أو عرفها أحدهم أو إحداهن، أو لم تبد كالمسلمات في تصرفاتها فسوف تتعرض لشر طردة، ويكال لها اللوم والإهانة وربما الضرب أيضًا، فرغم أن ملامحها الصعيدية السمراء لا تبدو قبطية ظاهرة كسائر الأقباط التي تكون ملامحهم القبطية جلية، إلا أن الأقباط في الغالب يعرفون من طريقة سيرهم، فهم في وجوم شبه دائم وخوف واكتئاب ملازم كأن الحزن لا ينفك عنهم، البعض يظن أن ظهورهم بهذا المظهر، نتيجة الشدة المراعاة في تربيتهم والطرق والأساليب المتبعة في قيامهم بفروض دينهم، وأن سبب وجوم ملامحهم هو أنهم تربوا ونشأوا على الالتزام بتعاليم الكنيسة القبطية، التي تُعرف أنها كنيسة ذات اتجاه نسكي، صلواتها طويلة وأصوامها كثير، لكن

هـذا الوجـوم هـو مـن الضيـق الـذي يحيـا فيـه الأقبـاط في ظـل الأحـداث الطائفيـة الـتي تحـدث بـين الفينـة والفينـة، فأورثتهـم وجوهًـا محفـورة بالوجـوم نتيجـة مـا يتعرضـون لـه مـن اعتـداء مـن بعـض الجهـلاء المسـلمين، أو المدعـين بتشـددهم أنهـم ينظفـون البـلاد ويطهرونهـا، مـن المسـيحيين الكفـرة الأنجـاس.

حـتى قديمًـا في أحـداث المظاهـرات ضـد الفرنسـاوية أيـام الحملـة الفرنسـية، كان بعـض النـاس يسـتغل الهـرج والمـرج السـائر في البـلاد، ويعتـدي عـلى بيـوت الأقبـاط المسـيحيين وينهـب أموالهـم، باعتبارهـم عـلى نفـس ملـة الفرنسـاوية، وأن أموالهـم وديارهـم مسـتباحة وحـلٌّ لهـم، سـواء كانـوا مسـيحيين أقبـاط أو أرمـن، وذلـك رغـم أن مـن المسـيحيين مـن كان يقـف جوارهـم في صفـوف المقاومـة، لكـن الجهـل والعمـى كان متفشـيًا بـين بعضهـم، وإلى وقـت قريـب كان يُفـرض عـلى المسـيحيين أن يرتـدوا أزيـاء معينـة كانـت قـد فُرضـت عليهـم مـن قِبـل السـلطنة العثمانيـة بغـرض الاسـتهزاء بهـم أو تمييزهـم عـن المسـلمين، كانـوا مرغمـين عـلى ارتـداء أزيـاء زرقـاء وسـوداء، وعـدم لبـس العمائـم البيضـاء، فكانـوا يسـيرون في الطرقـات كمـا لـو كانـوا موصومـين بعـار نتيجـة اختيارهـم لدينهـم، بـل كانـوا ممنوعـين حـتى مـن ركـوب البغـال والخيـول، لكـن محمـد عـلي باشـا منـع كل هـذا بعـد اسـتقرار حكمـة في الولايـة.

تذكـر إليصابـات في أحـد الأيـام مـن عـام ١٨١٤، أن تمـردت حاميـة القاهـرة في المحروسـة، وهـم الطبجيـة أو جنـود المدفعيـة، فتخـوف النـاس وأغلقـوا حوانيتهـم، والتزمـوا ديارهـم، كان عـدد الطبجيـة مـا يقـرب مـن الأربعمائـة عسـكري، طالبـوا بنفقـات لهـم مـن الـوالي فأمـر لهـم بخمسـة وعشريـن كيسًـا قُسـمت عليهـم، فسـكتوا وهـدأوا قليـلًا، يومهـا وكان يـوم خميـس نـزل كتخـدا بـك عنـد جامـع الغوريـة وجلـس فيـه وأمـر أهـل السـوق بفتـح حوانيتهـم والجلـوس فيهـا، فامتثلـوا

متخوفين، وقلوبهم وجلة، مع عدم الراحة والهدوء، وتوقعهم الشر والغدر من عسكر الطبجية، وتعدى السفهاء منهم في بعض الأحايين.

كان من المعتاد أثناء الاحتجاجات حدوث شغب وحوادث سرقة ونهب وتعدي على البيوت، وبيوت المسيحيين كانت المحطة الأولى والأكثر تعرضًا للهجوم عليها، بل وكثيرًا ما تعرض المسيحيون للقتل وسط كل ما يحدث من فوضى في المحروسة مع كل قلق، وكان الوالي يدرك ذلك، فسمح لهم في تلك المرة بحمل السلاح للدفاع عن حياتهم وأولادهم وأموالهم وديارهم، بل هو من أمدهم بالسلاح والبارود، وأمر أن يُتركوا ليفعلوا ما يريدون من تحصينات لحاراتهم ضد الاعتداءات الغوغائية المحتملة، فحصنوا مساكنهم ونواحيهم وحاراتهم وسدوا المنافذ وبنو كرانك واستعدوا بالأسلحة والبنادق.

قالت إليصابات بصوت يحمل رغبة دفينة بعد تردد وتفكير وصمت للحظات ترددت فيها في اتخاذ قرار في الأمر:

- طبعًا أنا أحب أن آتي معك وأشاهد الحسين من الداخل، ولكن ماذا سنفعل إن كشف أحدهم أمرى؟

ردت مريم في ثقة:

- اتركيها على الله لن يكشفك أحدٌ، لكن لو حدث شيءٌ ما دعيني أنا أتصرف واسكتي أنتِ.

فتمتمت محذرة:

- لا نريد أن نتأخر على البيت كذلك، هل جهزتي طعامًا لإفطاركم؟

ردت مريم في بساطة:

- جهزت بعض القنبيط قبل أن أخرج وسلقته، وحين أعود سأقليه في بعض الزيت حتى يكون ساخنًا ساعة المغرب.

وبالفعل أمرا من يسحب الحمير بتغيير اتجاهه، والتوجه ناحيه

جامع الحسين، شعرت إليصابات بالتوتر لمّا وقف موكبهم الصغير أمام مسجد الحُسين الذي يعدُّ أقدس مساجد القاهرة، كان ممتلئًا بالنسوة اللائي حضرن إلى قبر الحسين في زيارتهن الأسبوعية على ما يبدو، فأغلب النسوة في المحروسة يداومن على زيارة الحسين أسبوعيًّا مهما كانت الظروف للتبرك بالمقام وصاحبه، كانت معرفتها بالطقوس قليلة أو معدومة لكنها تبعت مريم ومشت جوارها في خشوع، خلعتا نعليهما وحملت مريم هند لتخلع عنها نعلها أيضًا، كان في أقدامهن جوارب من الجلد المراكشي الناعم أصفر اللون، حملوا النعال معهما وتحركا داخل المسجد الذي يقع في الجهه الشمالية من الأزهر، والذي أعيد بناؤه أكثر من مرة من قبل، المنطقة الأمامية عبارة عن رواق أنيق ذي أعمدة عديدة تحمل السقف، والأرضية مغطاة بالسجاد كسائر المساجد، دخلن إلى المكان المدفون فيه رأس الحسين في أعماق أرضه، وهو عبارة عن قاعة مربعة تعلوها قبة، فوق البقعة التي دفن تحتها الأثر نصب مستطيل مغطى بقماش من الحرير الأخضر مطرز على أطرافه بعض الكتابات التي لم يستطعن قرأتها لجهلهن بالقراءة، يحيط بالضريح سياج مرتفع من البرونز المزخرف، وفي الجزء العلوي نماذج من الكتابات المنمقة، الأرض مرصوفة بالرخام النقي الصافي الذي يتلألأ من شدة نظافته، حملت إليصابات هند على ذراعيها، ربما لتتوارى خلفها من أي شخص ربما يتعرف عليها، طُفن مع الزوار حول الضريح من اليسار إلى اليمين، كانت مريم وبقية الزوار يلمسون الضريح بيمناهم ويقبلونه بشفاههم ثم يضعونها على الجبين، مع تلاوة الفاتحة بصوت خفيض، حذت حذوهم في الحركات وهي تحرك شفتيها كأنها تتلو الفاتحة في خفوت، الكثير من الموجودين رجال ونساء تبدو عليهم التقوى الواضحة والإخلاص فيما يفعلون، حتى إن البعض كان يقبل السياج بورع وصدق في آن واحد، إليصابات شعرت حقيقةً بالخشوع والشجن من الجو المحيط

بها فـرددت في سرهـا بعـض مـا تحفظـه سـماعيًّا مـن ترانيـم.

خرجـن مـن الحسـين واتجهـن إلى الأزهـر بعـد مـا طلبـت هنـد وألحـت عليهمـا حـتى رضخـت السـيدتان لهـا، وطاوعاهـا في طلبهـا، ربمـا لأن الأزهـر عـلى مقربـة مـن الحسـين ولـن يبتعـدا كثـيرًا، فهـو في منتصـف الطريـق بـين الشـارع الرئيـسي للمدينـة وبـاب الغريـب. الأزهـر مسـجد القاهـرة الرئيـسي وأول مسـجد شُـيد في المدينـة، والـكل يعـدَّه جامعـة الـشرق، كثـيرًا مـا حدثـت فيـه عمليـات ترميـم وتوسـيع، فقـد شـيد بعـد مـا يقـرب مـن تسـعة أشـهر مـن بنـاء أول حائـط للمدينـة عـام ٩٧٠م تقريبًـا، ورغـم أنـه مبـني عـلى مسـاحة واسـعة، إلا أن المنـازل الكثـيرة المحيطـة بـه مـن الخـارج تجعلـه لا يبـدو بهـذا الاتسـاع مـن الخـارج، فمـن ينظـر إليـه مـن الشـارع الخارجـي لا يـرى سـوى المـآذن والمداخـل، المسـجد لـه بوابتـان رئيسـيتان وأربعـة مداخـل صغـرى، ولـكل بوابـة رئيسـية مدخـلان ومـن فوقهمـا حجـرة للـدرس مفتوحـة مـن الأمـام والخلـف، وككل المسـاجد، الـكل يخلـع حـذاءه قبـل الدخـول رغـم أن هنـاك فنـاء واسـع بـين البوابـة الرئيسـية ومـكان الصـلاة. البوابـة الرئيسـية في وسـط واجهـة المسـجد، وهـي أقـرب المداخـل مـن شـارع المدينـة الرئيـسي، داخـل هـذه البوابـة مبـاشرة وعـلى جانبيهـا مسـجدان صغـيران، مـررن مـن بينهمـا إلى السـاحة الكبـيرة المرصوفـة بالأحجـار والـتي تحيـط بهـا أروقـة ذات أعمـدة.

الـرواق الرئيـسي في مواجهـة المدخـل، والأروقـة الـتي عـلى الجوانـب الثلاثـة الأخـرى مقسـمة إلى عـدد مـن الحجـرات يسـكن فيهـا الطلبـة القادمـون مـن أنحـاء العالـم أو مـن أقاليـم مـصر، تُفصـل الأروقـة عـن بعضهـا وعـن السـاحة بحواجـز خشـبية تقـام بـين الأعمـدة، وهـي صغـيرة في الجانـب الـذي بـه البوابـة الرئيسـية؛ إذ لا يوجـد هنـاك سـوى صـف واحـد مـن الأعمـدة، كمـا يوجـد بعـض منهـا في الطابـق العلـوي أيضًـا، ويخصـص كل رواق لأبنـاء بلـد معـين.

تجولـن في الأروقـة، وهنـد تجـري وتسـبقهما ثـم تعـود لتـدور حولهمـا، كانـت سـعيدة بالـبراح الموجـودة فيـه، رغـم أنهـا تخـرج وتلعـب كثـيرًا مـع أخواتهـا، إلا أن هـذا المـكان أثـار البهجـة والسـعادة داخلهـا، رغـم أنهـا لا تتذكـره إلا قليـلًا مـن زيارتهـا السـابقة لمّـا كانـت أصغـر بعـام أو أكـثر قليـلًا حـين جـاءت مـع أبيهـا وأخواتهـا ذات مـرة، كـن يـرون أجناسًـا مختلفـة مـن حولهمـا، مـن مكـة، والمدينـة، ومـن سـوريا، مسـلمين مـن وسـط إفريقيـا، أو مغاربـة مـن مواطـني شـمالها، كمـا كان هنـاك عثمانيون وفـرس ومسـلمون مـن الهنـد.

عـلى يسـار السـاحة الكـبرى سـاحة أصغـر فيهـا حـوض كبـير مـن المـاء للوضـوء، الـرواق الكبـير واسـع جـدًّا ومغلـق بحواجـز خشـبية بـين صـف الأعمـدة الأماميـة، جـدران الـرواق مطليـة بالكلـس الأبيـض، أمـا المحراب والمنـبر كانـا في غايـة البسـاطة دون تكلـف، والأرض مغطـاة بالحـصر رغـم وجـود بعـض السـجاد هنـا أو هنـاك.

كان هنـاك بعـض الحلقـات مـن المسـتمعين حـول المعلمـين السـاندين إلى الأعمـدة، ينصتـون بانتبـاه وتركـيز شـديدين لمـا يُتـلى عليهـم مـن تفسـير للقـرآن وشرح لأمـور الديـن المختلفـة، ولـكل معلـم عمـود خـاص بـه يـؤم حولـه تلاميـذه.

بعـد أن انتهـوا عـاودن طريقهـن ممتطيـات الحمـير مـن جديـد، هنـد سـعدت بلعبهـا وجريهـا داخـل سـاحة الجامـع الأزهـر، لكـن إليصابـات ربمـا كانـت أسـعد منهـا وهـي تشـعر بالفخـر؛ لأنهـا تمتعـت بمـيزة الدخـول والتجـول في المسـجدين الأشـهر في المحروسـة رغـم القيـود الـتي تقابـل المسـيحي وخصوصًـا سـيدة مسـيحية لدخـول هـذه المسـاجد.

- ٢١ -

لم ينس محمد علي باشا الصناعات الحربية، فقد بدأ إنشاءها في القلعة مع بداية التطوير الذي بدأه في الجيش؛ لأنه رأى أن الاعتماد على جلب السلاح من الخارج يعرض قوته للخطر ويجعل الجيش والبلاد تحت رحمة الدول الأجنبية، فكان إنشاء دار صناعة القلعة أو ترسانة القلعة.

تولى أدهم بك - باشا فيما بعد - إدارة المهمات الحربية، وأسس دار صناعة ترسانة القلعة لصنع الأسلحة وصب المدافع، وكان قد جاء من الأستانة واستوطن المحروسة في عهد حكم محمد علي باشا، احتوت دار صناعة القلعة على أقسام خاصة بتصنيع المعدات الحربية والعتاد الحربي والمهمات الخاصة بالجيش، فكان بها أقسام خاصة لصنع زناد البنادق والسيوف والرماح وحقائب الجنود وحمائل السيوف إلى جانب الآلات التي كان يستخدمها البلطجية - حاملو البلط، واللغمجية - ناسفو الألغام، وغيرهم، بالإضافة إلى وجود أقسام خاصة لحُلي الخيل من اللجم والسروج والأبازيم وقِرب الماء وأطقم الخيل والجلود المدبوغة وحدوات الخيل، وأقسام خاصة للمدافع وعجلات عربات المدافع، كما كان بها مصنع متسع لعمل صناديق البارود ومواسير البنادق، ومصنع آخر لصنع الألواح النحاسية المستخدمة في تجهيز السفن يحتوي على آلة بخارية شديدة الضغط كانت قوتها تعادل عشرين حصانًا، كان يوجد بدار صناعة القلعة الطوبخانة أو دار صناعة المدافع وكانت موجودة عند باب الينكجرية الإنكشارية، وهي لسبك المدافع وعملها وقياساتها وقذائف المدافع وارتفاعها ومقاديرها، كان مصنع المدافع مصنعًا مستقلًا به أقسام عدة؛ قسم صب المدافع أو مسبك المدافع،

وقسم صهر المعادن، وقسم عمل عربات المدافع ولوازمها، وقسم لصنع عجلات المدافع ولوازمها، كان يصنع به أربعة مدافع كل شهر وزنها يتراوح ما بين أربعة إلى ثمانية أرطال، كما كان يصب في المصنع المدافع الهاون التي كانت تستخدم في القلاع والحصون إلى جانب مدافع كان يبلغ قطرها أربع وعشرون بوصة، بعد ذلك أنشأ محمد علي باشا في الحوض المرصود معملًا لصنع البنادق تحت إدارة الإيطالي مارنجو، رغم أن المصنع في بدايته كان معدًّا للنسيج، عمل فيه ألف ومائتا رجل تقريبًا، ينتجون في الشهر ما يقرب من ستمائة بندقية أو أكثر على الطراز الفرنسي، كما أن كل أمور قيادة الجيش، وإدارة شئونه، والصناعات الحربية، أنشأ لها محمد علي باشا نظارة خاصة تعرف بديوان الجهادية.

وفي يوم بينما كان العمل يدور في القلعة والورش والمصانع، كخلية نحل كبيرة، كل فرد فيها مكلف بمهمة محددة، ينفذها بإتقان، اشتعلت النيران..

لم يعرف أحد مصدرها أو كيف اشتعلت، لكنها انتشرت في سرعة لم يكن لأحد قِبل بمواجهتها، تجمع العاملون وحاولوا إطفاءها وإنقاذ المصابين وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من وجه النيران، لكن النيران كانت كاسحة انتشرت في سرعة متزايدة، حتى امتدت إلى مخزن البارود، بعد محاولات كثيرة من كل الموجودين من منعها، فروا من أمام المخزن بعد ما يئسوا من محاولتهم في قطع طريق النيران إليه، انفجر المخزن انفجارًا كبيرًا، دمر أكثر من خمسين بيتًا من البيوت المجاورة للقلعة، ومات جراء النيران والانفجار وتدمير البيوت نحو أربع آلاف ما بين رجال ونساء وأطفال.

أصلح محمد علي باشا القلعة على الفور بعد انتهاء الحريق، وشحنها بالمدافع، وبنى بالقرب منها قلعة أخرى على ذروة المقطم تشرف على الأولى - قلعة محمد علي، كما أصلح القلاع الموجودة

بالإسكندرية، وعهد بتحصين سواحل مصر وتأمين استحكاماتها، لمهندس حربي في فن الاستحكامات استقدمه من أوروبا، يسمى المسيو جليس Galice، وأنعم عليه بالبكاوية.

كان قد شرع في بناء أسطول بحري مصري يمخمر عباب البحار، في ترسانة بولاق، حين كان يجهز للحملة الوهابية، ولم ينقطع عن العمل فيها بعدها، بل تابع فيها بناء المراكب الصغيرة والكبيرة من السفن التجارية التي استخدمتها الحكومة لنقل المتاجر والمهمات على النيل وعلى شواطئ البحر المتوسط، واستمر العمل والإنشاء في الترسخانة، فأصبحت مليئة بالملاحين والمباشرين والكتاب والأمناء يكتبون ويقيدون الصادر والوارد، لكن محمد علي كان يدرك أن هذه مجرد سفن عامة أو ناقلة للجنود، لكنه كان يطمع في سفن حربية؛ لأنه يدرك أن قوة مصر لن تكون كافية للدفاع وبسط نفوذها في الخارج إلا إذا كان لها على ظهر البحار أسطول حربي قوي، فبدأ في إنشاء الدونمة المصرية بشراء بعض السفن الحربية أو طلبة إنشائها في ثغور مرسيليا، وليفورن، وتريستا، وسلحها بالمدافع، وولى عليها قباطين من الإسكندريين والعثمانيين، أما ملاحوها ونوتيتها كانوا متطوعين، ووظف ضباطًا فرنسيين وإيطاليين لتعليم البحارة وتدريبهم.

كان بالإسكندرية ترسانة على الطراز القديم تبنى فيها بعض السفن، عبارة عن مظلات من الخشب في مكان قريب من البحر، عهد برئاسة الهندسة فيها إلى شاكر أفندي الإسكندري، يعاونه مهندس سكندري من الأهلين يسمى الحاج عمر، وهو من مشاهير المعلمين في فن بناء السفن، عينه محمد علي رئيسًا للإنشاء وعمارة السفن، ووظف الحاج أحمد أغا لمناظرة بناء السفن، الأخبار انتشرت في الدول الأوربية أن محمد علي يستجلب الخبراء والموظفين الأوربيين في بناء جيشه وتطوير موانيه وبناء أسطولة، فحضر المسيو بيسون Besson،

وهـو قبطـان فرنـسي مـن ضبـاط السـفن الحربيـة الفرنسـية، إلى مـصر يعـرض خدماتـه، كمـا حـضر الكولونيـل سـيفز مـن قبلـه، فجعلـه محمـد عـلي باشـا ملاحظًـا للسـفن الـتي أمـر بصنعهـا في ترسـانات أوروبـا، نـال ثقـة محمـد عـلي وتـرقى إلى رتبـة البكويـة فصـار يعـرف بالفيـس أمـيرال بيسـون بـك.

تكونـت الدونمـة المصريـة الأولى في البحـر المتوسـط، وأُنشـئت إدارة خاصـة للأسـاطيل المصريـة عـلى رئاسـتها صهـر الـوالي، محـرم بـك مـع احتفاظـه بعملـه السـابق كمحافـظ للإسـكندرية، لكـن هـذه الدونمـة مـا لبثـت أن دُمـرت وقُـضي عليهـا في موقعـة نافاريـن، أيـام حـرب المـورة، ورغـم حـزن محمـد عـلي باشـا عـلى ضيـاع أسـطوله غـدرًا في المعركـة، إلا أنـه عـزم عـلى إنشـاء أسـطول جديـد يعـوض الأسـطول الـذي خسرتـه مـصر، وشرع في تكوينـه مـن السـفن الحربيـة الـتي كان أمـر بصنعهـا في الثغـور الأوروبيـة.

بعدهـا بـدأ في تأسيس ترسـانة كـبرى بالإسـكندرية لبناء السـفن الحربية، مسـتعينًا بمهنـدس بحـري فرنـسي يدعـى المسـيو سـيرزي Cerisy، مـن ثغـر طولـون، مشـهود لـه بالكفـاءة والخـبرة في فنـون البحريـة، خاصـة في فـن بنـاء السـفن والأحـواض والترسـانات، كان قـد عهـد إليـه مـن قبـل إنشـاء سـفينتين حربيتـين في مرسـيليا، فأرسـل إليـه محمـد عـلي باشـا يعـرض عليـه أن يحـضر إلى مـصر ليسـتعين بـه في تجهـيز وإعـداد وإعـادة إحيـاء البحريـة المصريـة، فوافـق، وحـضر إلى مـصر في أبريـل ١٨٢٩، ولـم يكـن في المينـاء سـوى البقيـة الباقيـة مـن العمـارة المصريـة الـتي نجـت مـن واقعـة نافاريـن، فرقاطـة بهـا سـتون مدفعًـا كانـت أُنشـئت بثغـر البندقيـة، وأخـرى كانـت أُنشـئت في ثغـر ليفـورن، وجملـة سـفن من طـراز الكورفيـت والإبريـق، كانـت هـذه السـفن مفتقـرة إلى مهمـات القتال ومعداتـه؛ لأنهـا أُنشـئت في ثغـور تجاريـة لا حربيـة، فجهزهـا المسـيو سـيرزي بجهازهـا وأنشـأ فيهـا مخـازن للبـارود لتكـون صالحـة للقتـال،

ثـم وضـع تصميمًـا لترسـانة كـبرى بنـاء عـلى طلـب محمـد عـلي باشـا، ولـم يكـن بالإسـكندرية حينهـا سـوى الترسـانة القديمـة الـتي كانـت تصلـح أن تكـون نـواة لبنـاء الجديـدة، وقـد بنيـت في تلـك الترسـانة سـفينة مـن طـراز الكورفيـت، وأخـرى مـن طـراز الإبريـق، وثالثـة ذات حجـم كبـير حولـت فيمـا بعـد إلى فرقاطـة، سـاعده في إنشـائها الحـاج عمـر.

حفـر بضعـة آلاف مـن الجنـد أسـاس المبـاني، واشـتروا بعـض الأماكـن عـلى الشـاطئ مـن أصحابهـا وألحقوهـا بمـشروع الترسـانة، واسـتُجلِب النجـارون، والحـدادون، والقلافطـة، والسـباكون، والميكانيكيـون، والشـبان مـن شـتى أنحـاء القطـر المـصري للعمـل في إتمـام الترسـانة والأعمـال البحريـة، تـم تدريبهـم عـلى يـد المسـيو سريـزي والحـاج عمـر، وتخـرج منهـم الأونباشـية، والجاويشـية، والضبـاط، اكتمـل بنـاء الترسـانة في عـام ١٨٣١، وأصبـح فيهـا معهـد لتعليـم المصريـين بنـاء السـفن وترميمهـا وإصـلاح آلاتهـا وميكنتهـا، أنعـم محمـد عـلي باشـا عـلى المسـيو سريـزي بالبكويـة بعـد إتمامهـا، وجعلـه باشـمهندس الترسـانة، ثـم رقـاه إلى رتبـة لـواء فيمـا بعـد.

كان يعمـل الكثـير مـن القبـط المسـيحيين في الميـنـاء، فأعفاهـم محمـد عـلي باشـا مـن دفـع الجزيـة، وأصـدر مرسـومًا بذلـك، مـع إعفـاء الأقبـاط الذيـن يؤخـذون للجهاديـة لكونهـم يـؤدون مصالـح المـيري ومـن اللـزوم رعايتهـم ورفاهيتهـم.

شُـيدت في الترسـانة الجديـدة العديـد والعديـد مـن السـفن والفرقاطـات والبـوارج الحربيـة، مثـل البارجتـان مـصر وعـكا وهمـا بحجـم السـفن الفرنسـية ذات الثلاثـة أسـطح المعروفـة في ذلـك العـصر، السـطح الأول لـكل منهمـا يحمـل ٣٢ مدفعًـا طويـلًا مـن عيـار ٣٠، والسـطحان الآخـران يحمـلان ٦٨ مدفعًـا قصـيرًا مـن نفـس العيـار.

كتـب كلـوت بـك في كتابـه بيانًـا عـن السـفن الـتي أُنشـئت أو رممـت فيـه، ذُكـر في آخـره:

«من المستطاع التحقق بأن قسما عظيمًا من التنسيقات والترتيبات المرعية في بناية السفن الحربية الفرنسية وجدت في السفن التي أُنشئت بالقطر المصري قبل وجودها في فرنسا بزمان طويل، أي إن ترسانة الإسكندرية سبقت ترسانات فرنسا إلى الوسائل الحديثة في بناء السفن».

ولما ظهر استعمال البخار أمر محمد علي باشا دار الصناعة بإنشاء سفن حربية بخارية فصنعت بواخر عدة تعمل بالبخار، منها وابور النيل وأسيوط ورشيد وجيلان التي خصصها لحمل البريد وجعل لها إدارة خاصة سماها القومبانية المصرية، وجعل هناك سفن عديدة للنقل لها إدارة خاصة تولى رئاستها محمد قرافيش قبودان ثم خلفه محمد راشد بك ثم خلفه أوزون أحمد قبودان.

السفن التي كان يتم إنشاؤها تقام لها حفلات ضخمة ابتهاجًا بنزولها إلى البحر كالحفلات التي تقيمها الحكومات الأوروبية في ثغورها الحربية بمناسبات إنشاء البوارج الجديدة، حضر محمد علي باشا بنفسه معظم هذه الحفلات تقديرًا لها وإعلاء لشأن الأسطول، وكان يُنشر بجريدة الوقائع المصرية أخبار هذه الحفلات، فكُتب في وصف إحدى الحفلات:

«إن الغليون ذا الهيئة السنية، المحلى باسم الإسكندرية، تعريف إنشاء آلاته البهية وعمل أدواته الحربية، ووصف أبعاده الثلاثية، قد تقدم ذكره الشائع، واندرج في سلك السطور والوقائع، والمراد ذكره الآن قطع حبال تعلقاته من القطر البحري، ليطير بأجنحته العنقاء إلى العالم البحري، وقد وافق هذا غرة شعبان المعظم في الساعة الرابعة من النهار؛ حيث تجلت مشاهد الأنوار، وكان ذلك بحضرة جميع الأمراء والعظماء، وزمرة الصلحاء والعلماء، وقناصل الدول المستأمنين، وقاطبة الأهلين، مع جملة أولادهم الكبار، وعيالهم الصغار، وكانوا لدى ساحة الترسانة الواسعة الأرجاء، منتشرين

كنجـوم السـماء، وأمـا سـعادة أفندينـا ولي النعـم فإنـه ركـب الفلـك بحـرًا، وهلـم جـرا، واسـتصحب بمعيتـه أحـد رجـال الدولـة العَليـة، المأمـور بتشريـف الديـار المصريـة، أعـني بـه مصطفـى أفنـدي نظيـف، حـتى وضع لـدى موضـع الترسانة قدمـه الشريـف، وكان الغليـون إذ ذاك قـد بـادر إلى قطـع أكـثر العلائـق، ووداع الخلائـق، بحضـور المهنـدس الـذي هـو لـكل منبقـة حـاوٍ، الخواجـة سريـزي الفرنسـاوي، فتقـدم الومـأ إليـه لـدى ساحة مـكارم ولي النعـم، وأشـار إلى أن هـذا هـو وقـت الدعـاء مـن زمـرة العلمـاء، فتقدمـوا إلى جهـة الغليـون الـراسي كالطـود المتـين، ولـدى دعائهـم قـال الحـاضرون آمـين، فتـلا حينئـذ لسـان حـال الغليـون، عـمَّ يتسـاءلون.

ثم نبذ باقي العلائق، وأنشد بمحضر الخلائق.

لست أخشى عسف الرياح إذا ما   بِنتُ من ساحل ووسَّطت بحرًا

- ٢٢ -

بعد انقضاء أيام العيد، وفي ساعة عصاري هادئة، مرت السيدة حفيظة على السيدة مريم في بيتها، تدعوها لحفل طهور ابنها عبدالرحمن الذي قرر والده طهوره بعد أن أتم عامين ونصف العام تقريبًا، السيدة حفيظة صديقتها منذ الصغر وكانت جارتها في بيت أبيها قبل الزواج، وبعد أن تزوج كلاهما لم تنقطع صداقتهما، وواظبا على تبادل الزيارات خصوصًا في المناسبات، الولدان خرجا من قبل الضحى إلى والدهما بالورشة، وهند تلعب أمام البيت لعبة الحجلة مع صديقاتها من بنات جيرانها، قابلتها مريم بالترحاب والتهليل ودعتها للراحة في غرفة الجلوس، قامت بإعداد صينية القهوة بما عليها من سبرتاية وإناء زجاجي مليء بالماء، لزوم إعداد فنجانين من القهوة المعتبرة، ترحيبًا بالضيفة وللاسترخاء قليلًا، فالقهوة رغم أنها لا تتناولها كثيرًا إلا أنها تعتبرها من الأمور المحببة لنفسها، والتي تجلب عليها الطمأنينة وهدوء النفس، رغم أن أغلب الأهالي يخشون منها ويدَّعون في رهبة: «إنها تصبغ الكبد بلون القهوة وتسبب الضرر له»، مُلئت الكنكة النحاسية بالماء، بعد أن وضعت فيها البن اليمني، الذي اشتراه السيد محمود من أحد التجار اليمنيين العرب، بعد أن طحنته في مطحنتها النحاسية، والتي هي من الأشياء الأساسية في كل بيت تقريبًا، كذلك المحمصة التي كانت تصنع من الحديد أو النحاس وتستخدم في تقليب حبوب البن أثناء تحميصها على النار ولا يوجد منزل يخلو منهما على الإطلاق إلا فيما ندر.

التحويجة المخصوصة تشتريها بنفسها من سوق العطارين وتخلطها في البيت مع البن؛ لذلك يكون فنجان القهوة محبشًا بأفضل النكهات

التحويجيـة، لكنهـا تـترك قليـلًا منـه دون تحويجـه، تحسـبًا إن جاءهـم زائـر يفضـل القهـوة دون تحويجهـا، كمـا يفعـل السـيد إبراهيـم مرقـص وزوجتـه السـيدة إليصابـات.

صبـت القهـوة في كـوب صغـير وناولتـه للسـيدة حفيظـة الـتي تناولتـه في يدهـا البيضـاء الممتلئـة لحمًـا وأسـاورَ ذهبيـة تجلجـل معطيـة صـوت جـرس مثـير وهـي تقـول:

- تذكريـن مـا حكيتيـه لي مـن قبـل عـن أن بعـض الشـيوخ كانـوا يفتـون بـأن القهـوة حـرام؟

ردت السـيدة مريـم مبتسـمة وهـي تصـب قهوتهـا والدخـان يتصاعـد منهـا:

- نعـم كان النـاس ينكرونهـا كأنهـا خمـر، سـمعت ذلـك مـن أبي وأنـا صغـيرة، حـتى أفـتى بشرعيتهـا مفـتي السـلطان العثمـاني وصـاروا يطلقـون عليهـا القهـوة الـتركي رغـم أنهـا عربيـة الأصـل مـن اليمـن.

تابعـت كلامهـا وهـي تطفـئ السـبرتاية بوضـع الغطـاء النحـاسي عـلى اللهـب:

- لقـد كان الطلبـة اليمنيـون أول مـن أتى لنـا بالـبن معهـم وهـم قادمـون للدراسـة في الجامـع الأزهـر، وسرت بـين الطـلاب وانتـشرت بعدهـا خـارج الجامـع بـين النـاس العاديـة.

لـم يكـن مـن الغريـب عـلى السـيدة مريـم أن تعـرف هـذه الحكايـات، فوالدهـا حـكى لهـا ذلـك حـين كانـت طفلـة، فقـد كان والـد أبيهـا وجـدُّ مريـم طالبًـا في الأزهـر حـين بـدأ شرب القهـوة في رواق الطلبـة المغتربـين مـن أهـل اليمـن؛ حيـث كان يرتشـف بعـض صوفـي اليمـن أكـواب صغـيرة مـن القهـوة لتسـاعدهم عـلى الدراسـة والسـهر والذكـر، وشـيئًا فشـيئًا انتـشر أمـر القهـوة بـين دارسي الأزهـر الشريـف، ومـن هنـا كان ميـلاد دخـول مـشروب القهـوة إلى مـصر في العقـد الأول مـن القـرن السـادس عـشر، أخبرهـا أبوهـا عـن جدهـا أن القهـوة في البدايـة قوبلـت بمعارضـة

شـديدة مـن قبـل رجـال الديـن والطبقـات المتشـددة، فقـد قـام أحـد فقهـاء المذهـب الشـافعي وهـو الفقيـه أحمـد بـن عبـد الحـق السـنباطي بحملـة عنيفـة ضـد المـشروب الجديـد عندمـا طـرح عليـه أحـد السـائلين سـؤالًا حـول شرب القهـوة، وطلـب فتـوى منـه بـإدلاء رأيـه الديـني عـن المـشروب الـذي يدعـى قهـوة، والـذي يزعـم بعضهـم أنـه مبـاح رغـم مـا ينجـم عنـه مـن نتائـج وعواقـب فاسـدة؟ فأفـتى بتحريمهـا وبالتـالي عارضهـا المجتمـع بشـدة، فقـول أحـد المشـايخ بتحريمهـا يجعـل النـاس تثـور عليهـا وعـلى صاحبهـا وبائعهـا، كثورتهـم عـلى الخمـر وشـاربها وحاملهـا، اسـتمرت معـاداة القهـوة ومحـاولات تحريمهـا بـضراوة، حتى إن أحـد الأئمـة الموالـين للفقيـه أحمـد السـنباطي خطـب خطبـة مخصوصـة عـن القهـوة أدت إلى هيـاج شـعبي عنيـف ضـده. عـدوى التحريـم أصابـت عمـوم القاهـرة، حـين هاجـم فقيـه متشـدد آخـر القهـوة ومـن يشربونهـا عـلى المنابـر وهـو مـا دفـع المسـتمعين لـه لتحطيـم المقاهـي لتعيـش القاهـرة حـالات شـغب جديـدة مـن أجـل القهـوة.

وفي نهايـة عامهـم الهجـري صـدرت فتـوى أخـرى مفاجئـة بالقاهـرة في مطلـع شـعبان تقـضي بمنـع المنكـرات والمسـكرات والمحرمـات، وبغلـق أبـواب الحانـات والخانـات، ومنـع اسـتعمال القهـوة والتجاهـر بشربهـا، وهـدم كوانينهـا وكـسر أوانيهـا، ولتنفيـذ هـذا الحكـم قـام العسـس بتفتيـش بيـوت تجارهـا وبائعيهـا تفتيشًـا شـديدًا، وضربـوا الأبـواب وهدمـوا البيـوت وكـسروا أوانيهـا، تدَّخـل تجـار البـذور والـبن ومنتجـو القهـوة والبائعـون وأرسـلوا وفـدًا إلى الشـيخ أحمـد السـنباطي يطلبـون منـه الرجـوع عـن الفتـوى، فـكان رده:

- ما دامت القهوة تؤثر في العقل إيجابًا أو سلبًا فهي حرام شرعًا..!!

لأجـل ذلـك نشـبت معركـة حاميـة الوطيـس بـين مؤيـدي الشـيخ وفتـواه وبـين التجار ومؤيديهـم مـن البائعـين ومـن بعـض شـاربيها، مـات عـلى إثرهـا أحـد مؤيـدي التجـار، فهـرب الشـيخ ومؤيـدوه إلى أحـد المسـاجد،

فحاصرهـم التجـار داخـل المسـجد مـن كل جانـب وجاءهـم خـبر وفـاة رجـل ثـان منهـم، وخـبر بعدهـا يؤكـد أن هنـاك آخـر مصـاب إصابـة بالغـة ربمـا يلحـق عـلى أثرهـا بصاحبيـه، وبالفعـل تـوفي الشـاب وأُصيـب أهلـه بصدمـة عندمـا علمـوا بموتـه، قـرر التجـار حينهـا الاسـتمرار في محـاصرة الشـيخ ومؤيـدي فتـوى القهـوة حـرام شرعًـا في مسـجدهم، جـاء أهـالي القتـلى واشـتركوا في الحصـار، وبقـدوم الليـل أرسـلوا أحدهـم لإحضـار بطاطـين وعمـل صـوان بأعمـدة لتقيهـم الـبرد، ونكايـة في مؤيدي الفتـوى وشـيوخها ومفتيهـا، قـام التجـار ووزعـوا قهـوة بـدون سـكر عـلى الموجوديـن كلهـم.

دام حصارهـم للمسـجد ثلاثـة أيـام، مـع اسـتمرار حالـة الفـوضى والشـغب حـتى وصـل أمـر الاضطرابـات لأمـر السـلطان العثمـاني مـراد، الـذي قـام بتعيـين مفـتي جديـد، أصـدر فتـوى جديـدة بعـدم حرمـة شرب القهـوة، اعتـبر التجـار ومؤيـدو شرعيـة شرب القهـوة أن هـذا التغيير انتصـارٌ لهـم، ولأرواح شـهداء القهـوة، ومـن يومهـا انتـشر شرب القهـوة السـادة في العـزاءات والمآتـم، ثـم انتقلـت هـذه العـادة مـن حـدث إلى عـادة عنـد أهـالي تجـار الـبن في القاهـرة ومنهـا إلى كبـار الأعيـان، ومنها إلى بـاقي أقاليـم مـصر، فـكان كل ميـت يقـام لـه صيـوان ويـشرب المعـزون فيـه القهـوة السـادة.

رشـفت السـيدة حفيظـة مـن فنجانهـا ومَدحـت في جودتـه وإعـداده بقولهـا:

- سلمت يداكِ يا أم علي.

سألتها السيدة مريم عن اللفات التي تحملها معها، فأجابت:

- اشـتريت الجبـة الخـضراء لابـني الـذي سـنطاهره، عريـس مـا شـاء الله، وكذلـك قمصـان رمـش العـين الخفيفـة.

بانت ملامح الابتهاج على السيدة مريم وهي ترد مهنئة:

- مـبروك يـا ست حفيظـة، يحفظـه لـكِ وتفرحـي بـه وتزوجيـه وتفرحـي

بعدلـه إن شـاء الله.

شكرتها في عمق وردت:

- عقبى لهند حين تطاهرينها، متى تنوي ذلك بمشيئة الله.

تـرددت مريـم قليـلًا في الـكلام وهـي ترتشـف في بـطء رشـفات مـن فنجانهـا، ثـم أجابـت في صـوت خفيـض كمـا لـو أن هنـاك ثالـث يجوارهمـا:

- بيني وبينك لا أنوي أن أُطاهرها.

لطمت حفيظة على صدرها صارخة:

- يـا لهـوي، يـا عيـب الشـوم، ليـه كـده ألـف بعـد الـشر عنهـا، أنـت ترضيهـا!! تبقـى كـده ولا كـده لمّـا تكـبر؟!!

وضعـت مريـم فنجانهـا عـلى المنضـدة الـتي تتوسـط غرفـة الجلـوس وهـي تهمـس:

- وطـي صوتـك يـا حفيظـة، أنـا لـم أكـن أنـوي أن أقـول لأحـد أبـدًا، لكـن هـا أنـا ذا أخـبرك، مـن يـوم أن حـضرت طهـور البنـت سـعدية - رحمهـا الله - بنـت السـت رئيفـة والحـاج حسـين الشـابوري، ورأيتهـا وهـي تخـرج صارخـة مـن الغرفـة بعـد أن تكالبـت عليهـا النسـاء في عمليـة طهورهـا، تجـري ونصفهـا الأسـفل غـارق في الدمـاء ودموعهـا يـا حبـة عيـني تمـلأ وجههـا وتبلـل صدرهـا.

أغمضـت عينيهـا في قـوة، تريـد أن تطـرد تلـك اللحظـة مـن مخيلتهـا ومـن ذاكرتهـا:

- لن أنسى هذا المنظر ما حييت.

رفعـت حفيظـة حاجبيهـا متعجبـة وهـي تضـع فنجانهـا مـن يدهـا وتلطـم مـرة أخـرى عـلى صدرهـا باليـد الأخـرى:

- هي البنت سعدية ماتت بسبب طهورها؟!!

أجابت مريم في حزن وأسى:

- نعـم، لقـد ظلـت تـنزف طيلـة الليـل وماتـت قبـل أن يصبـح عليهـا الصباح، ومـن يومهـا وأنـا أخـشى عـلى هنـد، وربنـا يسـتر علينـا وعـلى كل بناتنـا.. أمـين يـا رب.

قالت السيدة حفيظة في قلق:

- لكـن هـذا لـن يكـون طيبًـا للبنـت، مـن الممكـن أن يفلـت عيارهـا لمّـا تكـبر.

ردت مريـم في سرعـة وهـي تخمـس وتحـرك يدهـا في حركـة دائريـة حـول رأسـها وأصابعهـا مفـرودة وأطرافهـا مضمومـة جنبًـا إلى جنـب:

- ألـف بعـد الـشر عـن بنـتي، وربنـا يسـتر عليهـا وعـلى بناتنـا كلنـا ويحفظهـم مـن كل شر، ربنـا يسـتر.

هزت حفيظة كتفيها ونطقت متراجعة:

- أنت أدرى بصالح بنتك، ربنا يخليها لكِ.

- الله يخليكي يا ست حفيظة.

ثم همست في رجاء:

- لكـن لا تذكـري أي سـيرة عمـا قلتـه لـكي الآن لأي مخلـوق مهمـا كان، سـأقول إنـني قـد طاهرتهـا في الـسر عنـد إحـدى قريباتنـا، فأنـت أدرى بعوايدنـا نطاهـر البنـات سرًا دون جلبـة.

أجابـت في صـوت هامـس إلى حـد مـا وهـي تربـت عـلى سـاق السـيدة مريـم:

- لا تخـافي سرك في بـئر، ويمكـن يكـون عنـدك حـق، فأنـا حـتى اليـوم مـا زلـت أذكـر يـوم أن طاهرتـني أمـي، وقتهـا كانـت الخالـة أمينـة القابلـة الدايـة مـن طاهرتـني، وقامـت بتكتيفـي مـن يـدي كلٌّ مـن أمـي وخالـتي، والخالـة أمينـة كشـفت ملابـسي عـن عـورتي وأنـا أصرخ وأبـكي، ولـم أجـد مـن يغيثـني.

تنهدت في ألم من ذكرياتها وهي تتابع:

- ظللت أسابيع راقدة بعدها في السرير خائفة ومرتعبة مما حدث، هذا غير الألم الذي كاد يقتلني، كان يومًا أسودَ بالفعل، ظللت بعدها لا أتكلم ولا آكل فترة طويلة وأمي تطعمني بالقوة، كنت حتى أشرب بالكاد ما يكفيني، فلم يكن لي نفس حينها للطعام أو الشراب، ربنا لا يُعديها أيام.

بعد أيام ذهبت أم هند واصطحبت معها جارتها إليصابات وتركت ابنتها هند مع أختها في البيت، العادة لدى الناس المرور بالملابس في جميع أنحاء البلدة كإعلان عن الطهور، تم النداء في جميع الدواريب بكلمة: «امشوا على العريس».

رُفعت الجبة الخضراء في عصا طويلة أثناء المرور بزفة من الكبار والصبيان منادين بكلمة امشوا على العريس، وتم عمل زيارات للمطَّاهر إلى المشايخ الشيخ إدريس والشيخ عامر، في الليلة التي سبقتها وهي ليلة الحناء، كأنه عريس يتزوج فعلًا، تم تجهيز الذبيحة وأقاموا مولدًا في هذه الليلة كأنه فرح تمامًا، وحضر الحفل الشخص الذي يقوم بعملية الطهور وهو الحلاق عبد الرزاق وهذا الطقس يسمونه الخلافة، بدأت الخلافة بكلمة «خلف الله عليك يا عبدالرحمن نقطت العريس بالبركة وخلافة خير»، وأثناء الخلافة حلق عبد الرزاق شعر بعض الصبيان الصغار، ونُقِّط الصبي بما تيسر للمهنئين من المال، وكانت المبالغ زهيدة من الريالات الفضية، وبعد انتهاء الخلافة بدأ الاحتفال بالمولد..

المهرجون من إحدى أساليب الاحتفال، يسلون الحاضرين بألعابهم الهزلية المضحكة، يجذبون المستمعين والمشاهدين حولهم أينما ذهبوا، وأعمالهم غالبًا مزاح سوقي وأعمال خارجة للتسلية، رغم ذلك يستحسنها المشاهدون وتنال التصفيق، والمهرجون كلهم من الرجال والأولاد حتى دور المرأة يؤديه رجل، وتم استخدام فناء البيت الأمامي كمسرح على إحدى جانبيه ساتر يحجب خلفه ملابسهم،

كما اهتم أبو عبد الرحمن بإحضار الأراجوز رغم أنه يتم تمثيله بالتركي إلا أنه يثير الضحك في نفوس الكبار قبل الأطفال بحركاته وأصواته التي يفتعلها، في آخر الليل قدموا الأدوار بطريقة مسرح الظل، وهذا العرض لاقى إقبال حتى من الناس المارين في الشارع من غير المعزومين، لكن في هذه المناسبات اعتبروا أن الدعوة عامة.

في صباح اليوم التالي -يوم الطهارة –اجتمع الناس كما لو كانت صباحية زفاف وقام عبدالرزاق بعملية الطهور بعد ما ألبسوا الصبي الجبة الخضراء، بعدها حُمل الصبي عبدالرحمن في زفة كبرى طافت الدروب حتى الجامع الكبير، ثم عادوا بعد الزفة ووضع في ضليلة، ومكث بالشارع أمام المنزل حتى المساء، وكل مساء حتى اليوم الثالث.

- ٢٣ -

رغم مرور سنوات على مذبحة القلعة ظلت زوجة محمد علي باشا السيدة أمينة هانم ممتنعة عنه، تحدثه بجفاء، رغم تكراره المحاولات ليجعلها تصفح عنه بعد أن أعلن ندمه الشديد على ما فعل، وأنه لو عادت به الدنيا من جديد، فلن يُقدم على هذا الفعل أبدًا، إلا أنها أبت وظلت على عنادها، رغم يقينها من حبه الشديد لها، حتى إنها قالت له ذات مرة:

- إن ما فعلته أقل ما يوصف به هو البشاعة، سيأتي يومٌ يصفك فيه الناس بالجزار أو قاطع الرؤوس أو سفاح المماليك، كيف تريدني أن أصفو لك وأنا أرى يديك ملوثة بالدماء وأخشى أن تلوثني بها معك.

في كل مرة يغادر حجرتها ممتقع الوجه، غاضبًا من أقوالها، لكنه يعود بعد فترة يحاول إرضاءها، إكرامًا لها، ولأبيها علي باشا المعروف بمصرلي، وهو من أهالي قرية نصرتلي، ولأنها أم أولاده، إبراهيم باشا، وأحمد طوسون باشا، وإسماعيل كامل باشا - الذي قُتل حرقًا في مؤامرة أعدها له الملك نمر ملك شندي عام ١٨٢٢، ردًّا على إهانة وجهها له إسماعيل من قبل توبيخًا له على مهاجمة أهالي شندي لقوافل الرقيق المتجهة لمصر، والأميرة توحيدة هانم، والأميرة نازلي هانم، أما زوجته الثانية ماه دوران هانم أو قمش قادين لم يرزق منها بأولاد، ولديه إحدى عشر جارية -ما ملكته يمينه، رزق من بعضهن البنين والبنات، أم نعمان رزق منها الأمير نعمان بك، عين حياة قادين رزق منها محمد سعيد باشا، ممتاز قادين رزق منها الأمير حسين بك، ماهوش قادين رزق منها الأمير علي صديق بك، نام شاز قادين رزق منها الأمير محمد عبد الحليم، زيبة خديجة

قادين رزق منها الأمير محمد علي باشا الصغير، شمس صفا قادين رزق منها بنتان الأميرة فاطمة هانم، والأميرة رقية هانم، شمع نور قادين وقد رزق منها الأميرة زينب هانم، أما نايلة قادين، وكلفدان قادين، وقمر قادين لم يرزق منهن بأولاد.

حظي أولاده بفرصة للتعليم مبكرًا لم تُتح له في صغره، فمحمد علي باشا لم يتعلم القرأة والكتابة إلا في سن الخامسة والأربعين، اعتمد على أبنائه في كثير من الأمور، فنجد أنه أوكل قيادة الحملة الوهابية الأولى لطوسون باشا، رغم أنه لم يكن قد أكمل عامه الثامن عشر حينئذ، وأرسل الهدايا والأموال للأستانة مع إبراهيم باشا وهو في أوائل العشرينيات من عمره، وحُجز هناك فترة، وبعد عودته، قاد الجيوش المصرية في أغلب معاركه، بدايةً من حملته للقضاء على الوهابيين، ثم الحملة على السودان ومن بعدها الحملة في حرب المورة على اليونان، وهو من أنشأ المبرة المصرية أو ما يُطلق عليها التكية المصرية بالحجاز في المدينة المنورة ومكة وجدة؛ حيث كان يتم توزيع الأرز والخبز فيها على الفقراء في جزيرة العرب، كما رفع الضرائب عن الكنائس وعن الرهبان المسيحيين في القدس ونابلس بعدما فتح الشام، واستصدر فرمان جاء فيه إلغاء جميع أنواع الضرائب التي تُجبى من أديرة ومعابد كل الشعوب المسيحية المقيمة في القدس، من يونانيين، وفرنجة، وأقباط، وأرمن، وغيرهم، حتى الهدية العادية منها إلى خزينة الباشوات أو لمصلحة القضاة ألغاها، وأعلن عن عقوبة لمن يخالف هذا الفرمان، وكل من يطلب إتاوة من المعابد والأديرة المذكورة أو من الحجاج إليها.

رغم هذا هو من أنهى حياة المعلم غالي بطلقة من غدارته - في آخر عهد محمد علي؛ لأنه عارضه في فكرة فرض الضرائب على النخيل، ثم طلب عرض الأمر على محمد علي باشا ليفصل في الأمر؛ لأنه شعر بإهانة لعدم امتثال المعلم غالي لأوامره وطلبه لتأكيد الأمر

مـن والـده، كأي طفـل صغـير، فأخـرج مسدسـه وأطلـق الرصـاص عـلى المعلـم غـالي الـذي سـقط صريعًـا عـلى الفـور، ولـم يجـرؤ أحـد عـلى دفـن الجثـة الـتي ظلـت ملقـاة في الخـلاء بالقـصر في زفـتى لمـدة يومـين، إلا بعـد أن اسـتأذن رزق أغـا حاكـم الشرقيـة في دفنهـا، وتمـت الصـلاة عـلى جثمانـه بكنيسـة أبي سـيفين بزفـتى ثـم دفـن بجوارهـا.

بعدهـا دعـى الباشـا الـوالي محمـد عـلي، باسـيليوس ابـن المعلـم غـالي، لتطييـب خاطـره، ومـداوة بعـض مـا يشـعر بـه بعـد قتـل والـده، وقـد كان يذكـره منـذ أن كان صبيًّـا لمـا حـضر معـه والـده إلى القـصر، وهـو بعـد صـبيٌّ، وأخـذ القلنسـوة مـن فـوق رأسـه، وسـأله مداعبًـا:

- إذا بعتها فمن يشتريها مني وبِكَم؟

فرد الصبي حينها:

- أنا المشتري وأدفع ألف كيس ثمنًا لها.

استغرب حينها منه وسأله متعجبًا:

- أتساوي قلنسوتك كل هذا المبلغ؟

فأجاب:

- القلنسوة التي يكون محمد علي باشا دلالها تقدَّر بأكثر من هذا.

فلمـا دخـل باسـيليوس عـلى محمـد عـلي باشـا، نهـض يسـتقبله، ووسـاه ببعـض الكلمـات، لكـن باسـيليوس أجـاب عـلى الـوالي بـأن أبيـه حـي مـا دام الباشـا الـوالي ولي النعـم حيًّـا، فأُعجـب بـه محمـد عـلي وبحديثـه، مـرة أخـرى وهـو كبـير، وأسـند إليـه وظيفـة رئيـس المحاسـبة وأنعـم عليه برتبـة بـك، وهـو أول مـن مُنِـح هـذه الرتبـة مـن الأقبـاط المسـيحيين.

- ٢٤ -

تعـودت مريـم كل بضعـة أيـام الذهـاب إلى مـنزل إليصابـات كمـا تقول: «لتنفـك معهـا بـأي كلمتيـن»، تصطحـب هنـد والولديـن معهـا، يلعبـوا مـع أبانـوب في منزلـه، وتجلـس هـي وإليصابـات يشربـا القهـوة دون التحويجـة كمـا تفضلهـا إليصابـات، يعدانهـا أثنـا جلسـتهما وحديثهمـا عـلى نـار هادئـة في المشربيـة، تابعـا موكـب عُـرس يمـر مـن شـارعهما، والعـروس ملتفـة بشـالٍ حريـري أبيـض تحـت ظُلـة مـن الحريـر، وعـلى جانبيهـا امرأتـان، والأهـل يعـبرون عـن فرحتهـم بالعُـرس بـأداء حـركات راقصـة بهلوانيـة، غـير الأطفـال الذيـن يثـيرون الهرجلـة في آخـر الزفـة، والعـروس تـكاد تختنـق مـن ملابسـها والسـير تحـت وهـج شـمس الظهـيرة الحارقـة عـلى قدميهـا قادمـة مـن مسـافة طويلـة، ومـا زال أمامهـا طريـق ليـس بقصـير، وهـي في حالـة أقـرب للإغمـاء مـن شـدة تعبهـا، بعـض الآلاتيـة يدقـون الطبـول وينفخـون المزامـير حـادة الصـوت، فتنبعـث أصـوات متضـادة في غـير تجانـس ليـس لهـا صلـة بالموسـيقى، والنسـاء المرافقـات يجاملـن بإطـلاق الزغاريـد النشـاز لتصـم بهـا الآذان، وجاملتهـن مريـم، وإليصابـات، والنسـاء مـن جيرانهـن بالزغاريـد العاليـة المتواصلـة دون حـتى أن يعرفـن مـن هـي العـروس.

أحيانًـا مـا تنضـم لهمـا في جلسـتهما جـارة أو أكـثر مـن أصدقائهمـا، وتتسـع دائـرة حديثهمـا ربمـا عـن أخبـار النسـاء في شـارعهما والشـوارع المجـاورة، أحيانًـا يشـتكون مـن مشـاكلهن مـع أزواجهـن، وأحيانًـا مـن المعيشـة وأحـوال المحروسـة، يشـتكون لبعضهـن مـن غـلاء الأسـعار أو يتناقشـون في طريقـة كل واحـدة منهـن في الطبـخ، كل فـتره كانـوا يسـتقدمون إحـدى العرافـات مـن الغجـر، مـن جـوار المحروسـة حيـث يقيـم هنـاك قبائـل عـدة صغـيرة مـن الغجـر يعمـل كثـير مـن نسـائهم

عرافات، غالبًا ما يلبسن بطريقة مشابهة لعامة النساء من الطبقات الدنيا، ويلففن حول رأسهن الطرحة، بوجوه غير محجبة، يحملن قربة من جلد الغزال تحتوي على موادهم وأدوتهم الخاصة بالعرافة، كالودع وقليل من الزجاج الملون، يرددن قول: «نفتح البخت! ونبين الحاضر والغائب!»، وأحيانًا ما يقوم هؤلاء النسوة بدق الوشم أو بعمليات الطهور.

على سطح البيت جلس الأطفال يتابعون بشغف الزفة التي تمر وهم يصفقون مع الأصوات المنبعثة من الطبل والمزامير، وبعد أن مرت اجتمعوا في غرفة أبانوب يستمعون إلى حكايته عمَّا سمعه من حكايات إحدى النساء مع أمه عن بيت الحمامي المهجور المجاور لبيتهم.

البيت له شهرة واسعة في المنطقة، منذ سنوات عدة في أيام وجود حملة الفرنساوية في البلاد، سكن فيه أحد التجار بمفرده في البداية، ثم بعد فترة أتى بجارية حبشية، أو كانوا يعتقدونها كذلك بسبب لون بشرتها الأسود، عاشت معه بالبيت، تساعدها أحيانًا في الأعمال المنزلية خادمة، لكن لم تكن تقضي الليل بالمنزل، تأتي صباحًا تنهي عملها وتعود إلى بيتها في المساء ولا تبيت.

الحبشية أتى بها من إحدى سفرياته التي كانت أحيانًا ما تطول لأشهر عدة يترك فيها البيت مهجورًا، يسدد أجرة البيت لأشهر عدة مقدمًا حتى لا يضطر صاحبه لعرضه للإيجار أثناء غيابه.

حين كان يعود لم يكن أحدٌ يشعر بعودته إلا إذا قامت الجارية بفتح نوافذ المشربية، أو تنفيض مراتب الغرف والسجاد والحصائر على سطح البيت، لم تكن إقامته تطول، فلم يكد يصل حتى يغلق البيت ويسافر مرة أخرى، دون أن يعلم أحدٌ أين كان يسافر أو فيما كان يتاجر، بعض الأقاويل كانت تتردد بين الناس أن سفرياته كانت لأدغال إفريقية، ومنها أتى بالحبشية التي لم تكن تتحدث مع أحد

من الجيران، حتى ظنها الجيران صماء بكماء، لكن عرفوا أن هذا لم يكن صحيحًا، لما وجدوها تشير منادية للسقا، وسمعوها تحدثه بلسان عجيب لم يفهموا منها شيئًا، لكن الرغبة في مياه الشرب كانت لغة الإشارة معها تكفي السقا ليفهم ما تريده منه.

التاجر طوال فترة إقامته في بيت الحمامي لم يكن يظهر إلا قليلًا، لكن كثيرًا ما كان يصدر من خلف جدران البيت صخبًا في الليل، وربما بضع مرات سمعوا صريخًا يوقظ النائم من غفوته في منتصف ليل عميق.

في إحدى الليالي المشئومة، سمع الجيران صراخًا وصخبًا شديدًا، في البداية ظنوا أنه من ضمن طقوس الصخب التي تخرج من البيت أحيانًا، لكن الصراخ وقعه كان يتزايد، حتى أصبح كصوت شخص يستغيث، تجمع الجيران في الشارع أمام بيوتهم يتبادلون نظرات القلق والحيرة، تجرأ أحدهم رغم الصراخ المتزايد، واقترب في رعب ناحية باب البيت العريض ودق عليه في قوة وهو ينادي: «يا أهل الله.. ياللي هنا»، لم تكد حروف ندائه تنتهي حتى أُضيء البيت بإضاءة شديدة انبعثت من مشربية الدور العلوي ومن حول إطار البيت، ارتفعت معها صرخة امرأة من الداخل تحمل خوف الدنيا والآخرة، صرخت النساء الواقفات أمام بيوتهن في فزع، وانزعج بعض الرجال وتراجعوا في خوف، ولم يتجرأ أحدٌ منهم على الدخول أو الدق مرة أخرى على الباب، وبعد دقائق هدأت الأصوات واختفت الأضواء المتقطعة ذات الوهج الشديد المنبعثة من داخل البيت.

بات الكل ليلتهم في الشارع، وفي الصباح أتى عساكر الفرنساوية وأحد ضباطهم، بعد ما أُبلغوا بالأمر، دقوا الباب عدة مرات فلم يجيبهم أحدٌ، اضطر العساكر لكسر الباب واقتحام البيت، وجدوا أثاث البيت كله مبعثر ومقلوب على الأرض، والدور العلوى أرضه محروقة كما لو كان قد أضرم أحدهم فيها النار ليلتها، وفي الحمام

بالـدور الأرضي وجـدوا كثيرًا مـن الدمـاء المنثـورة عـلى الأرض والجـدران، ولـم يكـن هنـاك أي أثـر للمـرأة الحبشـية الـتي ظنـوا الـصراخ صراخهـا، ولـم يجـدوا التاجـر أو أي شيء يـدل عـلى أنهـم كانـوا موجوديـن في البيـت تلـك الليلـة، غـير بعـض مـن الملابـس، والشـهود الذيـن حـضروا أحـداث الليلـة الماضيـة وسـمعوا الأصـوات والصريـخ وشـاهدوا الأنـوار بـأم أعينهـم، أمـا بالداخـل فلـم يكـن هنـاك مخـرج آخـر للبيـت وبقيـة النوافـذ كانـت مغلقـة عـلى المشربيـات مـن الداخـل، ولـم يكـن للبيـت فتحـة سـقف مفتوحـة للسـماء كمعظـم بيـوت المنطقـة.

وقـف الجـيران والنـاس أمـام البيـت يقلبـون كفوفهـم بعضهـا فـوق بعـض مـن الحـيرة، وانتـشرت الأقاويـل بـين النـاس، خيـال أهـالي المحروسـة كفيـل بخلـق حكايـات وروايـات أكـثر ممـا حـدث بضـع مـرات، فمـن سـمع دقـة نملـة عـلى الأرض حولهـا بقدرة قـادر إلى ضربـات اقتحام مـن جيـش الفرنسـيس عـلى البـلاد، مـن يومهـا والحكايـات تتبـادل وتنتقـل بـين النـاس.

بعـد أن تسـلم صاحـب البيـت بيتـه مـن جديـد مـن الفرنسـاوية، بعـد أن عجـزوا عـن معرفـة مـا حـدث أو إيجـاد سـببٍ مقنـعٍ للأحـداث والأضـواء والاختفـاء الغريـب الـذي حـدث للتاجـر وجاريتـه، اسـتدعى أحـد الشـيوخ بعـد أن قـام بتبخـيره وتنظيفـه مـن الدمـاء، قـام الشـيخ بقـراءة القـرآن وعـلا صوتـه وهـو يـردد آيـات بعينهـا وهـو يقـول:

- الحمـد الله الواحـد الأحـد الـذي لـم يلـد ولـم يولـد ولـم يكـن لـه كفـؤًا أحـد وأصلي وأسـلم عـلى الـسراج المنير محمـد بـن عبـد الله صلى الله عليـه وسـلم .. «قُـلْ هَـلْ مِـن شُرَكَآئِكُـم مَّـن يَبْـدَأُ الْخَلْـقَ ثُـمَّ يُعِيـدُهُ قُـلِ اللّـهُ يَبْـدَأُ الْخَلْـقَ ثُـمَّ يُعِيـدُهُ فَـأَنَّى تُؤْفَكُـونَ، قُـلْ هَـلْ مِـن شُرَكَآئِكُـم مَّـن يَهْـدِي إِلَى الْحَـقِّ قُـلِ اللّـهُ يَهْـدِي لِلْحَـقِّ أَفَمَـن يَهْـدِي إِلَى الْحَـقِّ أَحَـقُّ أَن يُتَّبَـعَ أَمَّـن لاَّ يَهِـدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْـدَى فَمَـا لَكُـمْ كَيْـفَ تَحْكُمُـونَ»، «قُـلْ مَـن رَّبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُـلِ اللّـهُ قُـلْ أَفَاتَّخَذْتُـم مِّـن دُونِـهِ أَوْلِيَـاء

لاَ يَمْلِكُـونَ لِأَنفُسِـهِمْ نَفْعًـا وَلاَ ضَرًّا قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الأَعْمَـى وَالْبَصِـيرُ أَمْ هَـلْ تَسْـتَوِي الظُّلُمَـاتُ وَالنُّـورُ أَمْ جَعَلُـواْ لِلّـهِ شُرَكَاء خَلَقُـواْ كَخَلْقِـهِ فَتَشَـابَهَ الْخَلْـقُ عَلَيْهِـمْ قُـلِ اللّـهُ خَالِـقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُـوَ الْوَاحِـدُ الْقَهَّـارُ».

وبعـد أن انتهـى ممـا فعـل ببضعـة أيـام عرضـه للإيجـار مـرة أخـرى، بعـد يومـين قـام بتأجـيره أحـد الفرنسـاوية الذيـن أتـوا مـع الحملـة الفرنسـية وزوجتـه، اسـمه رينـوار وزوجتـه اسـمها مـاري، كان يرغـب في التقـرب مـن وسـط العامـة مـن المصريـين والتعـرف عليهـم وعـلى عاداتهـم، فهـو عـلى حسـب مـا قالـه صاحـب البيـت للجـيران أنـه يـدوِّن تفاصيـل الحيـاة اليوميـة للمصريـين عـلى أوراق ينـوي أن يجعلهـا في كتـاب في موطنـه باريـس.

بعـد قضـاء بضعـة أيـام اشـتكى الخـدم مـن أنهـم لا يسـتطيعون النـوم ليـلًا بسـبب الطرقـات المتكـررة الـتي تنبعـث ليـلًا دون أن ينجحـوا في تحديـد مصدرهـا، أو مـن أيـن جـاءت، الأغـرب أنهـم ادعـوا رؤيـة عفريـت أو شـبح يمـر في رواق الـدور الأرضي يخـرج مـن الحمـام ويتمـشى أمـام غرفـة نومهـم، في صبيحـة أحـد الأيـام قـرر أحـد الخـدم الرحيـل وتـرك العمـل بسـبب العفريـت الـذي يقـضي ليلتـه في الحمـام أو ماشـيًا أمـام بـاب غرفتـه بالـدور الأرضي، سـأله رينـوار في تعجـب بعربيتـه المكسـرة:

- وهل رأيت حمامًا في الدنيا لا تسكنه العفاريت؟!!

ثم استطرد قائلًا:

- كان يجـب عليـك أن تتحـلى بالشـجاعة، لـم لـم تحـاول الإمسـاك بمـن كان يفعـل ذلـك ربمـا كان مقلبًـا مـن شـخص مـا؟

نظـر لـه الخـادم في تعجـب شـديد مـن كلام رينـوار وفغـر فـاه قليـلًا وهـو يحـدق إلى رينـوار في بلاهـة قائـلًا:

- يـا أفنـدي أنـا أقلـك هـذا عفرييييـت!! وليـس بـني آدم، كمـا يبـدو أنـك تظـن، لقـد كانـت هيئتـه تتغـير باسـتمرار، ويتخـذ أشـكالًا خرافيـة

عجيبـة وغريبـة.

بالطبـع لـم يقتنـع الخـادم بـأي كلام أو تفسـير لمـا رأى، ورحـل، فهـو طـوال عمـره يسـمع عـن العفاريـت وحكاويهـا، لكـن أن يـرى أحدهـم مـرأى العـين يتمـشى أمـام غرفتـه، أو يبيـت الليـل في الحمـام المجـاور لـه!! هـذا لـم يحـدث معـه مـن قبـل، فمـاذا يفعـل لـو جـاءت لـه رغبـة في قضـاء حاجتـه في الليـل؟!.

في تلـك الليلـة بعـد أن رحـل الخـادم، اسـتيقظ رينـوار عـلى صـوت يهمـس جـوار أذنـه بكلمـات ولغـة لـم يفهمهـا، كأنـه يدعـوه للاسـتيقاظ، نهـض مـن نومـه فزعًـا، يتلفـت حولـه، فلـم يجـد شـيئًا، نظـر جـواره فـرأى مـاري تغـط في سـبات عميـق كطفـل رضـع وشـبع مـن صـدر أمـه، خـرج مـن الغرفـة فلـم يكـن هنـاك أحـدٌ، لكنـه رأى الشـبح الـذي حـكى عنـه الخـدم يـنزل عـلى السـلم مـن الـدور العلـوي حيـث يقـف متجهًـا إلى الحمـام مـارًّا مـن أمـام بـاب غرفـة الخـدم، تسـمَّر رينـوار في مكانـه لوهلـة، ثـم عـاد جريًـا إلى السريـر وتلحـف بالغطـاء.

كان تفسـيره للأمـر في البدايـة أن الخـادم ربمـا شرب بعـض الخمـر أو تعاطـى أفيونًـا في الليـل فجعـل عقلـه يتهيـأ للأفـكار والهواجـس الـتي تسـكن عقلـه، والـذي صـور لـه الشـبح والأصـوات، لكنـه الآن يـرى، الآن يصـدق مـا قالـه الخـدم.

حـاول أن يعـود للنـوم لكنـه بقـي مسـتيقظًا في السريـر متأرقًـا حـتى فجـر اليـوم التـالي، وفي الصبـاح نهـض بعيـون حمـراء منتفخـة بعـد غفـوات متقطعـة، حـكى لمـاري مـا رأى، تعجبـت مـن كلامـه وقالـت:

- ربمـا كنـت تحلـم بمـا رأيـت، بـت ليلتـك تفكـر في كلام الخـادم، اسـتيقظت مـن النـوم ولـم تفيـق بعـد، فتخيلـت ما حـدث كأنـه حقيقي.

خـلال الأربـع ليـال التاليـة، تكـرر الأمـر، يسـمع صوتًـا يهمـس جـوار أذنـه، يسـتيقظ ويوقـظ زوجتـه لـترى معـه الشـبح، لكـن لـم يكـن هنـاك أي شـبح بالـدور الأرضي أو عـلى السـلم، تنطـق ناعسـة والحـروف تخـرج

من بين شفتيها في إرهاق ورغبة شديدة في العودة تحت الغطاء والنوم:

- كما قلت لك من قبل أنت تحلم؛ لأنك تشغل بالك بهذا الأمر، توقظني كل يوم ولا شيء في البيت.

بعد ثلاث أيام أخرى، أيقظها بعد أن سمع الهمس جوار أُذنه كالعادة، وقفت في ضيق والنوم يُثقل جفنيها تقول في سخط وضيق:

- أنت تعذبني بإيقاظي كل ليلة هكذا، سأثبت لك أنه ليس في هذا البيت أي شبح.

نزلت السلم في هدوء وضيق من إيقاظها اليومي كل ليلة، وهي تفرك عينيها، فتحت باب الحمام ثم صرخت صرخة شديدة في فزع بعد أن طار من عينيها النوم في لحظات، اتسعت حدقتاها في فزع وهي تحدق في الشبح الذي يقف داخل الحمام ينظر إليها، هرول إليها رينوار نازلًا على السلم قافزًا الدرجات وهي تتراجع بظهرها للخلف وما تزال تصرخ، ارتطمت به واستدارت تنظر إليه، صرخت مرة أخرى، ثم سقطت بين يديه فاقدة الوعي.

في الفجر غادروا البيت وانصرفوا، وأرسلوا في الصباح أشخاصًا عدة لينقلوا لهم ملابسهم وأدواتهم وأوراق رينوار وكتاباته، ماري لم تنتظر ولم تكن تحتمل الانتظار حتى بزوغ الشمس، حين أفاقت من إغماءتها نهضت مسرعة ترتدي ملابسها وتحمل ما هو ضروري في يديها وأرغمت رينوار على الرحيل في حينها، لن تنسى ما حيت وقفة الشبح أمامها ينظر إليها، ولم تتحدث مع زوجها مرة أخرى عن هذا الموضوع أبدًا.

صاحب البيت كان أمينًا، لم يكن يخبئ أمر الحادثة عمَّن يطلب استئجار البيت، فلما أتى له رجل متزوج حديثًا، أخبره بالأمر كله وما حدث للرجل الفرنسي، ابتسم الرجل واسمه سعدالله وقال:

- يا رجل، ما عفريت إلا بني آدم.

لكـن مـع ذلـك قبـل أن يسـكن أتى سـعدالله بقـس يصـلي في البيـت، حينهـا فقـط عـرف أن سـعدالله مسـيحي.

في بداية الأمر قال القس لسعدالله واعظًا:

- المسـيحيون المؤمنـون هـم بِقُـوَّةِ اللهِ مَحْرُوسُـونَ، بِإِيمَـانٍ، لِخَـلاَصٍ مُسْـتَعَدٍّ أَنْ يُعْلَـنَ فِي الزَّمَـانِ الأَخِـيرِ. ولمـاذا نحـن محروسـون بعيـدًا عـن الشيطان؟، لأَنَّـهُ هُـوَ سَـلاَمُنَا، الَّـذِي جَعَـلَ الاثْنَـيْنِ وَاحِـدًا، وَنَقَـضَ حَائِـطَ السِّـيَاجِ الْمُتَوَسِّـطَ .

ثـم تابـع القـول وهـو يحـرك المبخـرة الـتي يتصاعـد منهـا البخـار كمـا يتصاعـد مـن فوهـة بـركان يوشـك عـلى الانفجـار في حـركات منتظمـة، وهـو يـرش في نفـس الوقـت باليـد الأخـرى ميـاه مباركـة عـلى أرض البيـت:

- اعـتراف الإنسـان بأنـه خاطـئ، ويحتـاج ليـد الله لترفـع عنـه البـلاء؛ لأن المسـيح أخـرج الكثـير مـن الشـياطين، كذلـك التلاميـذ الأطهـار والقديسـين، فلمـا أخـرج الشـيطان تكلـم الأخـرس، فتعجـب الجمـوع قائلـين لـم يظهـر قـط مثـل هـذا في إسرائيـل، وباعترافنـا بأنـا نريـد رحمـة الله وتسـليم القلـب للمسـيح معترفـين لـه بـكل خطايانـا ليغفـر لنـا بقـوة دم صليبـه سيشـفي كل ألـم في الحـال وكل عمـل شـيطاني في الحـال، الـرب يسـوع المسـيح قـال بفمـه المبـارك لليهـود لمـا أخـرج الشـيطان وقالـو لـه ببعلزبـول تخـرج الشـياطين فـرد عليهـم قائـلًا: إن كان الشـيطان يخـرج الشـيطان فقـد انقسـم عـلى ذاتـه، والآن الـرب يقـول لـكل مسـيحي مؤمـن بـه مـن القلـب: إلـه السـلام سيسـحق الشـيطان تحـت أرجلكـم سريعًـا، نعمـة ربنـا يسـوع المسـيح معكـم.. آمـين، فـلا قـوة للشـيطان علينـا ولا لأعمـال السـحر لأننـا محرسـون بإيمـان عظيـم، نصـلي باسـم ربنـا المعبـود يسـوع الـذي أعطانـا السـلطان أن نـدوس الحيَّـات وكل قـوات العـدو أن يخـرج الشـيطان مـن هـذا البيـت وعـلى مـرأى ومسـمع مـن الجميـع بقـوة دم المسـيح.

وأتى بعدهـا إلى البيـت مـع عروسـه، مـرت الأيـام طبيعيـة في البدايـة،

فزاد اعتقاد سعد الله أن ما سمع من حكاوى صاحب البيت كانت مجرد خرافات ممن قبله، وظن صاحب البيت أن البيت أخيرًا قد خلا مما فيه من شرور، في صباح أول يوم من الأسبوع الثاني، قالت الخادمة وهي ترتجف من الفزع إنها لم تذق طعم النوم الليلة السابقة؛ لأن عفريتًا كان يطوف الدور الأول بالبيت طوال الليل ضاربًا الأرض بالقبقاب الذي يرتديه في قدميه، ثم طرق على باب غرفتها بقطعة من الحجر أو ربما شيء صلب كان معه، ثم تكررت الأصوات عدة ليال بعدها، وسمعها سعد الله وعروسه بعدها، كانت الدقات تبدأ في المساء يوميًّا بعد أن يدخلوا الفراش بقليل، حاول سعدالله أن يقوي من عزم عروسه لكنه خاف عليها بعدها من أن يصيبها أي أذى جسماني، أو ضرر بعد أن عثر في صباح أحد الأيام التالية على ست قطع من الفحم ملقاة أمام باب غرفة نومه، وهذا أمر يعرفه كل المصريين بأن الشر سيحل على أصحاب هذا البيت.

من يوم أن ترك سعدالله البيت ولم يقترب منه أحدٌ ليستأجره مرة أخرى، بل ربما لم يقترب من أمام الباب أو جدار البيت أحدهم بأقرب من مترين على الأقل، الكل يحاول الابتعاد بقدر الإمكان عن البيت وحدوده، ظل الناس طوال سنوات يرددون ويتناقلون بينهم الكلام والأقاويل، منهم من يقول إنه رأى عفريتًا أو شبحًا خلف المشربية، أو أحدهم سمع أصواتًا من الداخل وهو يمر، أو أحد جيران البيت سمع شيئًا ما، لكن لا أحد يعرف ما حدث وما يحدث بالضبط.

الفكرة جاءت من حسن، بعد أن انتهت حكاية أبانوب حين قال:

- ما رأيكم لو ندخل هذا البيت؟

بالطبع كانت هند أول المرحبات فقد وقفت على قدميها وهي تقفز لأعلى سعيدة بالفكره:

- نعم ندخل لنرى العفريت.

شحب وجه أبانوب وهو يغوص في مقعده:

- كنت أحكي لكم ما سمعت من أجل الحكاية، لا من أجل الدخول للبيت!!

أما علي فسكت وهو يدعك ذقنه بأصابعه مفكرًا، والبقية ينظرون إليه، حتى تساءل حسن:

- ما بك؟ هل أنت متردد؟

ثم حاول أن يقنعه بأن استفزه قائلًا:

- إذا كنت تخاف أن ...

فقاطعه علي وهو يضربه على رأسه ضربة خفيفة:

- لست جبانًا، ولا أخشى العفاريت، لكن ماذا لو علم أهلنا بدخولنا البيت.

نطقت هند بعد أن وقفت على الكرسي بقدميها لتصبح أطول منهم وهي ترفع يدها اليمنى بآخر ما تستطيع وهي تقفز عليه بخفة قفزات صغيرة:

- أنا لن أقل شيئًا.

ثم التفت الثلاثة مع بعضهم بنظرهم ناحية أبانوب الذي غاص أكثر في مقعده وانخفض صوته:

- أنا لن أقدر على قول أي كلمة، لكنهم سيعرفون، لا أدري كيف!! لكنهم سيعرفون، دائمًا يعرفون.

أمسك علي بيده يساعده على الوقوف ووضع كفه على كتفه:

- ما دمت لن تقولَ شيئًا فلن يعرف أحد من أهالينا بما نحن مقدمون عليه، فلن يتحدث أحد منا حتى هند.

قفزت هند من وقفتها على الكرسي على صدر علي وأحاطت رقبته بساعديها متعلقة فيها وهي تصرخ في سعادة وفرح كأنها ستذهب

لرؤية زينة العيد:

- نعم، هيا بنا نرى العفريت.

همس حسن:

- شش، اخفضي صوتك حتى لا تسمعنا أمك، هيا، دعونا نتحرك إلى السطح.

تحرك الجمع صغير السن متجهين إلى سطح منزل أبانوب، المجاور لبيت الحمامي، البيتان متلاصقان تقريبًا، يفصل بينهما مسافة أقل من متر، على سطح بيت أبانوب عشش الفراخ التي تحركت مضطربة من الأطفال الذين اقتحموا عششهم، هناك بضع أقفاص معلقة على جدار غرفة صغيرة على سطح البيت، يعلو منها هديل الحمام الذي يراقب التحركات المتسللة ناحية سور البيت بعيون قلقة تتحرك في سرعة، أمسك حسن كف أبانوب المرتعشة، يساعده على التحرك للأمام في بطء، وعلي يحمل هند المتعلقة برقبته، وهي في أمتع لحظاتها، تشعر بلحظات المغامرة والشغف والترقب، حتى إنها شعرت بأنها تريد أن تقضي حاجتها، فحركت نفسها بين ذراعي علي وهي تقول:

- أنزلني، سأفعل شيئًا.

نزلت من على يد علي وهو يسألها:

- ماذا هناك؟!

جرت ناحية السلم لتهبط للدور الأول وهي تصرخ:

- سأذهب إلى الحمام، انتظروني هنا لن أتأخر.

خبط حسن بكفه على جبينه:

- الغبية، سيكشفون أمرنا.

جرت هند تنزل إلى الدور الأرضي على أمها، مالت بفمها على أذنيها وهي تضع كفها جوار شفتيها هامسة:

- أريد الذهاب إلى الحمام.

تراجعت مريم برأسها قائلة:

- وهل هذا وقته يا هند؟

وضعـت هنـد يدهـا في وسـطها متعجبـة مـن سـؤال أمهـا ومتسـائلة في لماضـة:

- وهل لهذا وقت معين، مزنوقة أعمل إيه؟!!!

ضحكت إليصابات بصوت عالٍ قائلة:

- البنـت معهـا كل الحـق يـا مريـم، أدخليهـا إلى الحمـام، هـل لهـذا وقـت معـين.

نطقت هند وهي تعقد حاجبيها الطفوليين:

- قولي لها يا خالة عصابات.

جذبتها مريم من يدها وهي تنهض:

- هيـا معـي يـا لمضـة، مـن أيـن لـكي بهـذا الـكلام وأنـتي مـا زلـتي لـم تخرجـي مـن البيضـة بعـد.

رفعت يدها لتحملها أمها وهي تقول:

- أنا لست صغيرة، لكني لم أتعلم دخول الحمام وحدي بعد.

حملتها واحتضنتها بين ذراعيها:

- عليـك أن تتعلمـي مـا دمـتي لسـت صغـيرة، أيـن أخواتـك؟ مـاذا يفعلـون؟

نطقت بعد تردد دام ثوانٍ:

- على السطح ينتظروني لألعب معهم.

أشارت إليصابات لمريم:

- تعرفين طريقك، البيت بيتك.

البيـوت في المنطقـة لهـا نفـس الطابـع مـع اختـلاف الشـكل والتقسـيم

الداخلي غالبًا، كلها مفتوحة السقف للسماء، غرفة الضيوف والطعام والمطبخ وغرفة التخزين بالدور الأول، والدور الثاني به غرف النوم وغرفة مفتوحة لها مشربية تطل على الشارع، وغالبية الناس يربون الدجاج والبط والحمام على السطح.

لا يختلف بيت السيد إبراهيم والسيدة إليصابات عن أي بيت آخر إلا ببضع تماثيل صغيرة للعذراء تحمل طفلها المسيح بين ذراعيها، في ردائها الأبيض وهي ترتدي وشاح سماوي اللون يغطيها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، وبضع رسومات لأيقونات مسيحية بيزنطية موضوعة هنا أو هناك، وصليب متوسط الحجم مصلوب عليه يسوع المسيح عاري الجسد إلا مما يستر عورته، على رأسه إكليل الشوك والدم منسال على جبينه، عيناه تنظران إلى السماء متضرعة، تحمل آلام الدنيا وشقاءها.

عادت هند تجري صاعدةً على السلم لسطح البيت مرة أخرى، ودخلت مسرعة بصوت عالٍ تقول:

- لقد عدت.

فر الدجاج من حولها وفزع الحمام في عششه ورفرف بجناحيه في قوة، جرت فاردة ذراعيها كجناحين لملاك صغير تتعلق برقبة علي من جديد، الذي استقبلها وضمها برفق وحملها بين ذراعيه مستفسرًا:

- هل قلت شيئًا عما ننوي؟

أجابت في سرعة:

- لا ذهبت للحمام فقط وقلت لأمي إننا نلعب على السطح.

عدل خده ناحية فمها وقال:

- أعطني قبلة إذن.

طبعت على خده قبلة ورفعت يدها تشير إلى سطح البيت الآخر:

- هيا بنا نرى العفريت.

تمتم أبانوب بصوت منخفض:

- نحن ذاهبون لبيت مهجور به عفريت وليس مراجيح المولد.

تحركوا ناحية السور من جديد، بيت الحمامي كان منخفضًا عن بيت السيد إبراهيم بعدة سنتيمترات، صعد حسن السور أولًا وهبط على السطح المجاور، ناوله أبانوب قفصًا فارغًا وقف عليه ثم تناول هند بين ذراعيه من علي، الذي ساعد أبانوب في قفز السور والهبوط على سطح بيت الحمامي ثم قفز هو بمفرده، تحركوا في بطء ناحية السلم ليهبطوا داخل البيت بعد أن حمل عليٌّ هند مرة أخرى، تحركوا في بطء وأوصال أبانوب ترتعش في خوف، بدأ الاضطراب والرهبة تبدو على حسن بعد أن انتقل إليه بعضٌ من خوف أبانوب من خلال يديهما الممسكتين ببعضهما، هبطوا في بطء على الدرج الذي يتصاعد منه صرير الخشب بعد أن تعب من طول سنين لم تطأه فيها قدم، تشبثت هند أكثر برقبة علي، وتمسَّك أبانوب بذراع حسن، الذي مد يده وأمسك في ملابس علي، الذي بدأت قدماه تتثاقلان به وبحمله، وهو يتقدم في خطوة ويود أن يتراجع ألفًا، لكن حماسة الطفولة والمراهقة المبكرة، جعلته يأبى أن يتراجع ويبدو جبانًا أمام أخويه وأبانوب.

وصلوا إلى الدور العلوى وتحركوا في بطء متقاربين، الإضاءة تبدو جيدة مع تسرب أشعة الشمس من المشربيات المطلة على الشارع الرئيسي، والتي تكسر أغلبها، لكن الظلام منتشر داخل الغرف المغلقة شبابيكها ومشرابياتها، خيوط العناكب انتشرت على الجدران، وتجمعت الأتربة والأوساخ على الأرض والدرابزين وأثاث البيت، رائحة غريبة تنبعث من بين جنباته، ربما الرطوبة التي سكنت خشب البيت أو ربما رائحة عطن نتيجة عدم تنظيف البيت وتهوية مراتبه منذ سنوات.

جدران البيت مطلية بالجير، الواضح أنه كان أبيضَ في يوم من

الأيـام، أمـا الآن فيبـدو رماديًّـا، مـن تراكـم الـتراب عليه لسـنوات مـع آثار هبـاب مـن أثـر الحريـق الصغـير الـذي نشـب يـوم الأحـداث وتحـدث عنـه النـاس، الأرض تـئن تحـت أقدامهـم الصغـيرة، وهـم يتحركـون في بـطء شـديد، وبضـع فـئران تهـرول مختبئـة مـن المتسـللين الصغـار، متسـائلين مـن أتى بأحـد مـن نسـل بـني آدم مـن جديـد في هـذا البيـت؟

داخـل الغرفـة الكبـيرة الواضـح مـن حجمهـا أنهـا كانـت لسـيد الـدار، رائحـة الغبـار الرطـب ينضـح مـن المـكان، هنـاك سريـر عريـض بقوائـم نحاسـية عليهـا ناموسـية مقطعـة ومتسـخة، القائمـان الصغـيران عـلى طـرف السريـر مـن ناحيـة الأقـدام، كلاهمـا عـلى شـكل رأس أسـد، الغرفة بهـا مـرآة شـاحبة مقـشرة ومنتـشر عليهـا السـواد، تبـدو فيهـا الصـور مشـوهة، وهـي مسـندة إلى حامـل خشـبي بطـول قامـة الرجـل العـادي، هُـيء لهنـد أنهـا قـد رأت انعكاسًـا فيهـا لشـخص مـا يقـف خلفهـم، التفتـت في سرعـة وأنفاسـها تعلـو، فلـم تجـد أحـدًا في الناحيـة الأخـرى.

في الجانـب الآخـر مـن الغرفـة دولاب يقـف عـلى أربـع أقـدام منقوشـة ومزخرفـة، طالـه الزمـن وبهـت لونـه وتقـشر دهانـه، والناحيـة الأخـرى بهـا صنـدوق ممـا يسـتخدم كسـحارة، عليـه نقـوش عربيـة غـير مفهومـة أو ربمـا زخرفـة، فتـح حسـن غطـاءه في بـطء لـيرى مـا بداخلـه لكنهـم لـم يجـدوا فيـه إلا بقايـا مـن أوراق متآكلـة مهترئـة ومصفـرة، وبـه الكثـير مـن فضـلات الفـئران، بقيـة الغرفـة فارغـة إلا مـن سـجادة قديمـة تآكلـت أطرافهـا ووسـطها وامتـلأت ثقوبًـا غالبًـا بفعـل الفـئران.

نزلـوا عـلى الـدرج المشـبع برائحـة الخشـب المتفسـخ متجهـين للـدور الأرضي، ومـع أولى خطواتهـم الصغـيرة وهـو يـئن ويتـأوه مـن ثقلهـم، مـن عـدم اسـتخدامه لسـنوات، آثـار أقـدام الفـئران تبـدو واضحـة عـلى الأرض المفروشـة بالـتراب، غرفـة الجلـوس واسـتقبال الضيـوف بالـدور الأرضي بهـا كنبـة واحـدة وكـرسي مكسـورة قدمـاه، ومائـل عـلى أحـد جانبيـه عـلى الأرض، والوسـادة الـتي كانـت عليـه مفتوحـة كبطـن بقـرة تـم

ذبحها وخرجت أحشاؤها القطنية حولها، بدأ صوت أبانوب يخرج في ضعف كبطة مبحوحة:

- فلنكتفي بما فعلنا، دعونا نعود للبيت.

لم يرد عليه سوى أنفاسهم المنبعثة في رتابة ورهبة وهم يتقدمون في بطء ويتحركون بين الغرف الفارغة وطقطقة الأبواب تكسر الصمت حولهم وتثير رعبهم، نطقت هند وهي تلف ساعديها حول رقبة علي في قوة تحتمي به:

- لا يوجد هنا أي عفاريت.

هز علي رأسه وهو يقول:

- واضح أن الناس أطلقوا الإشاعات حول البيت ولا يوجد أي شيء هنا.

وما أن انتهى صدى كلمتة الأخيرة بين الجدران شبه الفارغة، حتى ارتفعت دقات منتظمة من ناحية الحمام، تصلب الجميع في أماكنهم واتسعت عيونهم، اهتزت مفاصل حسن في توتر ورعب، وأبانوب يلتصق به في قوة، وهند تكاد تعتصر رقبة علي وهي تهمس في خوف:

- هل سمعتم ما سمعت أم يهيأ لي؟

رد أبانوب في فزع ومفاصله ترتعش وأسنانه تصطك في سرعة ورعب:

- بل سمعنا جميعًا الدقات، قلت لكم نعود.

ارتفعت الدقات مرة أخرى مع صرير باب الحمام وهو يُفتح في بطء شديد، ليبدو جواره ظل باهت لشخص غير واضح يأتي من خلفه نور يخفي ملامحه ولا يبدو منه إلا هيئته المعتمة، صرخت هند وصرخوا بعدها جميعًا وانطلقوا مهرولين يصعدون على السلم، مثيرين زوبعة تراب من حولهم إلى الدور العلوي، الذي مروا منه يجرون في فزع إلى السطح كأن شياطين الإنس والجن أجمعين

تطاردهـم، في لحظـات قفـز حسـن وأبانـوب عـلى القفـص متسـلقين إلى سـطح البيـت الآخـر، تنـاول حسـن هنـد مـن يديهـا وتبعهـم عـلي، جـروا إلى الداخـل ونزلـوا السـلم في سرعـة، فنهضـت إليصابـات ومريـم في فـزع متسـائلتين:

- ماذا حدث؟ ماذا هناك؟

صمـت الأربعـة أطفـال فجـأة، وتبادلـوا النظـرات دون أن ينطـق أحـدٌ منهـم، فصرخـت كلتـا الأمـين مـرة أخـرى متسـائلتين عـن سـبب فزعهـم وهرولتهـم نـزولًا عـلى السـلم، شـعروا أن أمرهـم سـيفضح وسـينتهي بعلقـة محترمـة لـكل منهـم، نطـق عـلي قبـل أن يتحـدث أحـد الباقـين ويفـشي سرهـم فنطـق متلعثمًـا:

- لا شيء كنا نلعب ونطارد بعضنا.

زعقت فيه مريم:

- وهل هذا سببٌ لتصرخوا هكذا وتثيروا فزعنا؟!!

رد قائلًا بصوت غلبه التبرير:

- لقـد رأت هنـد فـأرًا، نعـم فـأرًا، وصرخـت.. فاعتقدنـا أن هنـاك شيء مـا فصرخنـا معهـا.

ردت هند مؤيدة:

- نعم نعم لقد رأيت فأرًا كان كبيرًا جدًّا وأفزعني بشدة.

لطمت إليصابات على صدرها صارخة:

- فأر كبير عندي هنا !! أين؟!

رد حسن في سرعة:

- لقد كان على السطح ربما كان قادمًا من الشارع.

أكد أبانوب على كلامه وهو يهز رأسه موافقةً للقول:

- نعم ولقد فر مرة أخرى للشارع.

نظرت الأمُّان في شك للأطفال وقالت مريم:

- شكلكم وكلامكم غير مريح، غير مريح على الإطلاق.

أجابت هند في سرعة كأنها تتعجب من أمر أمها:

- وهل سنكذب عليكم مثلًا؟!

ضحكت إليصابات قائلة:

- آه منك أنتي أيتها الصغيرة، هيا عودوا للعبكم ودعونا...

بترت جملتها، والتفتت ناحية الباب، بعد أن قاطعها من الخارج ارتفاع صوت مبيض النحاس الذي تعود أن يتجول في الأحياء وينادي لتأتيه النساء بالأوعية النحاسية التي جنزرت وبدت عليها بقع خضراء تدل على زوال مفعول طبقة القصدير التي تغطيها وتحمي ما يعيه من التفاعل مع النحاس، جرت إليصابات ناحية الباب لتنادي على مبيض النحاس وتبعتها مريم، التفت علي ليهمس في أذن أبانوب:

- إياك أن تخطئ بلسانك وتخبر أمك بما فعلنا.

هز رأسه أن نعم ولونه ما يزال مصفرًا خائفًا مما حدث.

عادت إليصابات وأخذت أوانيها النحاسية التي تحتاج إلى التبييض، واتجهت مريم إلى بيتها ثم عادت هي الأخرى تحمل أوانيها، وضع مبيض النحاس حفنة من مسحوق ملحي خشن على سطح الوعاء ونظفه بقطعة خيش، ثم وضعها على نار لتحمى حرارتها، بعدها طلاه بالقصدير وهو يؤدي حركة صعبة متعبة، بلف جزعه في الاتجاهين بصورة متتالية، محاولًا أن يتناسى الحرارة المنبعثة من أسفل قدميه، بالمواويل والأغاني الشعبية بغنائه..

بصوا شوفوا فلاح مكسور ذليل متهان..

جوا حنك تمساح من سالف الأزمان..

يا من رماك دهرك من فم دا التمساح..

قول لي على أمرك وما وجعك يا صاح..

بعـد أن انتهـى مبيـض النحـاس مـن عملـه، لملمـت مريـم أوانيهـا بعـد أن أصبحـت لامعـة تحـت شـمس مـا بعـد الظهـيرة قائلـة:

- سـأعود للبيـت لأبـدأ في تجهـيز الطعـام حـتى لا يـأتي محمـود ولا يجـد طعامًـا يأكلـه.

ردت إليصابات في رجاء:

- دعي الأطفال في لعبهم هنا معًا.

ردت مريم وهي تمد يدها تمسك بيد هند:

- حتى تتفرغي أنتي أيضًا للطبخ.

ثم التفتت لأبنائها:

- هيا بنا، لقد أثرتم فزعنا بما يكفي اليوم.

- ٢٥ -

حين يترك «علي» ورشة أبيه ورغم حداثة سنه، إلا أنه كان يعرج عن طريق عودته إلى البيت ليتفرج على الغوازي اللائي يرقصن في المناسبات في صحن أحد البيوت التي بها فرح أو ولادة أو حتى طهور، ورث الطبع من أبيه، ومعه حسن، فكثيرًا ما كان يجد حسن وأبانوب أيضًا في انتظاره في طريق عودته، ليخبراه عن فرح أو مناسبة في أحد البيوت، فيذهبون هناك، ويتلصصون من بعيد، أو يحاولون التسلل إلى أحد السطوح المجاورة أو سطح البيت نفسه، ليشاهدوا الغوازي من زاوية أقرب.

بعد مذبحة القلعة التي ارتكبها محمد علي باشا في المماليك، فرت الجواري من قصور المماليك، واختلطن بالغوازي، مما أدَّى إلى دمج أسلوبَي الرقص، رقص القصور ورقص الشوارع، رغم ذلك لم يكن يُسمح للراقصات أبدًا بدخول البيت أو أماكن الحريم المحترمة.

وفي عصر يوم بدا فيه نسمات برد الشتاء تقترب، أقيمت الإضاءات والزينة في بيت أحد أحفاد السلطان المملوكي القديم حسام الدين لاجين، ناحية بركة الأزبكية، التي ما تزال ممتلئة ببعض الماء بعد انتهاء موسم الفيضان، انتشرت أخبار الفرح الكبير المقام في المحروسة، رُصت أعلام صغيرة على قضبان يصل بينها حبال تتدلى منها مصابيح عديدة، وخصصت منصة لإطلاق الألعاب النارية من صواريخ ومفرقعات.

نصبت الخيام في الشريط الضيق بين حافة الماء والمنازل المحيطة لبيع الحلوى والقهوة وتوزيعها، أقيمت أراجيح للأطفال ودواميات، ازدحمت شواطئ البركة والطرقات المؤدية إلى القصر بالناس طوال النهار، وازداد الزحام داخل القصر ذاته، الذي فُتح

للضيـوف والمعازيـم، وعُلـق في سـاحته عـشر نجفـات تحـت ظُلـة مـن قمـاش الخيـام الأحمـر وخلافـه، لتحمـي المغنيـين، والراقصـين مـن حملـة السـيوف، وغيرهـم مـن وهـج الشـمس أثنـاء النهـار، المرطبـات والحلـوى تقـدم مـن آن لآخـر لـكل الموجوديـن في خـارج القـصر، حـتى وإن بـدا عليهـم أنهـم مـن حقـراء النـاس غـير المدعويـن، أمـا الغـرف الخاصـة داخـل القـصر، خُصصـت لأصدقـاء الباشـا صاحـب القـصر وضيوفـه المقربـين.

الاحتفـال الرئيـسي بـدأ في المسـاء بعـد أن انتهى علي وحسـن مـن العمل في الورشـة، والتقيـا مـع أبانـوب بعـد تناولهـم الطعـام في البيـت، زاغ الأخـان مـن هنـد الـتي بكـت وصرخـت لرغبتهـا في الذهـاب معهمـا، لكـن السيدة مريـم خشـيت عليهـا مـن الزحـام هنـاك، «عـلي» وافقهـا؛ لأنـه يريـد أن يتحـرك بخفـة دون حمـل أختـه، تحركـوا ناحيـه شـاطئ البركـة، شـاهدوا الألعـاب الناريـة وسـط الازدحـام الشـديد، جـذب عـلي حسـن، وأبانـوب ناحيتـه، وأمسـكهما في يديـه، حـتى لا يغيبـا عـن نظـره، أو يتوهـا منـه وسـط الزحـام، أصحـاب المقاهـي رصـوا دِككًا ومقاعـد مـن جريـد النخـل، وقطـع الحـصر عـلى حافـة البركـة، يقدمـون القهـوة في الحـال لـكل مـن يجلـس، وإن رفـض لا يُسـمح لـه بالجلـوس صارخـين «القعـدة بالمشـاريب»، اسـتغلوا وجـود مقاهيهـم بالقـرب مـن الاحتفـال البـاذخ للفـرح الـذي اسـتمر تسـعة أيـام لرفـع مبيعاتهـم ومكسـبهم اليومـي، انتـشرت حولهـم المشـاعل المغروسـة في الأرض للإضـاءة، بالقـرب مـن سـور القـصر كان عـددٌ مـن الخـدم يمـرون عـلى الحاضريـن بالفطائـر وأنـواع النُّقـل المختلفـة وسـائر المأكـولات بالإضافـة إلى الشربـات السـكري بلونـه الأحمـر، أو شربـات اللـوز بلونـه الأبيـض، القـصر ومـا حولـه ينبـض بالحيويـة، والألعـاب الناريـة، والصواريـخ تنطلـق واحـدة تلـو الأخـرى في فـترات متقاربـة بشـكل جميـل مـن منصـة خشـبية شُـيدت عـلى بعـض المراكـب وسـط البركـة.

تسلل الصغار متماسكي الأيدي، وسط الناس المكدسة أمام القصر وفي ساحته حول مجموعة من الراقصين إلى الداخل، على باب إحدى الغرف كان يقف حارسان يمنع دخول الغرفة إلا من الأجانب الذين تم دعوتهم، وأغلبهم يونانيون، وبينهم عدد من النساء يرتدين الزي الأوروبي العادي، وأخريات يرتدين الزي العثماني الرجالي ليبدون رجالًا؛ لأنه ليس من المعتاد أن تظهر النساء في صحبة الرجال، أو أن يخرجن ويسهرن بالليل، لكن انحناءات جسدهن ومؤخراتهن الممتلئة كانت واضحة جلية للأعين.

وقف الثلاثة في الساحة أمام فرقه موسيقية تبدو من ملامح أعضائها أنها غير مصرية، تعزف العديد من الألحان الأوروبية بمهارة، تلتها مجموعة من الآلاتية المصريين، يؤدون بعض ألحانهم مع مصاحبة بعض الغناء أحيانًا، جاء بعض الراقصون الذين يعملون كبدائل للراقصات، اللاتي تم حظرهن في الأماكن العامة، لم يكن الراقصون من «الخولات»، أي ليسوا من الراقصين المصريين المعروفين في المحروسة، فالخولات أزالوا شعر وجههم وسيقانهم بالحلاوة كما تفعل النساء، وزادوا في استعمال الكحل في العين والحناء في الأكف، وغالبًا ما يتحجبون في الشوارع في غير أوقات الرقص، لكن الراقصين يشبهونهم في الزي والمظهر ولا يختلفون عنهم في أي شيء إلا في الاسم «الجنْك»، وهو اسم تركي له مدلول منحط الشأن والمعنى، ينم عن شخصياتهم، أما مهنتهم فتجعلم مخنثين في الملبس والمظهر وحتى في الأداء، كان أغلب الجنك من اليونانين، والأتراك، والأرمن، ومن اليهود. تجمع ست أفراد منهم يرقصون معًا، مرتدين صدريات ضيقة وقمصان واسعةً وجونيلات عليها أحزمة، مظهرهم أقرب للنساء منه إلى الذكور، رغم أن لبسهم مزيج من لبس الرجال والنساء، طويلو الشعر بعضهم يتركه متدليًا على الظهر، والبعض الآخر قام بتضفيره مع قطع صغيرة براقة من الذهب، بين أصابعهم صاجات من النحاس، يتشبهون في حركاتهم بالغوازي

والعوالـم، وقليـلًا مـا يـؤدون بعـض الحـركات البهلوانيـة.

تسـلل الأصدقـاء بـين الزحـام وتعلقـوا بإحـدى النوافـذ المطلـة عـلى الساحة الجانبيـة للقـصر، حيـث لا يوجـد أحـد مـن حـاضري الفـرح هنـاك، شـاهدوا في الداخـل أحـد المهرجـين في ملابـس مبهرجـة غريبـة الشكل، فـوق رأسـه طاقيـة حمـراء مدببـة تزينهـا خيـوط براقـة وأجـراس، يحمـل مـع عـدد مـن الأشـخاص المشـاعل وسـط فرقـة مـن الآلاتيـة الذيـن يقدمـون مقطوعـات موسـيقية وغنائيـة، يسـبب نشـازا بينهـم في الموسـيقى الـتي يؤدونهـا، وهـو يحـاول مصاحبتهـم بصاجاتـه ورقصـه المبتـذل، وحركاتـه البذيئـة الـتي تجلـب ضحـك بعـض الحاضريـن، الـتي تـدور عليهـم صـواني مـن أنـواع المرطبـات كافـة، والخمـور باهظـة الثمـن، وشراب عصـير الفاكهـة، والقهـوة، وبعـض النراجيـل.

أحـد الصواريـخ الـتي تطلـق بالخـارج أصابـت جـزءًا مـن القـصر وأشـعلت فيـه النـار، ارتفـع صراخ بعـض النسـاء، سـادت الفـوضى بـين النـاس قليـلًا، واصطـدم النـاس ببعضهـم البعـض وهـم يحاولـون الابتعـاد عـن النـيران، وسـقط البعـض في الأرض وداسـته الأقـدام، لكـن تـم احتـواء النـيران وإطفاؤهـا في سرعـة مـن الخـدم والنـاس الذيـن قَدِمـوا للمساعدة، نتيجـه الإطـلاق المتكـرر للصواريـخ والارتجـاج الناتـج منهـا، تهـدم حائـط قديـم عـلى شـاطئ البركـة، فـوق أربعـة رجـال، مـات منهـم واحـد عـلى الفـور، سـاد الهـرج والمـرج في الخـارج وأسرع بعـض النـاس القريبـين مـن السـور، في إزالـة أنقاضـه وأخرجـوا المتـوفَّى مـن تحتهـا، وحملـه أصحابـه مسرعـين إلى بيتـه وهـم ينطقـون الشـهادة ويحوقلـون.

بالداخـل تـم تقديـم مسرحيـة هزليـة سـخيفة في محاولـة مـن الباشـا والمشرفـين عـلى الحفـل التغطيـة عـلى الاضطـراب الـذي سـاد نتيجـة اشـتعال النـيران، وانهيـار الحائـط، ووفـاة أحـد العامـة، توقفـت بعـد ذلـك الصواريـخ عـن الانطـلاق.

لما جَن عليهم الليل تجمع المعازيم من العامة في ساحة القصر جوار باب الدخول، على مجموعة من الغوازي، يرقصن أمام البيت يلبسن الكثير من العقود والأساور والخلاخيل، وبعض العملات الذهبية على الجبين، متزينين بالكحل والحناء، عبر علي وحسن وأبانوب بين أقدام الناس شبه زاحفين على الأرض ليصلوا إلى أول الصف ووقفوا باركين على ركبهم أمام الغوازي اللائي بدأن الرقص يهزون أعلى أفخاذهن في حركة اهتزازية سريعة، سرعان ما ازددن حيوية وازددن ضربًا بالصاجات، وارتفع اجتهادهن في أداء الحركات المائعة المصحوبة بعزف فرقتهم على الربابة، والتار، والدربكة، والزمر.

العازفون، والراقصات من قبيلة الغوازي، والرجل منهم يسمى غازي، الرجال المتفرجون يصفقون ويتمايلون معهم، والماجن منهم يمهد الطريق ليراود إحداهن عن نفسها؛ لأن الغوازي مشهورات بأنهن يمكن استئجارهن للإمتاع الخاص في البيوت، وفي هذه الحالة يكن رقصهن أكثر إثارة، ومن منهن يمكن أن تشعر بالقليل من بعض حياء، تداويه بقليل من البراندي، والمشروبات الروحية، أو بمنقوع من المناقيع التي يتناولها العامة، فيقمن بأداء دورهن اللائي تم استئجارهن من أجله على أكمل وجه.

أصل الغوازي محفوف بالغموض، رغم أنهن يتفاخرن بأنهن من سلالة البرامكة، الذين تعرضوا لنزوة من طغيان هارون الرشيد، إلا أن هناك تشابه في كثير من عاداتهن مع الغجر، الذين يُعتقد أنهم من أصل مصري، والغوازي لا يتزوجن إلا من قبيلتهن، وغالبًا ما ينشأن على مهنة الدعارة، ويخضع الزوج لامرأته، ويقوم لها مقام الخادم ويوليها عنايته، فيعمل للراقصة طبال، أو موسيقي.

يتحدثن بالعربية، ويستخدمن أحيانًا بعض الألفاظ الخاصة بهم والتي لا يفهمها العامة، غالبًا ما يسكنون في المناطق المخصصة

للدعـارة، وتكـون مسـاكنهم أكواخًـا قصـيرة، أو حظائـرَ وخيامًـا؛ لأنهـم كثـيرو الترحـال، والسـفر مـن بلـد إلى بلـد، بعـض الغـوازي يـزدن عـن غيرهـن بصوتهـن الجميـل وحسـن غنائهـن، فيتسـاوين مـع العوالـم، إلا أن العوالـم يعدُّهـن النـاس مـن النسـاء المحترمـات؛ لذلـك يسـمح لهـن بدخـول القـصر والغنـاء للحريـم.

في نهايـة كل ليلـة كان الباشـا يقيـم مأدبـة خاصـة لأصدقائـه طيلـة فـترة الاحتفـالات، وفي اليـوم الأخـير كانـت زفـة العـروس إلى بيـت العريـس، وتـم ضبـط اليـوم ليوافـق يـوم الخميـس وهـو اليـوم التقليـدي ليـوم الدخلـة.

تحـرك الموكـب خارجًـا مـن القـصر إلى اليمـين، حـتى لا يبـدأ خروجـه بفـأل سـيئ إذا مـا خـرج ناحيـة اليسـار، اتخـذ الموكـب طريقًـا ملتويًـا، طـاف حـول بركـة الأزبكيـة، ثـم اخـترق الحـي الـذي يسـكنه أغلـب الفرنجـة، دخـل الشـارع الرئيـسي مـن بـاب زويلـة ومـر بأغلـب أجـزاء المدينـة قبـل أن يصـل إلى بيـت العريـس.

الموكـب تقدمـه رئيـس المهرجـين فـوق صهـوة جـواده، عـلى رأسـه طرطـور مدبـب مـن الفضـة، يحـيي الجماهـير الواقفـة ذات اليمـين وذات الشـمال، في وقـار كمـا يفعـل القضـاة وعليـة القـوم، رغـم أنـه أحيانًـا يقـوم بنفـس الحـركات السـخيفة الـتي يقـوم بهـا المهـرج ذو اللحيـة المسـتعارة في مواكـب الكسـوة والمحمـل، خلفـه أربعـة رجـال عـلى أربعـة جمـال ينقـر كل واحـد منهـم عـلى طبلتـين كُبريـين ويرتـدون بنشًـا قرمزيًا، تبعهـم اثنـا عـشر جمـلًا آخريـن عـلى كلٍّ منهـم إمـا سرج، أو هـودج مغطًـى بقمـاش أخـضر محـلًّى بالأصـداف، والـودع، وبـه مجموعـة مـن الأعـلام الصغـيرة الـتي تميـل إلى الأمـام مـع مقدمـة الـسرج، ثـم جـاءت خلفهـم جماعـة الجنـك يقرعـون بالصنـج ويـؤدون بعـض الرقصـات أثنـاء تحركاتهـم وسـط الموكـب، تبعهـم فارسـان يحمـل كلاهمـا ساريًـا طويـلًا في أعـلاه منديـل مطـرز، بينهمـا رجـل يحمـل مشـعلًا بقضيـب طويـل

مثبت فيه مناديلُ كثيرة، وانتشر السقاؤون يزودون الناس بالماء أثناء مرور الموكب.

ظهرت الفرقة الموسيقية التي عزفت داخل القصر خلفهم فوق عربة سقفها مغطًى ومكشوفة الجوانب يجرها أربعة جياد أقوياء، كان عزفهم يكاد يختفي وسط الصخب الذي ملأ الموكب ودقات النقارين على الطبول في الأمام، جوارهم عربة أخرى عليها العوالم، اللاتي قمن بالغناء بالداخل وسط الحريم يُنشدن أثناء سير الموكب، وهن محجبات كالسيدات المحترمات من أواسط الناس وعليتهم، وليسوا مثل الغوازي، تَبِع العربتين مجموعة من الصبيان، بينهم علي، وحسن، وأبانوب، وبعض الرجال يقلدون الفرسان بجياد وهمية من جريد النخل والورق، بينهم رجلان بسيقان خشبية طويلة يصل طولها إلى ما يقرب من المترين، خلفهم الممثلون الذين قدموا المسرحية الهزلية بالقصر، ومعظم الجنك والفرقة الموسيقية العثمانية، ثم مجموعة الخصيان على جيادهم، يتقدمون قافلة المركبات الأوروبية التي تحمل السيدات، المركبة مغطاة من أعلى بشيلان تتدلَّى من الأمام والخلف والجانبين لتحجب السيدات بداخلها عن أعين الناس، يجر كل عربة أربعة خيول يقودهم سائق عربي، يصاحبه من الخلف اثنان من الخصيان، العروس بالطبع مستقرة في المركبة الأمامية الأفضل شكلًا، الزغاريد انطلقت من النساء من الجمهور في الشارع أو اللائي يتابعن الموكب من مشربياتهن، الموكب تبعه خلف المركبات عدد من الطبالين ونافخي المزامير وكل مَن على صهوة فرس يرتدي بنشًا قرمزيًّا اللون.

استمر الموكب حتى بيت العريس، بعدها انفضَّ الجمعُ وعاد كل واحد حضر الموكب إلى داره يحكي ويتحاكى عما رأى وشاهد طيلة أيام الفرح وطيلة سير الموكب في الطرقات، عاد الصغار الثلاثة إلى بيوتهم بعدما تجاوز الليل منتصفه بقليل، وجد كل منهم أباه في

انتظـاره سـاهرًا في ضيـق وغضـب، وتلقـى كلٌّ واحـدٍ مـن والـده علقـة محترمـة، وباتـوا ليلتهـم متأوهـين.

- ٢٦ -

تابـع السـيد إبراهيـم مرقـص العامـة مـن جلسـته أمـام دكانـه الـذي يبيـع فيـه مصنوعاتـه مـن أواني فخاريـة وخلافـه، في تحركهـم غدوًا وعشـيًا وهـو ينفـث دخـان أرجيلتـه، وأحـد المجذوبـين يـدور عـلى الدكاكـين وفي الشـوارع متسـولٌ بمبخرتـه الـتي يخـرج منـه دخانُهـا كمحرقـة صارخًـا بـين الحـين والآخـر «يـا حـي.. يـا قيييـوم»، نـاشرًا في الطرقـات رائحـة بخـوره الزكيـة.

بينمـا هـو في جلسـته، لمـح السـيد محمـود مـارًّا مـن أمـام دكانتـه محييًـا، فدعـاه للجلـوس واحتسـاء فنجـان القهـوة معـه، ولا مانـع مـن أن يدخـن معهـا أرجيلتـه.

تبـادلا الحديـث عـن المحروسـة وناسـها وأحـوال البـلاد والتغـيرات الـتي حدثـت في المحروسـة في السـنوات الأخـيرة مـن بعـد اسـتقرار حكـم الـوالي محمـد عـلي باشـا، والتوسـعات الـتي قـام بهـا، ثـم سـأل السـيد محمـود فجـأة دون مقدمـات:

- لمـا لـم يـأتي أحـدٌ مـن أهلـك أبـدًا يـزورك؟ هـل حقًّـا عليـك ثـأر كمـا يقولـون؟

سـحب السـيد إبراهيـم نفسًـا طويـلًا مـن أرجيلتـه وحمـل فنجـان قهوتـه بـين أصابعـه وهـو يسـأل:

- وهـل يبـدو عـليَّ أني هـاربٌ أو متخـفٍّ مـن أحـد؟! النـاس يؤلفـون حكاياتهـم ويصدقونهـا دون أن يعرفـوا الحقيقـة أو مـا حـدث فعـلًا، والحقيقـة أنـه إذا سـأل أحدهـم ربمـا لـن أجيبـه أو أُشـبع فضولـه ورغبتـه في معرفـة أسرار حيـاتي.

اضطرب السيد محمود في جلسته وشعر ببعض الحرج وهو يرد:

- أنا لا أقصد التدخل والتطفل.

ثم تابع في أسف شديد بان على ملامحه جليًّا:

- أعتذر عن سؤالي.

ضحك السيد إبراهيم ضحكة هادئة وهو يربت على ركبه جليسه:

- يا رجل أنا لا أقصدك أنت بالضرورة، أنت صديقي وجاري منذ أن سكنت في شارع الرويعي والمحروسة كلها.

شد بضع أنفاس متتابعة في حرفية من أرجيلته وهو يقول:

- بل أنت على حق ربما من حقك أن تعرف، سأحكي لك سرًّا لا أخجل منه، ولم أكن أنوي إفشاءه، لكني أحب أن أبتعد عن عقول الناس المحشوة بأفكار أغلب الظن أنها ليست من أفكارهم الخاصة.

- أنا لا أحاول أن أدفعك للحكي عن ...

قاطعه السيد إبراهيم مهدئًا:

- لا بأس يا رجل، لا عليك، أنا أود أن أحكي لك، وأن أشاركك بعضًا من ذكرياتي.. اسمع.

وَضَعَ اللي الخاص به على الأرجيلة، وارتشف الثمالة المتبقية في قاع فنجان قهوته ثم قال:

- تعرف كما يعرف الناس أني مسيحي من أسوان وهذا صحيح، لكن ليس علي ثأرٌ، أو شيءٌ من هذا القبيل، المشكلة هي أني لست مسيحيًّا، ولست مومنًا من وجهة نظر أهلي، وربما أغلب الناس سيروني كذلك.

تعجب السيد محمود وظهرت على وجهه ملامح الاستغراب وهمس:

- أتقصد أنك مسلم ؟

رد مبتسمًا:

- ليس هـذا ولا ذاك ولا حـتى يهـودي حـتى لا تأخـذك بي الظنـون، أنـا مشـتت وفي حـيرة وأهـلي طـردوني مـن بينهـم وجعلـوني غـير مؤمـن.

زادت ملامـح الاسـتغراب والتعجـب عـلى وجـه السـيد محمـود وهـمَّ بقـول شيء مـا إلا أن السـيد إبراهيـم قاطعـه قائـلًا:

- اسـمع للنهايـة، أبي وأمـي مسـيحيان وعائلـتي كلهـا كذلـك، وتربيـت ونشـأت عـلى أني مسـيحي لكـن مـع بدايـة فـترة مراهقـتي كأي مراهـق كانـت تـراودني أفـكار عـن الكـون والخلـق والوجـود ولـم أعـرف الإجابـة أبـدًا، حاولـت السـؤال لكـن الأسـئلة لـم يكـن يقابلهـا الـرد بـل كان يقابلها الاسـتنكار.. والسـؤال الـذي يتكـرر كيـف تجـرؤ عـلى هـذا؟!! كيـف تجـرو عـلى السـؤال؟ بـل وكيـف تجـرؤ عـلى التفكـير في كينونـة الله؟

سأل السيد محمود:

- وماذا كنت تريد أن تعرف بالتحديد؟

رشـف السـيد إبراهيـم بضـع رشـفات مـن كـوب المـاء أمامـه وهـو يقـول:

- في البدايـة كان سـؤالي للقساوسـة عـن المسـيح نفسـه مـن هـو؟ أهـو إلـه؟! قالـوا: إنـه ابـن الـرب. فقلـت هـذا يجعلـه نصـف إلـه إذن؛ لأن أمـه بشريـة، جاوبـني أحـد القساوسـة أن روح الله قـد تجسـدت في جسـد المسـيح، اسـتغربت أكـثر فهـل الله لـه روح مثلنـا؟! وهـل يتحكـم فيهـا بـأن يضعهـا، أو يضـع جـزءًا منهـا في جسـد أحدهـم؟!! رغـم أن هنـاك البعـض يعتقـد حقيقـةً أن المسـيح هـو ابـن الله أو أنـه هـو الله ذاتـه، حـتى إن القـرآن يقـول: {لَقَـدْ كَفَـرَ الَّذِيـنَ قَالُـواْ إِنَّ اللّـهَ هُـوَ الْمَسِـيحُ ابْـنُ مَرْيَـمَ}.

أكمل السيدمحمود:

- صدق الله العظيم، لقد قرأت في القرأن أيضًا؟

- بالطبـع، حاولـت أن أقـرأ في كل مـا تصـل إليـه يـداي حـتى العهـد

القديـم وكتـب التاريـخ والـتراث وكل هـذا لـم يُجبـني.. مَـن خلـق الله؟ وكيـف كان؟.. والـرد القـرآني: لـم يلـد ولـم يولـد. أيضًـا شـغلني فكـري مـا دعـاه ليخلقنـا، وإذا كان يسـتطيع الخلـق وعنـده القـدرة والمقـدرة فلـم خلـق الكـون في سـتة أيـام؟ لـمَ يخلـق أطفـالًا يمرضـون ثـم يموتـون؟ لمـا يحاسـبنا عـلى أشـياء قـد كتبهـا علينـا مـن قبـل أن نولـد؟ هـل قـدَّر علينـا حياتنـا ومسـيرتنا في الدنيـا ليحاسـبنا عليهـا؟ ولمـا يحاسـبنا في الآخـرة عليهـا؟ يدخلنـا في جنتـه ونعيمـه أو يعذبنـا في نـاره وهـو مـن قدَّرهـا علينـا ويعـرف مـن البدايـة مـن سُـيدخله النـار ومـن سُـيدخله الجنـة.. ومـع الهجـوم الـذي كنـت أقابلـه مـن أهـلي والكنيسـة، لجـأت لبعض الشـيوخ المسـلمين أيضًـا فقابلـت نفـس العقـول والعقليـات، وأصبـح الهجـوم عـليَّ حـتى مـن الشـيوخ المسـلمين في بلـدتي، البعـض منهـم ظـن أني أريـد أن أدخـل في الإسـلام فحدثـني عنـه، دون أن يجيـب عـن استفسـاراتي أحـد ويُعرفـني أو يُفهمـني، بعدهـا صَمَـتُّ ولـم أتناقـش مـع أحـد بعـد ذلـك عمـا يـدور في رأسي، احتفظـت بأفـكاري لنفـسي، ولـم أفصـح عنهـا لأحـد، بعـد أن قوبِلَـتْ محاولـتي للتعلـم والفهـم بالاسـتنكار والرفـض وأحيانًـا بالسـب والتهديـد بالطـرد.

نطق السيد محمود متعجبًا:

- الاستنكار والطرد؟!!

هز رأسه موافقًا:

- نعـم الاسـتنكار، كأنـه ليـس مـن حقـي أن أسـأل أو أن أعـرف، عـليَّ أن آخـذ ديـني دون معرفـة ودون تعلـم، مـع العلـم أني عرفـت فيمـا بعـد أنـي لسـت أول شـخص يتسـاءل عـن هـذه الأمـور، فقـد علمـت مـن أحـد القساوسـة في بـني سـويف يسـمى بطـرس الرحبـاني، بعـد أن تزوجـت مـن إليصابـات، أنـه كان هنـاك أسـقف ليـبي يدعـى آريـوس عـاش في الإسـكندرية، أخـذ ينـادي بـأن الله إلـه واحـد غـير مولـود أزلي، أمـا الابـن فهـو ليـس أزليًّـا وغـير مولـود مـن الأب، وأن هـذا الابـن خـرج

مـن العـدم مثـل كل الخلائـق حسـب مشيئة الله، قـال لي بطـرس قديمًـا: كان هنـاك اختـلاف كبـير بـين القساوسـة؛ فمنهـم مـن قـال إن المسـيح وأمـه إلهـان مـن دون الله، وهـم البربرانيـة وهنـاك مـن قـال إن المسيح مـن الأب بمنزلـة شـعلة نـار انفصلـت مـن شـعلة نـار، فلـم تنقـص الأولى بانفصـال الثانيـة منهـا، وهـي مقالـة سـابليوس، وآخـرون يعتقـدون أن مريـم لـم تحبـل بـه تسـعة أشـهر، وإنمـا مـرَّ في بطنهـا كمـا يمـر المـاء في المـيزاب، وهنـاك مـن كان يومـن أن المسـيح إنسـان مخلـوق مـن اللاهـوت كواحـد منـا في جوهـره، وأن الابـن مـن مريـم، ويـرون أن الله جوهـرٌ قديـمٌ واحـدٌ وأقنـوم واحـد، ولا يؤمنـون بالكلمـة ولا بالـروح القـدس، وهـي مقالـة بولـس الشمشـاطي بطريـرك أنطاكيـة، ومنهـم مـن قـال إنهـم ثلاثـة آلهـة لـم تـزل صالـح، وطالـح، وعـدل بينهمـا، وهـي مقالـة مرقيـون وأصحابـه ومنهـم مـن كان يقـول بألوهيـة المسـيح، وهـي مقالـة بولـس ومقالـة الثلاثمائـة وثمانيـة عـشر أسـقفًا، بـل لقـد أخـبرني أن فكـرة لاهـوت المسـيح أصبحـت قانونيـة بالتصويـت وبفـارق ضئيـل أثنـاء مجمـع نيقيـة الأول، المهـم أنـني في النهايـة صمـتُّ وابتلعـتُ لسـاني في حلقـي، لكـن الدنيـا لـم تتركـني أبـدًا عـلى حـالي، دائمًـا المصاعـب والهـم والغـم كانـوا يطـاردوني في حيـاتي، كأن لـم يكـن هنـاك غـيري، كنـت أرى غـيري يحقـق أحلامـي ويعيشـها كمـا تمنيـت أن أعيشـها أنـا في حيـاتي، لكـنَّ الله أَبَى أن يعاملـني كأي شـخص لـه الحـق في الحيـاة أو تـذوق النجـاح حـتى ولـو لمـرة واحـدة، ومـع تقدمـي في العمـر كنـت أتعـرض دائمًـا للتخبـط ولكثـير مـن الفشـل في حيـاتي، لـم أجـد أي نجـاح في أي شيء حاولـت فيـه، لا أدخـل عمـلًا إلا بـاء بالفشـل، لا أقـترب حـتى مـن محاولـة جديـدة، إلا وأحاطتـني كل عوامـل الفشـل، كان ينتابـني الكثـير والكثـير مـن الغضـب في كل مـرة، حـتى الحـب كنـت دائمًـا أرى البنـات والنسـاء مـن حـولي ينفـرون ويبتعـدون عـني رغـم أني لمـا أكـن بهـذه الدرجـة مـن القبـح، كنـت كمـن كان مكتوبًـا عـلى جبينـه، ابتعـدوا عـني، لا تقربـوني، لـم يقبلـني بيـتٌ للمصاهـرة والـزواج مـن ابنتـه، دائمًـا قُبلـت

بالرفض دون إبداء أي أسباب، حتى لما بدأت عملًا خاصًّا بي، فشلت فشلًا ذريعًا، لم يفشله أحدٌ من قبلي، خسرت كل أموالي وبضاعتي، والمال الذي كنت اقترضته من أبي والذي أعطانيه إياها على مضض، يومها لم أتحمل، لم أعد قادرًا على كبت ما بداخلي، كان وقت الانفجار قد حان، وقفت وسط الطريق غاضبًا والناس ملتفين من حولي يمصمصون شفاههم، شعرت بكرهي لنفسي وللحياة ولكل من حولي، لكل من أراهم ينجحون ويتقدمون، حتى مَن لا يحاول أن يفعل شيئًا ينجح في حياته، كان النجاح والمال يأتيان إليه على عتبة بابه، صرخت لماذا أنا؟! لماااذا؟ صرخت وأنا أرفع رأسي للسماء، أنت ظالم.. أنت إله ظالم، لا تعدل بين الناس، تعطي كل الناس كل النجاح أو حتى بعضًا منه، ولا تبليني إلا بكل الفشل، تختصني أنا بالفشل وحدي دون غيري، لماذا أنا؟ ماذا فعلتُ لكَ كي تفعل بي كل هذا، حتى أهلي مهما حاولت إرضاءهم، مهما حاولت أن أظل مطيعًا لهم وتحت قدميهم، يتهموني بأني أنا الابن العاق من بين بقيه إخوتي، الذين تزوجوا وابتعدوا عنهم ولا يزوروهم إلا كل شهر أو حتى كل بضعة أشهر، وأني سأكون من سكنة جهنم في الآخرة، أخلقتني لشبث على زبانية الجحيم تفترسني على الأرض وفي الآخرة؟ جعلتني مُسخة ضائعة بين أهلي وأقراني، لم يعد أحد يريد الاقتراب مني، الكل ينفر ويبتعد عني، وأنت السبب، أنت من خلقتني، وأنت من قدرت لي حياتي وجعلتني أعيشها مرغمًا، ارحمني من هذه الدنيا الملعونة، لا أريد أن أحيا حياة لم أخترها، لم أختر فيها حتى اسمي، أو أهلي، أخلقتني لأعبدك؟ أم خلقتني لتفعل بي كل ما تشاء لتبعدني عنك وتنفرني منك؟ أم خلقتني لتعذبني في الدنيا والآخرة؟ أنت إله ظالم، ظالم، ظاااااالم.

ثم اعتدل في جلسته وبدا على ملامحه شيء من العصبية وهو يُكمل:

هـل خلقنـا الله ليذيقنـا مـرارة الحيـاة؟! هـل خلقنـا ليعبـث بحياتنـا ويشـاهدنا نتعـثر ونتعـذب في الأرض حـتى نكفـر بـه فيقبضنـا ويعذبنـا في الآخـرة؟! هـل خلقنـا ليلهـو بنـا..؟! لمـاذا قطـع اتصالـه بنـا؟! قطـع وحيـه وقطـع رُسـله وتركنـا في عزلـة نُقطِّـع ونـأكل بعضنـا البعـض بسـكين بـارد، لا نـرى معجزاتـه ولا فضائلـه، لـم نعـد نـرى إلا لعناتـه الـتي يصبهـا علينـا.. أي إلـه هـذا! أشـعر بالغضـب كثـيرًا حـين أرى مـا وصلنـا إليـه، وفيمـا وصـل إليـه حـالي، لقـد تركـني تائهًـا ضائعًـا لا أجـد أمـلًا في هـذه الحيـاة الملعونـة.. لـم أدعـه مـرة وأجابـني إلا بمـا فيـه فشـلٌ لي، وضيـاعٌ أكـثر لحـالي، حـتى شـعرت مـراتٍ أني أكرهـه.. قـال لي أحدهـم إن الله يعـرف مصلحتـك فيجيـب لـك الدعـاء الـذي ينفعـك.. ولا يجيـب مـا يمكـن أن يـضرك، صرخـت فيـه.. هكـذا وصـل إليـه حـالي وهـو يعـرف صالحـي.. فمـاذا لـو كان لا يعـرف مـا هـو في صالحـي..؟! مـا كان سـيئول إليـه حـالي بأكـثر مـن هـذا سـوءًا وضياعًـا وفشـلًا.. كيـف كنـت أصبـح أسـوأ ممـا أنـا فيـه؟!.. سـنوات مـن الفشـل والضيـاع والوحـدة والمـرار.. الـكل كرهـني.. أبتعـد عـن المشـاكل وأبتعـد عـن النـاس .. والنـاس تتربص بي وتخلـق معـي المشـاكل.. كأني المغضـوب عليـه في هـذه الأرض لا أرى إلا مـا يُضيِّـق صـدري بهـا أكـثر، رغبـت في تـرك الدنيـا والحيـاة... تمنيـت لـو أن في قلـبي ذرة مـن شـجاعة لأقـضي عـلى مـا بقـي مـن حيـاتي وأكـف عـن التنفـس.. لكـني جبـان لـم أقـدر.. لـم أقـدر إلا عـلى تـرك البلـد والابتعـاد.

ظلـت ملامـح السـيد محمـود جامـدة لا يبـدو عليهـا أي انفعـال، أو غضـب أو أي شيء، ربمـا هـذا مـن الأشـياء الحسـنة فيـه، فهـو يتقبـل النـاس ومَـن حولـه كمـا هـم، بحالتهـم السـيئة أو الحميـدة، لا يفـرق معـه ديـن الرجـل أو عرقـه، يتعامـل مـع البـشر عـلى قـدر إنسـانيتهم، ربمـا هـذا مـا دفـع السـيد إبراهيـم مرقـص للحـكي مـن البدايـة، فقـد عـرف أن السـيد محمـود لـن تتغـير معاملتـه أو نظرتـه لـه بعـد ذلـك، سـأل السـيد محمـود:

- أنت ملحد غير مؤمن بالله؟

رد السيد إبراهيم وهو يقلب كوب الشاي الذي أتى به أحد صبيانه:

- لا، أنا لست ملحدًا أو مشركًا أنا أعلم أن الله موجودٌ، فلم يأت هذا الكون أو يُخلق من تلقاء نفسه، لا بدَّ له من صانع، لكن أنا غاضب منه، أحيانًا أشعر بأني أكرهه، أشعر أنه خلقني ليعذبني ويكرِّهني في حياتي فقط، ثم يعذبني في الآخرة...، النتيجة أن أبي وأهلي قد اعتبروني غير مؤمنٍ وخارجًا عن ملَّتِهم، وطردوني خارج بلدتنا وحرموني حتى من وداع أمي، التي ماتت دون أن أراها أو أدفنها، ومن يومها إلى الآن لم أعد إلى هناك مرة أخرى.. تنقلت بين البلدان حتى اسْتَقَرْتُ ببني سويف لم أخبرهم بما حدث أو بما يدور في عقلي وبين ضلوعي، كنت قد قررت أن أدع أفكاري وغضبي ملكًا لي وحدي، هناك رأيت إليصابات لأول مرة، أحببتها، ظللت عدة أشهر أحاول التقرب إليها، فلما عجزت ذهبت لأهلها وطلبتها للزواج فقبلت بي ولم تمانع، أخبرتهم أني يتيم وليس لي أهل فلم يتشككوا، ورغم أن إليصابات امرأة متدينة ومن أسرة مسيحية متدينة، إلا أنها بعد الزواج لما حكيت لها عني وعمَّا حدث معي من قبل، تقبلتني ولم تنفر مني، رغم أني كنت في قمة رعبي من أن أفقدها، لكن لم أكن أريد أن أخدعها، قالت إنها لن تفرض علي أو تطلب مني تأدية العبادات المسيحية، لكن أهلها مع الوقت سيطلبون أن أفعل، ثم سيتشككون من ذلك إن لم أفعل، ولن يرضوا بغير ذلك بديلًا، فقررنا الانتقال للمحروسة لنبتعد عن أهل إليصابات أيضًا، لكن القدر لم يرحمني ويتركني فقد كان كل طفل تلده إليصابات يموت وهو ابن بضعة أشهر، حتى أتى أبانوب الذي سميته كما أرادت أمه دائمًا ما يمرض، وأنا أستيقظ كل يوم في خوف أن أسمع خبر موته في أي لحظة لأي سبب.

رد محمود في سرعة بصوت مخنوق متأثرًا بكلام السيد إبراهيم:

- لا تقل هذا، ربنا يخليه لك، تفاءلوا بالخير تجدوه.

ثم شبك أصابعه وسند بهما رأسه من الخلف وهو يقول في تردد:

- أحيانًا أفكر وأشعر بما تقول، لكن لا أجرؤ على البوح به لأحد، أو حتى لنفسي بصوت عال، أعتقد أن لا أحد يفهم الله أو يدري مشيئته، يخطر ببالي أحيانًا أفكار أشعر أنها ستؤدي بي للكفر فأنفضها عن عقلي وألجم أفكاري وأتناساها.

ثم ربت محمود على ركبة إبراهيم مواسيًا إياه:

- دع ما حدث للماضي، لا تفكر كثيرًا

هز السيد إبراهيم رأسه:

- لقد تعبت من كثرة التفكير، وفقدت أي أمل في صلاح الدنيا معي، ابتعدت عن أهلي وبلدي، وأحاول ألا أختلط كثيرًا بالناس هنا، المسيحيون أو حتى المسلمين على حدٍّ سواء، هنا ما دمت لا أعلن عمَّا في داخلي وأجهر به فأنا في أمان.

ابتسم السيد محمود وهو يقول مداعبًا:

- لقد فعلت الآن، ألا تخشى أن أفشي سرك؟

بادله ابتسامته وهو يقول:

- بل أعلم أنه الآن في بئر سحيق.

وبينما هما جالسان، سمعا صوت رجل يصرخ في الشارع كمن يشكو حاله، ولما اقترب منهما، اتضح أنه أحد أصدقائهم ومعارفهم، السيد عبد الحميد القماش تاجر المانيفاتورة، فنهضا يجذباه ناحيتهما محاولين تهدئته، وهو يصرخ وقد ألقى عِمَّته على الأرض من غضبه وضيقته.

أجلسه السيد إبراهيم وهو يربت على كتفيه بعد ما أحضر عِمة الرجل، نفضها ووضعها على رأسه من جديد وناوله كوب الماء الذي كان أمامه:

- اهدأ يا رجل، ما بك؟ ما الذي حدث لكل هذا؟

رد يـد الرجـل بكـوب المـاء ونطـق غاضبًـا بصـوت عـالٍ وهـو يشـد ملابسـه مـن عـلى صـدره يحـاول أن يمزقهـا، والسـيد محمـود يحـاول تهدئتـه وأمسـك بيديـه:

- بنـت الكلـب الـتي عـلى ذمـتي منـذ سـنتين، مطلعـة عيـني، ولـم أر منهـا يومًـا حلـوًا، كل أيامهـا نكـد وغـم وقـرف، زهقتـني مـن حيـاتي ومـن دنيـتي، الله يأخذهـا ويحرقهـا، أقسـم بـرب العـزة لـولا العيـل الصغـير لكنـت طلقتهـا ورميتهـا لأهلهـا أو في الشـارع.

قال السيد محمود:

- لما كل هذا؟ ماذا فعلت؟

نطق منفعلًا:

- وليـة نكديـة ملعونـة بنـت كلـب، مكـشرة في وجهـي دائمًـا، لا تبتسـم مهمـا حاولـت مداعباتهـا أو تلطيـف الأجـواء بيننـا كأني قتلـت أحـدًا مـن أهلهـا، تحدثـني والقـيء يـكاد يخـرج مـن بـين شـدقيها.. وأراهـا مـع الأخريـات مـن جيرانهـا تتحـدث فاغـرة فاهـا بابتسـامة تـكاد تصـل بـين شـحمتي أذنيهـا، حـتى حـين أنـام معهـا تظـل تحـتي كالجسـد الميـت، حـتى أنتهـي منهـا ثـم تنهـض تسـتحم وتعـود لتنـام كأن شـيئًا لـم يكـن، ومنـذ أسـبوع مـات عـم والدهـا الـذي بلـغ مـن العمـر الثمانـين عـلى الأقـل، فحولـت بيـتي إلى مناحـة ومندبـة، لا تنقطـع عـن البكاء والنحيـب والعويـل ليـل نهـار، مـا ذنـبي أنـا فليمـت أو يُحـرق بجـاز حـتى، لقـد رأى الدنيـا وشـبع منهـا وعاشـها وجَابَهـا طـولًا وعرضًـا، فليلعنـه الله وليلعنهـا هـي معـه وأهلهـا أجمعـين، مـا جريمـتي لأعيـش مـع هـذة المـرأة النكديـة اللعينـة.

ثـم نهـض واقفًـا ورفـع يـده اليمـنى لأعـلى وأصابعـه مضمومـة وسـبابته مفـرودة لأعـلى:

- أقسم برب العزة لأتزوج عليها هذا الأسبوع وآتي بها لتعيشَ معها في نفس الدار، والله لأُريها أسود أيام حياتها بنت الكلاب النكدية هذه، ولو نطقت بكلمة لأخذت ابني وألقيت بها في الشارع، لتندب وتولول كما تشاء.

ضحك إبراهيم ومحمود وبعض الرجال الذين التفوا حولهم في فضول، وقال أحدهم:

- صلِّ على النبي يا رجل، ستحل الأمور، إنهن ناقصات عقل ودين ألا تعرف؟

تحدث آخر قائلًا:

- إنهن شياطين خلقن ليذيقونا عذاب الدنيا ويكفروا عنا سيئاتنا.

فتح الجمع طريقًا بينهم لما لمحوا الشيخ الفسطاطي أحد شيوخ الأزهر بعمته وجلبابه المميزَين يقترب منهم، حتى وصل جوار الجالسين فأحضروا له كرسيًّا وجلس بينهم وربت على ساق السيد عبد الحميد قائلًا:

- صلِّ على من سيشفع فيك يوم القيامة يا رجل.

تمتم عبد الحميد والجمع كله بالصلاة على النبي، ثم تابع الشيخ الفسطاطي الحديث:

- النساء غير متشابهات، منهن أنواع وكل امرأة لها شخصية تختلف عن الأخرى، وربما هي مريضة أو مضطربة أو بها شيء يجعلها هكذا..

قاطعه عبد الحميد:

- وما ذنبي أنا؟!! لقد تحملت عامين معها فوق ما يحمل البشر.

تابع الشيخ الفسطاطي:

- عاملها على قدر عقلها، وانتظر، إن تحسنت، فشيء جميل، وإن لم تفعل فلن يلومك أحد إذا تزوجت بأخرى، لكن دون أن تلقي

بـالأولى في الشـارع كمـا سـمعتك تقـول وأنـا قـادم، بـل تعـدل بينهما حتى وإن ظلَّـت تسـيئ لـك، وأمـا عمَّـن قـال بأنهـن ناقصـات عقـل، فالمعـنى واضـح إلا لمـن عُميـت عليهـم، فناقصـات العقـل أي إن عاطفتهـن أغلـب عـلى عقلهـن وليـس لأنهـن أقـل ذكاء عـن الرجـال أو قـدرة عـلى التفكـير واتخـاذ القـرار، كلنـا سواسـية أمـام الله.

نطق عبد الحميد في زهق واضح:

- يـا عـم الشـيخ أنـت تتكلـم في موضـوع آخـر، اتركـني أفعـل مـا أراه يناسـبني وإن احتجنـا لفتـواك سـنأتي نطلبهـا منـك.

همهـم بعـض الرجـال حولهـم في اعـتراض عـلى طريقـة مخاطبـة شيخهم الأزهـري، وشـعر الشيخ الفسـطاطي ببعـض الحـرج فاسـتأذن الجالسـون ونهـض محـاولًا الانـصراف، وقـف السيد محمـود وربـت عـلى كتـف الشـيخ ملطفًـا الأجـواء وهـو يقـول:

- أُعذره يا شيخ فهو في غضب تملكه.

رد مبتسمًا:

- لا عليـك يـا ولـدي، لقـد قدمـت النصيحـة لوجـه الله، ولا أبغـي شـكرانًا.

انـصرف في هـدوء، وسـط معاتبـة النـاس لعبـد الحميـد، الـذي نهـض واقفًـا وهـو يقـول صارخًـا في غضـب بعـد أن لامـه النـاس وعاتبـوه عـلى قولـه:

- الشـيوخ لـم يعـد لديهـم مـا يفعلـوه سـوى الـكلام ليـداروا بـه مـا وصـل بـه حالهـم بعـد أن تعـروا أمـام النـاس، أنسـيتم حـين كانـوا يجتمعـون مـع الفرنسـاوية ويدعـون أنهـم يتفاوضـون لمصلحتنـا، ولمـا فـرض الفرنسـاوية الضرائـب عـلى النـاس وبالغـوا فيـه، لـم يفـرض عليهـم أي ضرائـب، وحـتى لمـا قامـت هوجـة أهـالي المحروسـة الغاضبـة عـلى الفرنسـاوية حاولـوا تهدئتهـم لمحابـاة أسـيادهم الفرنسـيين، لكـن

الناس طردتهم من الميادين ومن بينهم شر طردة، ثم حاولوا أن يصبغوا كلامهم بالدين كعادتهم، فقالوا إن هذه المتاريس تمنعهم من دخول الأزهر وساحته، وتمنعهم عن الصلاة، ومن البداية قبلوا من الفرنساوية وشاح دولتهم الفرنسية، رمز الدولة التي أتت علينا بالخراب والدمار، ومن جبنهم كانوا يرتدونه وهم ذاهبون لمقابلتهم في مقراتهم، وحين يخرجون يخلعونه، ويخبئونه تحت عباءتهم، حتى لا يراهم الناس، بل ويقولون في العلن إنهم لن يلبسوا هذا الطيلسان أبدًا، {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ}، والشيوخ الذين رتبوا المكيدة للرجل الوطني الشريف السيد عمر مكرم وغدروه به، وطلبوا الأموال وطلبوا إعفاءهم من الضرائب، إنهم شيوخ مُدعون، فليعافينا الله منهم، ومن مُدعي المشيخة والتدين.

رد قائلًا:

- يا رجل ليس كلهم فعلوا هذا، وليس كل شيوخ الأزهر سيئون، اتق الله، فمنهم من كان يقف كتفه بكتف أهالي المحروسة، بأجسادهم وأرواحهم قبل أموالهم.

رد عبد الحميد:

- لكن هؤلاء الأفاقين كانوا هم الأغلبية الظاهرة للأعين.

ثم انصرف وما زال على غضبه يرغي ويزبد، ولا ينوي التراجع عما في رأسه.

نفس الهراء، والأيام مختلفة..

- ٢٧ -

كان عيد الأضحى قد انقضى ومرت أيام كثيرة بعده، قصر فيها النهار من جديد، وبدأ الليل يطول مع دخولهم في فصل الشتاء، انخفضت الحرارة التي عانوا منها في صيامهم، وبدأت لسعة البرد تظهر، جلس السيد محمود ظهرًا أمام ورشته ينظر إلى السماء يتابع الغيوم التي بدأت تتجمع فيها من الأمس، وأرسلت مقدمات من أمطار خفيفة في الصباح، لما هو آت، رفع فنجان قهوته على شفتيه يرتشف منها في بطء، ظهر شبح ابتسامة خفيفة على شفتيه لما طاف بخياله ذكرى والده وهو في نفس جلسته يشرب القهوة ويسمعه يقول:

- القهوة لها طعم الزمن.. ورائحة الذكريات.. ومرارة الحياة.

لمح طفلًا صغيرًا يقترب منه وهو يمسك بكف رجل بدا أنه كان يسأل على ورشة السيد محمود الورداني، وأشار إليه وقال:

- هذا هو السيد محمود.

ثم تركه وجرى عائدًا من حيث أتى، رحَّب السيد محمود بالرجل وعلم منه أنه يحمل رسالة مكتوبة له من المنصورة، تعجب من أمر الرسالة، فلم يصله رسالة من أحد أقاربه من المنصورة من قبل، خصوصًا أن عمته توفيت قبل والده، وعمه توفي بعد أبيه ببضع سنين، وأمه وحيدة فلا خال ولا خالة له، إلا أن هذا لم يمنعه من استقبال حامل الرسالة في ترحاب، ودعاه للغداء، إلا أنه رفض لأمور مهمة تشغله، ورحل بعد أن ودعه السيد محمود وشكره على إيصال الرسالة، فض الرسالة ونظر إلى مُوقِّعها، فوجد الاسم مكتوب «محمد مصطفى الورداني»، لم يسمع بالاسم من قبل، لكنه واضح أنه في أغلب الظن ابن عم والده أو أحد أقاربه، قرأ الرسالة

في اهتمـام، وجـد الرسـالة بالفعـل مـن ابـن عـم والـده يدعـوه فيهـا إلى المنصـورة؛ لأن لـه إرثًـا في بيـت العائلـة القديـم، وفي قطعـة أرض واسـعة مـن الفداديـن الزراعيـة، أوضـح لـه في الرسـالة أن البيـت والأرض كانـوا ملـكًا لجـد والـده، وأنـه لـه حـق بالوصيـة الواجبـة، ورجـاه في آخـر الرسـالة أن يحـضر في أقـرب فرصـة، حـتى يشـاهد بنفسـه عمليـة البيـع وتقسـيم الأمـوال والتركـة، حـتى لا يُظلـم أو يشـك أن لـه حـق لـم ينلـه، وختـم رسـالته بقولـه الله تعـالى.: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، ووقـع باسـمه «محمـد مصطفـى الـورداني».

طـوى الرسـالة، ووضعهـا في جيبـه الداخـلي، وأكمـل يـوم عملـه في ورشـته حـتى اقـترب المغـرب، فأمـر صبيانـه، بالاكتفـاء هـذا اليـوم وغلـق الورشـة، هـواء الشـتاء البـاردة زاد عليهـم، بعـد أن انتهـت حـرارة هـذا الصيـف الـتي كانـت شـديدة، وتبعـه خريـف لـم يكتمـل وحلـت بـرودة الشـتاء مبكـرًا، غامـت الشـمس مـن بعـد أذان الظهـر بقليـل، ولـم تظهـر طيلـة اليـوم إلا دقائـق معـدودات عـلى اسـتحياء، وبعـد العـصر تجمعـت سـحب رماديـة، نزلـت منهـا قطـرات صغـيرة، تنـذر بمطـر قـادم، رفـع السـيد محمـود رأسـه للسـماء الملبـدة بالغيـوم وقـال وهـو يضـم عليـه عباءتـه مـن الهـواء البـارد الـذي بـدا يـزداد:

- يبدو أن نوة المكنسة ستبدأ.

رد عليه طاهر العامل بورشته:

- ربنا يسترها، هذة نوة أمطارها شديدة.

أخـذ السـيد محمـود المفاتيـح وعـاد مـسرعَ الخطـى، حـتى يصـل قبـل أن تمطـر، لكـن السـماء لـم تمهلـه، فتحـت أبوابهـا وهطلـت الأمطـار في عنـف، وأُضيئـت السـماء بالـبرق ورددت أركانهـا هزيـم الرعـد، امتـلأت الشـوارع بالمـاء والطـين في دقائـق قليلـة، وبينمـا هـو يسـير عـلى جانـب الطريـق، تزحلقـت قدمـه في الوحـل وسـقط عـلى ظهـره، وتوسـخت ملابسـه بالطـين، سـقطت عمامتـه عـن رأسـه، سـاعده بعـض المـارة عـلى

النهـوض، وعـرض عليـه أحدهـم أن يوصلـه لبيتـه، فشـكرهم جميعًـا، وعـاد يسـير في طريقـه متسـندًا عـلى جـدران البيـوت وهـو يفكـر، هـل كـبر في السـن للدرجـة الـتي يعـرض عليـه أحدهـم أن يسـاعده ويوصلـه للبيـت؟! هـل شـاخ قبـل الأوان؟! أم أن آوان شـيخوخته حـان ولـم ينتبـه؟ كادت أن تسـيل مـن عينيـه دمعـة، وهـو يـردد بصـوت خفيـض:

- لقد هرم ولدك يا أمي وصار يتعكز على الجدران.

وصـل إلى البيـت ودق البـاب، هرولـت السـيدة مريـم تفتـح لـه البـاب، لطمـت عـلى صدرهـا لمـا رأتـه غارقًـا في الطـين، مـن رأسـه حـتى نعليـه، دعتـه للدخـول في سرعـة، والأمطـار تهطـل وتـزداد مـع صـوت الرعـد في الخـارج، وضعـت إنـاءً كبـيرًا مملـوءًا بالمـاء عـلى النـار، وفي الحمـام ساعدته عـلى خلـع ملابسـه المتسـخة، مسـحت عـن وجهـه آثـار الطـين، وعـادت تحـضر المـاء الـذي أصبـح فاتـرًا، جلـس عـلى كـرسي الحمـام الصغـير عاريًـا، وهـي تحممـه كطفـل صغـير، تسـكب المـاء عـلى شـعره، وتزيـل بقايـا الطـين عـن وجهـه وعنقـه، نشَّـفت جسـده بفُوطَـةٍ مـن القطـن، ثـم لفـت عـلى جسـده مـئزرًا، حـتى أحـضرت ثيابًـا نظيفـة، سـاعدته في لبسـها، لحظتهـا فقـط شـعر بألـم خفيـف في سـاقه مـن أثـر السـقطة، تسـنَّد عـلى مريـم وصعـدا معًـا إلى الـدور العلـوي، كان أولاده متجمعـين أمـام المشربيـة المغلقـة يتابعـون مـن خلفهـا هطـول الأمطـار، جـرت هنـد في سرعـة ناحيـة أبيهـا حـين رأتـه، وقفـزت عـلى صـدره يحملهـا كمـا تعـودت منـه، حملهـا متأوهًـا هـذه المـرة، فسـألته في خـوف:

- هل أنت مريض يا أبي؟

قبلها على خدها وهو يرد في عطف:

- لا يا عين أبيكي، أنا فقط متعب من العمل.

أقبـل عـلي وحسـن يقبِّـلان كـفَّ أبيهمـا، الـذي دعاهمـا للجلـوس جـواره عـلى الطبليـة الـتي أحضرتهـا مريـم للـدور العلـوي، ووضعـت عليهـا الطعـام، بعـد أن أشـعلت بعـض قطـع مـن الأخشـاب وقـلاوح

الـذرة في قصعـة صغـيرة، بعثـت الـدفء في أوصالهـم، وأضـاءت المـكان بشـمعة وضعتهـا عـلى طـرف السـلم، وأشـعلت القنديـل المعلـق في السـقف، تراقصـت الظـلال عـلى الجـدران وهـم يتناولـون الطعـام، والسيد محمـود يـدور بنظراتـه بـين أولاده وزوجتـه،.. لقـد كـبرت في السـن وبلغـت مـن الكـبر مبلغًـا، لـم تعـد سـاقي تحمـلاني كسـابق عهدهمـا، خانـوني اليـوم وسـقطت في الوحـل والطـين، ربمـا يخونـوني مـرة أخـرى، لـم أتجـاوز الخمسـين بعـد، مـن أيـن حـلَّ عـلي هـذا العجـز المفاجـئ، هـل هـي لحظـات ضعـف تـأتي وتمـر؟! أم لأن أرى الفرحـة في عيـني هنـد والصبيـان، فأشـعر بـأني لـم تعـد ل نفـس القـدرة عـلى الإحسـاس والاسـتمتاع بالأشـياء كـذي قبـل.

أنهَـى طعامـه، وجلـس عـلى الأريكـة، نهضـت مريـم، وأحـضرت لـه الوعـاء الـذي يغسـل فيـه يديـه، قالـت وهـي تصـب عـلى يديـه المـاء:

- أحـضرت لي السـت إليصابـات بعـض القرفـة اليـوم معهـا مـن عنـد عـوض العطـار، سـأحضر لـك القليـل، سـتدفئ صـدرك، وتطـرد منـك التعـب.

هـز رأسـه أن نعـم، دون أن ينطـق، أنهـى الأطفـال طعامهـم وغسـلوا أيديهـم، وجلسـوا حولـه، بينمـا هنـد تسـلقت الأريكـة وصعـدت تجلـس عـلى سـاقي والدهـا المفـرودة، وصـوت الأمطار يعلو مـن الخـارج، وأضواء الـبرق تسـطع بـين الحـين والآخـر مـع صـوت الرعـد، عـادت مريـم بالقرفة يتصاعـد منهـا البخـار، رؤيتهـا فقـط تبـث الـدفء في العـروق، ناولتـه الكـوب، وحاولـت أن تجـذب هنـد لتـنزل عـن سـاقي أبيهـا، ليتمكـن مـن شرب القرفـة، إلا أنهـا تمنعـت ورفضـت، فأشـار إليهـا السـيد محمـود أن تتركهـا كمـا تريـد، فقالـت مبتسـمة وهـي تجمـع أواني الطعـام مـن عـلى الطبليـة وتمسـحها:

- أنت تدلل هذه الفتاة أكثر من اللازم.

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه وهو يقول:

- دعيها تتدلل في حياة أبيها.

ردت عليه مريم في سرعة:

- ربنا يعطيك طيلة العمر لتزوجها، وتزوج أبناءها.

تذكر فجأة الرسالة، وطلب من مريم أن تخرجها من ملابسه، فردت مبتسمة:

- أخرجتُ كل ما في جيبك، وأزلتُ عنه ما به من طين ووضعته جانبًا يجف.

لم يجد ما يقوله، سوى أن يبتسم لها شاكرًا، ذهبت بالأواني إلى المطبخ وعادت بعد قليل تحمل صينية عليها أكواب من القرفة، وزعتها على أبنائها، وتناولت الأخيرة في يدها وجلست على الكرسي المجاور للأريكة التي يتكئ عليها السيد محمود، سألته عن الرسالة، فأخبرها عما فيها، فسألته:

- وهل تنوي السفر إلى المنصورة؟

أجاب في هدوء وهو يضع كوبه الفارغ على الصينية:

- إن شاء الله حين تنتهي هذة النوة سأرتب لسفري إلى المنصورة، لا أعلم كم سيكون حجم إرثي أو كم يقدر بالأموال، لكن أي مال نتركه لأولادنا سيكون نافعًا لهم في مستقبلهم.

وضعت كوبها قبل أن تنهيه، وهي تقول متلهفة:

- خذنا معك إلى المنصورة لم نزرها من قبل، وأنت أصلك منها، وما زال لك فيها أقارب وأهل وناس، وهي فرصة حتى يتعرف أولادك بأقارب أبيهم وجدهم الذي لم يروه.

صمت لحظات يفكر فيما قالت وأعجب بفكرتها وقولها، لكنه تردد من رحلة السفر الشاقة ومتاعبها، فقال:

- دعيني أفكر وأرتب أموري وسأخبرك بما نفعل.

ارتفع صوت أذان العشاء من الخارج ضعيفًا، من بين صوت

الأمطـار المرتفعـة الـتي لـم تكـف منـذ بـدأت، فقـال متندمًـا:

- لقد نسيت من تعبي أن أصلي المغرب بعد عودتي.

نهـض توضـأ وصـلَّى، وقبَّـل أولاده، وأمرهـم بالذهـاب للفـراش، فامتثلـوا، وجـرت هنـد عـلى غرفـة والديهـا وقفـزت تحـت الغطـاء كالعادة وهـي تقـول:

- لن أنام في الغرفة الأخرى بمفردي.

- ٢٨ -

تحركت العربة التي يجرها الحمار، وعجلاتها تتزحلق غير متزنة، من الطين الذي لم يجف بعد في الطرقات، بسبب أمطار أنواء المكنسة الغزيرة، وعليها متاع السيد محمود وأسرته، وما يحتاجونه في سفرهم إلى المنصورة، سألت هند وهم يجمعون متاعهم، ويربطونها:

- هل سنسافر إلى المنصورة على الحمار.

ضحك السيد محمود وهو يجيب:

- لا يا صغيرتي سنركب مركبًا كبيرًا من شاطئ بولاق إلى المنصورة.

مرت عليهم أيام متعبة وشاقة في رحلتهم النهرية، حتى وصلوا إلى شاطئ المنصورة في صباح يومهم، وهناك اتخذوا عربة أخرى وضعوا عليها متاعهم بعد أن ساعدهم المراكبي وبعض الناس في إنزالها من المركب، بعد أن سألوا على بيت السيد محمد مصطفى الورداني، أكرى السيد محمود حميرًا للركوب، وصممت هند أن تركب أمامه على نفس الحمار، كان في نية السيد محمود البقاء في المنصورة لمدة عشرة أيام أو أسبوعين على أقصى تقدير؛ لذلك عهد الورشة لطاهر، وأوصاه بها حتى يعود.

المنصورة بلدة صغيرة يعرف أهلها بعضهم البعض، العمران فيها كان مقصورًا على الرقعة المحصورة ما بين نهر النيل والمدافن، والغريب يبدو فيها ظاهرًا لأي عين، كانت العيون تطاردهم في طريقهم، والألسن تتهامس فيما بينها متسائلة عن كون هؤلاء الغرباء؟! ولمن أتوا؟!

السيد محمد مصطفى الورداني يسكن على مقربة من المقابر، جوار مقام صغير لأحد الصالحين يسمى الشيخ المصري وهذا المقام

جزءٌ مـن المقابـر، الطريـق كان غـير ممهـد، والعربـة تسير متأرجحـة على الطريـق الـترابي، رقعـة الأراضي الخـضراء تبـدو للعـين متسـعة تبـدأ مـن خلـف البيـوت الـتي تختلـف في بنايتهـا وأشـكالها عـن بيـوت المحروسـة، نـزل السـيد محمـود مـن عـلى حمـاره ودخـل يسـأل عـن ابـن عـم والـده، نـاداه أحـد الأولاد الصغـار الـذي بـدا عليـه أنـه مـن أحفـاده، حـضر السـيد محمـد الـورداني، شـعره يبـدو مـن تحتـه عمامتـه ناصـع البيـاض، ولحيتـه بيضـاء أيضًـا وطويلـة، يرتـدي جلبابًـا أبيـض اللـون ويمسـك في يديـه مسـبحة، جـال في خاطـر السـيد محمـود أن الرجـل في هيئتـه هـذه كمـا يصفـون الرجـال الصالحـين في الأحـلام، لا ينقصـه إلا عبـاءة خـضراء عـلى كتفيـه، أو فـرس يطـير بـه، اسـتقبله السـيد محمـد الـورداني بالتهليل والترحـاب واحتضنـه كمـا يحتضـن الأب ولـده وهـو يقـول:

- مرحبًا بالغالي ابن الغالي، كأني أرى فيك والدك رحمه الله.

ثـم قبَّـل عـلي وحسـن وقبَّـل يـد هنـد ثـم حملهـا عـلى ذراعيـه، ودعـا السـيدة مريـم للدخـول إلى داخـل البيـت، وأشـار لبعـض الخـدم أن يحملـوا حاجيـات الرجـل وأسرتـه للداخـل.

بيـت السـيد محمـد الـورداني يبـدو إلى حـد مـا قديمًـا، لـه طابـع مملوكي، واجهـة البيـت بسـيطة بهـا نوافـذ عاليـة بعيـدة عـن أعـين المـارة، النوافذ عليهـا مشربيـات مصنوعـة مـن الخشـب الخـرط موضـوع عليهـا القُلـل، المدخـل مصمـم بطريقـة تجعـل مـن يجلـس في فنـاء البيـت محجوبًـا عـن أعـين الداخلـين إليـه.

الغـرف مبنيـة حـول فنـاء مكشـوف بوسـطه نافـورة، وهنـاك قاعـة كبـيرة في وسـطها «دُرقاعـة» عبـارة عـن مسـاحة مربعـة تفصـل بـين إيـواني القاعـة، في سـقف القاعـة فـوق الدرقاعـة قبـة مـن الخشـب تسـمى شخشـيخة بهـا فتحـات صغـيرة تسـمح بدخـول الهـواء البـارد، في الغـرف الداخليـة حـول الفنـاء كانـت النوافـذ والفتحـات واسـعة لتحريـك الهـواء وتبريـده داخـل البيـت.

الطابـق الأرضي واضـح أنـه مخصـص للرجـال - السـلاملك - كمـا كان يسـمونه في بيـوت المماليـك، وهـو معـد لاسـتقبال الـزوار، والقسـم الثـاني في الطابـق العلـوي خـاص بنسـاء البيـت - الحرملـك، لنسـاء البيـت مداخـلُ ثانويـة لا يسـتخدمها الرجـال تـؤدي إلى الطابـق العلـوي، الـدور الأرضي مبـني مـن الأحجـار، بينمـا الـدور العلـوي بالطـوب والأسـقف مـن عـروق الخشـب.

نـادى عـلى أهـل البيـت ليعرفهـم عـلى السـيد محمـود وأسرتـه، عنـده مـن البنـين ثـلاث وابنـة واحـدة، مصطفـى أكبرهـم، يليـه إسـماعيل ثـم فاطمـة الـتي تعيـش مـع زوجهـا فتحـي في بيـت أبيهـا، وأصغـر أبنائـه عـلى نفـس اسـمه محمـد، كلهـم متزوجـون ولديهـم بنـون وبنـات، احتـار فيهـم السـيد محمـود فلـم يعـرف مَـن ابـن مَـن، أو مَـن ابنـة مَـن، أنزلهـم في غرفـة مخصصـة للضيـوف، رحبـة، متسـعة، وجعـل الولديـن في غرفـة أخـرى أصغـر جـوار غـرف أحفـاده.

بعـد الغـذاء العامـر الـذي شـهد مذبحـة لبعـض الطيـور والأرانـب، وخـروف صغـير عـلى سـبيل الترحيـب بالضيـوف، اجتمـع الرجـال معًـا في مقعـدة بالـدور الأول تواجـه الشـمال تشـبه إلى حـدٍّ كبـير مـا يعـرف في القصـور الإيطاليـة باسـم لوجيـا عبـارة عـن شرفـة كبـيرة مكشـوفة.

تحـدث السـيد محمـد الـورداني، أو الشـيخ محمـد الـورداني كمـا يناديـه أبنـاؤه وأهـل المنصـورة، عـن الإرث، قـال في هـدوء وأمامهـم صينيـة عليهـا أكـواب الشـاي السـاخن:

- الأرض عبـارة عـن عشريـن فدانًـا، كانـت ملـكًا لجـدي، وهنـاك بيـت آخـر جـوار مسـجد الملـك الصالـح قبالـة الأرض، جـدي كان لـه أربعـة ذكـور وبنتـان، إحـدى البنـات ماتـت في حيـاة أبيهـا قبـل أن تـتزوج، وأحـد الذكـور عمـي عبـد الهـادي رحمـه الله، مـات أيضًـا في حيـاة أبيـه بعـد إصابتـه بـداء في بطنـه، لكنـه كان متزوجًـا ولـه أولاد، والآخـران أبي وأبـو أبـوك أي جـدك وعمـي صالـح الـذي تـوفي منـذ عـدة أعـوام ولـه أولاد

وزوجـة، أنـت سـترث نصيـب والـدك كلـه؛ لأنـه ليـس لـك إخـوة، وسـترث نصيـب أمـك الـتي ورثتـه عـن أبيـك أيضًـا، ونصيـب زوجـة أبيـك سـتأخذه لتعطيـه للمسـتحقين مـن أهلهـا، نصيبـك في الأرض سـيكون أربعـة أفدنـة ونصـف إلا قليـلًا، ولـك نفـس النسـبة في البيـت، وأنـا نويـت أن اشـتري منـك إن لـم تمانـع، ولـك أن تسـأل إن كان السـعر الـذي سـأعرضه عليـك مناسـبًا أم لا، ولـك أن ترفـض وتحتفـظ بالأفدنـة ونصيبـك في البيـت كمـا تشـاء.

رد السيد محمود مبتسمًا:

- وهـل أسـتطيع أن أعقـب بعـد قولـك، أنـا لا أعـرف عـن الأراضي والفلاحـة شـيئًا ولا أنـوي الإقامـة هنـا، ففـي المحروسـة حيـاتي وعمـلي ومسـكني، ولـم آتي هنـا أبـدًا مـن قبـل مـع والـدي أو بدونـه، ولـولا خوفـك مـن الله، مـا كنـتَ أرسـلتَ لي أو أخبرتـني أن لي إرثًـا عنـدك، فلـك مـا شـئت أن تشـتري وبالسـعر الـذي سـتعرضه عـليَّ، لـن أجادلـك فيـه ولـن أسـأل، فأنـا عـلى يقـين أنـك لـن تظلمـني أو تجـور عـلى حقـي.

رد الشـيخ محمـد الـورداني وهـو يرفـع يـده اليمـنى الـتي تمسـك المسـبحة:

- والله على ما أقول شهيد.

رد مصطفى الابن الأكبر:

- عـلى بركـة الله، اليـوم ترتـاح مـن تعـب السـفر، فقد كان سـفرك شـاقًّا، وغـدًا تخـرج معـي لـترى الأرض والبيت.

عقَّب السيد محمود:

- إن شاء الله.

فرفع الشيخ مصطفى يديه وهو يقول:

- فلنقرأ الفاتحة على ما اتفقنا، حتى يبارك لنا الله.. الفاتحة.

أمنـوا بعـد أن تمتـم كلٌّ منهـم بالفاتحـة في سره، ثـم قـال الشـيخ

محمـد:

- لقـد لاحظـت أنـك لـم تحـضر متاعًـا كبـيرًا معـك، يبـدو أنـك لـم تنـو أن تقيـم معنـا فـترة.

هـم السـيد محمـود أن يقـول شـيئًا، إلا أن الشـيخ محمـد أشـار إليـه مقاطعًـا:

- قبـل أن تقـول شـيئًا، ليكـن في معلومـك أنـك سـتمضي الشـهر كامـلًا معنـا في ضيافـتي، ولـن أقبـل بـأي رفـض.

ابتسـم السـيد محمـود وأعلـن موافقتـه، راضخًـا لدعـوة الشـيخ محمـد وإصراره، تبادلـوا أحاديـث التعـارف فيمـا بينهـم، وسـألوه عـن ورشـته، وأخبـار المحروسـة، وبالطبـع طلبـوا أن يقـص عليهـم عـن رحلتـه إلى جزيـرة العـرب بعـد أن عرفـوا منـه أنـه سـافر في الحـرب ضـد الوهابيـين، أخـبروه أن تـمَّ أخـذُ الكثـير مـن الشـباب مـن بيوتهـم عنـوة، وجندوهـم إجباريًّـا بالضبـط كمـا حـكى لـه عبـدالله مـن قبـل، ولـولا قـوة كلمـة الشـيخ مصطفـى عنـد أولي الأمـر، لأخـذوا الأبنـاء الثلاثـة للجهاديـة.

أمـا السـيدة مريـم فقـد ارتبطـت عـلى الفـور في صداقـة مـع فاطمـة بنـت الشـيخ محمـد، الـتي لـم تنفـك تحـكي لهـا عـن زوجـات أخواتهـا وعـن ثقـل دمهـن، وأنهـا أحيانًـا كثـيرة تتشـاجر معهـن، وأنهـا لا تطيقهـن أغلـب الوقـت، لكنهـا مـع ذلـك تحبهـن كأخواتهـا، كان يتخلـل كلامهـا الكثـير مـن الأمثلـة الشـعبية، تؤيـد بهـا كلامهـا أو تتمـاشى مـع موقـف يحـدث، رغـم أن أغلـب أمثلتهـا لا يعرفهـا أحـد، رحبـت بهـا وعرفتهـا بزوجـتيْ أخويهـا وأولادهمـا، دعتهـا للجلـوس جوارهـا وقالـت:

- نحن أقارب معًا، زيتنا في دقيقنا يعني.

ثم تابعت:

- أنـا لـم أرَ السـيد عـلي الـورداني، لكـن يبـدو أن زوجـك السـيد محمـود فيـه منـه شـبه كبـير، ففيـه ملامـح مـن أبي أيضًـا، صـدق مـن قـال مـن

خلف ما مات.

حضرت زوجة أخيها الأصغر مرحبة بمريم، فلم تكن حاضرة في لحظة التعارف، بدت من ملامحها وشكلها أنها ما زالت فتاة صغيرة، ربما لم تكمل عامها الثامن عشر، حيَّت السيدة مريم وقبلتها في وجنتيها كعادة النساء، مصمصت فاطمة بشفتيها متهكمة وهي تميل على مريم هامسة:

- بخرا وتزاحم على البوس.

ثم رفعت صوتها موجهة كلامها لزوجة أخيها:

- أين كنتي من حينها، لما لم تأتِ حين وصلت السيدة مريم؟ أم كان لا بد من الزينة حتى تقول لكِ جميلة، قال إيه فوطة بحواشي وماتحتهاشي، كل امرأة متعلقة من عرقوبها يا ستي.

كتمت الفتاة غيظها في صدرها، ولم تنطق برد رغم حرجها أمام الضيفة الحاضرة، ولأنها صغرى نساء الدار، وربما أجملهن، كانت أحيانًا تحاول أن تغيظ فاطمة، فبعد أن سمعت كلام يوجع البطن، مشت أمامها، متمايلة، واضعة يديها في وسطها وتميل بمؤخرتها يمينًا ويسارًا عن قصد، تغيظ أخت زوجها، كونها أجمل منها فوجدتها تقول:

- بدال مشيك بقبابك، شيلي شراميطك من أكعابك.

وكزتها مريم وهي تقول معاتبة:

- لا داع لهذا القول هي لم تفعل شيئًا، يبدو عليها ما زالت صغيرة.

أشارت فاطمة إلى زوجات أخيها، اللائي جلسن أمامهن:

- زعيط ومعيط ونطاط الحيط، كده اكتملن، اتلم المتعوس على خائب الرجا.

فاطمة هي سيدة الدار منذ أن توفيت أمها، تدير شئونه وتتصرف

فيه كما يحلو لها، زوجات أخواتها يعيشون معها تحت سقف واحد وينصاعون لأوامرها في البيت، ليس فقط لأنها أخت أزواجهن، أو سيدة الدار المسئولة عن كل كبيرة وصغيرة فيه، لكن لأنها سريعة الرد، لسانها لا يرحم، ترمي الكلام ولا تهتم إن تضايقت إحداهن أو حتى اشتكت لزوجها منها، فهي رغم أنها ليست الكبيرة إلا أن لها صوتًا نافذًا في البيت وتُطاع من بعد والدها، مع ذلك هي طيبة القلب، لا تحمل سوءًا لأحد في قلبها، ربما تجاذبها وتناحرها مع زوجات أخيها، بسبب اجتماعهن المتواصل ليل نهار، يقمن بأعمال البيت معًا، ويحضِّرن الطعام معًا، وكل هذا تحت قيادة وأوامر فاطمة، التي تعمل معهن يدًا بيد، كل أطفال البيت سواء عندها، لا تفرق بين أطفالها وأطفال أخواتها، رغم بعض الضيق الذي تحمله نساء الدار منها، إلا أنهن حَبَبْنَها؛ لأنها تدافع عنهن أغلب الوقت إذا تشاجرت إحداهن مع زوجها، وتمنع عنهم آذاهم، فلا تسمح لأحد منهم أن يضرب زوجته مهما حدث منها، حتى الأمثال التي لا تكف عن إطلاقها بداعٍ أو بغير داع، كان الكل يعتبرها أمرًا مضحكًا، فلا أحد يعرف هذه الأمثال أو سمع بأغلبها من قبل، ولا يعرفون حتى من أين تعلمت هي كل هذه الأمثال أو كيف عرفتها.

في المساء جلست مع فاطمة وعرفت منها أن أخاها الأصغر كان قد تزوج بفتاة أخرى من قبل، لكن يدها على حسب قول فاطمة «طويلة»، تأخذ أشياء لا قيمة لها وتخبئها في غرفتها بين ملابسها، أو في سحاراتها، حاول أن ينصحها كثيرًا، وهي أيضًا حاولت معها وأخبرتها كما يقول المثل: «اللص العيار ما يسرق من حارته شيئًا»، لكنها لم تكف ولم ترتجع، فطلقها، وأعادها لأهلها، حزن فترة، لكنها صممت على أن تزوجه بأخرى وطلبت منه أن يحمد الله أنه لم يرزقه منها بأطفال، فيكبرون ويصبحون سارقين مثلها، ذهبت إلى زوجته المطلقة وأعطتها مؤخرها وحقوقها الشرعية؛ لأنها مثل أبيها وأخواتها، لا يحبون أن يظلموا أحدًا، لكنها قابلتها بالردح والسباب،

فتركتهـا وانصرفـت بعـد أن تركـت مـا معهـا مـن مـال لأبيهـا، تنهـدت قائلـة:

- بعـد مـا آكل واتـكا قـال دا ريحـة عيشـكم مسـتكة، نـاس قليلـة الأصل، لا يثمـر فيهـم شيء، أبـو هـذه الفتـاة فقـير يعمـل عنـد أبي، وحالتهـم غـير ميسـورة، ورغـم ذلـك لا تكـف زوجتـه عـن الإنجـاب، كل عـام أو عامـين تنجـب طفـلًا، عندهـا مـا يقـرب مـن عـشرة أبنـاء الآن أو أكـثر لـم أعـد أذكـر، حبلـة ومرضعـة وقدامهـا أربعـة.

لـم تتمالـك السـيدة مريـم نفسـها وضحكـت، ظلـت تضحـك حـتى دمعـت عيناهـا، وسـألتها:

- من أين تأتين بكل هذه الأمثال، أنتِ امرأة غريبة.

هزت كتفيها:

- لا أعرف.. !! من الدنيا.

في الصبـاح بعـد أن اجتمعـوا وتناولـوا الإفطـار، طلـب عـلي وحسـن وهنـد أن يصحبهـم أبوهـم معـه، ليتفرجـوا عـلى الأرض الزراعيـة، ويركبـون الحمـير، أحـضر الشـيخ محمـد الـورداني كارتـة يجرهـا فـرس ناصـع البيـاض، ودعـا محمـود وأولاده أن يركبوهـا، نـادى عـلى إسـماعيل كي يذهـب معهـم، ليريهـم الأرض الـتي ورثوهـا والبيـت.

سـاروا عـلى نفـس الطريـق الـذي أتـوا عليـه، حـتى وصلـوا إلى مـنزل كبـير، أخبرهـم إسـماعيل أنـه دار بـن لقمـان، الـذي حُبـس فيـه أحـد قـادة الفرنسـاوية الصليبـين قديمًـا، قـال السـيد محمـود لأبنائـه:

- لقد كان جدكم الكبير لأمي، مشاركًا في هذه المعركة.

نمـت منهـم آه تعجـب وهنـد صفقـت بيديهـا سـعيدة بمـا تـرى وبمـا تسـمع، وقفـوا جـوار مسـجد علمـوا مـن إسـماعيل أنـه مسـجد الملـك الصالـح أيـوب ويطلقـون عليـه مسـجد المحموديـة، المسجد كان تحفـة معماريـة وبـه اسـتراحة للـزوار كان يقيـم فيهـا المماليـك الزائـرون قديمًـا،

هتف علي:

- إنه قريب الشبه من المساجد في شارع المعز لدين الله.

رد عليه السيد محمود:

- المساجد في بر مصر كلها أغلبها مبنية على طرازات قريبة من بعضها.

أشار إسماعيل على زمام الأرض الزراعية، وهو يقول:

- الأرض من خلف مسجد المحمودية، مرورًا بمسجد ريحان الذي يظهر هناك، وحتى بداية أرض الشيخ عبد القادر جارنا هي كل الأرض التي ستوزع في الميراث، ولك فيها النصيب الذي أخبرك به أبي الشيخ محمد، والبيت هو البيت القائم جوار مسجد ريحان.

رفع محمود يده فوق عينيه ليحجب الشمس كي يستطيع أن يرى جيدًا:

- إنه مسجد قديم.

رد إسماعيل:

- لم يجدده أحد من أيام عبدالرحمن كتخدا، أي منذ أكثر من مائة عام.

الفلاحون في الأرض بدا عليهم أن حياتهم مليئة بالبؤس والشقاء، النساء يعملن جوار الرجال الذين تشققت أيديهم كأرض ظمأنة لم تروَ منذ سنوات، ضامرات عجفوات في ملابسهن المتشحة بالسواد، حدادًا على حياتهن ودنياهن المزرية، ربما نسين كونهن إناث، جلابيب الرجال مربطوة على خصرهم بحبال، لا أحد يدري إن كانت مشدودة لتمسك الجلباب، أم لتربط على بطونهم وتقلل إحساسهم بالجوع، أصحاب الأرض من الفلاحين الفقراء هنا عانوا سنواتٍ، ولم يدركوا أن القصبة تغيرت وقل طولها للاحتيال عليهم، فقد كان يقتطع منها بوصة كل سنتين أو ثلاث ولم يدركوا هذا، إلا أنهم

اكتشفوا بعد سنوات طويلة أن القصبة المستعملة أصبحت ثلاثة أرباع ما كانت تستخدم منذ سنوات تحت حكم المماليك، بالرغم من أن الفدان الذي يدفعون عنه الضرائب ما زال يحتوي على نفس عدد القصبات، رائحة البرسيم كست الجو ولونه الأخضر فرش الأرض بمنظر مريح للأعين، وأحد الزارعين فرد ظهره واقفًا يتابع الزوار الغرباء وشعرات شاربه واقفة مثل أشواك القنفذ، فتهيبت هند من منظره.

نزل الأطفال الثلاثة يجرون في الأرض الزراعية، بعد أن وقف أبيهم مع إسماعيل تحت شجرة توت قريبة من طرف الأرض، جرت هند في خفة تحاول أن تسبق أخويها، وهي تتلفت لتلوح لأبيها كل بضعة خطوات، ثم تعود تنظر أمامها تحاول أن تتجنب السقوط وتطارد علي وحسن الذي سقط منكفئًا على وجهه، ضحك عليه علي، ونادى هند ليخبرها، فضحكت لما رأت حسن ينهض وقد اتسخت ملابسه طينًا، وعلى أرنبة أنفه أثر الطين الذي انغمس وجهه فيه، رأت كلبًا صغيرًا، طاردته حتى عادت إلى التوتة التي يقف تحتها والدها، أمسكها السيد محمود وقال:

- اتركي الكلب الصغير يعود لأمه، لا تضايقيه.

ردت وهي تتملص من بين يديه لتنزل:

- كنت سألعب معه قليلًا.

نزلت ودارت للناحية الأخرى من شجرة التوت، ورأت الكلب قد ابتعد هاربًا منها بين البرسيم، سمع والدها وإسماعيل صراخها:

- فاااار..

لحق بها أبوها وحملها مرة أخرى بين ذراعيه، مهدئًا إياها ومربتًا على ظهرها:

- لا تخافي إنه مجرد فأر.

أشارت للفأر وهي تصرخ:

- انظر يا أبي إنه يرقص!!

صـوب السـيد محمـود نظـره للفـأر، وأدار إسـماعيل رأسـه ناحيتـه، في نفـس الوقـت الـذي وصـل فيـه الولـدان عـلي وحسـن، ليشـاهدوا معًـا فـأرًا كبـيرًا ابتلـت فروتـه، يجـري بضعـف تشـتبك قدمـاه مـع بعضهمـا، فيسـقط عـلى جانبـه كلمـا حـاول النهـوض والجـري، ثـم دار عـلى نفسـه وسـقط عـلى ظهـره وتشـنج جسـده عـدة مـرات وهـو يـنزف دمًـا، قبـل أن يهـدأ ميتًـا.

- ٢٩ -

بعد الظهر بقليل تجمع الرجال ملتفين حول الغداء، حكى إسماعيل ما رأوه قبل الظهر جوار شجرة التوت، وأخبر والده الشيخ محمد أنه رأى عدة فئران يتصرفن بنفس الطريقة، كما شاهد فأرًا ميتًا جوار بيتهم، وآخرَين في مناطق متفرقة في طريقه إلى البيت في الأيام السابقة، خرجت الكلمات بطيئة من فم الشيخ محمد الذي جلس واجمًا:

- فليرحمنا الله، وليرأف بنا ويخيب ظني.

سأل محمود وقد خامره الشك أيضًا:

- وما هو ظنك؟!!

رد بصوت مبحوح:

- الطاعون.. أشعر به يدق على الأبواب.

سرى التوتر بينهم، وسأل علي والده، فهمس أنه سيخبره فيما بعد.

جلس الشيخ محمد واجمًا بعد أن أنهوا طعامهم، وبعد فترة من صمت بدأ يحكي لهم عن الأعداد الكبيرة من الناس التي لقت حتفها بسبب هذا المرض اللعين، بعد انتشاره عام ١٧٩١ و١٧٩٢ في أنحاء مختلفة من بر مصر، وكان من ضحاياه زميل دراسته وصديقه الشيخ مرتضى الزبيدي، ثم أتى مرة أخرى طاعون عام ١٨٠٠ أيام الحملة الفرنسية، قال إن الأخبار كانت تصلهم مع وصول المراكب النهرية، فعرف أن الطاعون فتك بمناطق الصعيد خاصة أسيوط، وأن الفرنساوية انزعجوا في شدة وخافوا واضطربوا من ذلك، فجردوا مجالسهم من الفرش، وكنسوها وغسلوها، وشرعوا في عمل كرنتيلات،

وأمـروا بحـرق الثيـاب الـتي عـلى أجسـاد المـوتى مـن الوبـاء، ومـع كل تدابيرهـم كانـت مستشـفياتهم تغـص بالمـرضى حيـث كانـت الحمـى الوبيلـة تحصدهـم حصـدًا، وفي أماكـن كان الفرنسـيون يعطـون جنودهم شرابًـا يعجـل بموتهـم مـن شـدة آلامهـم ومعاناتهـم مـن المـرض، فتـك المـرض بالكثـير وقـال البعـض إنـه اسـتوطن في المنيـا وأسـيوط ولـن يخـرج منهـا.

ثم أردف:

- لقـد وصـل هنـا منـذ سـنوات عـدة بعـضٌ ممـن تخرجـوا مـن القـصر العيـني، وفتحـوا عيـادة قرويـة هنـا بنـاءً عـلى أوامـر الباشـا الـوالي وكلوت بـك، فليسـاعدهم الله عـلى مـا هـو آت، وليرحمنـا أجمعـين.

بعـد العـصر خـرج الرجـال لحضـور عـرس أحـد الفلاحـين يدعـى عبـد الرحمـن، يعمـل في أرض الشـيخ محمـد، خـرج معهـم السـيد محمـود واصطحـب معـه عـلي وحسـن، وبالطبـع هنـد لـم تتركـه يغـادر البيـت إلا وهـو يحملهـا، مـروا تحـت أعـلام مـن الحريـر الأخـضر والأحمـر متدليـة مـن حبـل ممـدود عـبر الطريـق بـين بيـت العريـس وبيـت مقابـل لـه، وفوقهـم عُلقـت نجفـات عـدة مـن مصابيـح ملونـة، ومُـدت ظـلات مـن قمـاش الخيـام بلونـين أبيـض وأخـضر مـن أسـطح المنـازل، فأعطـت ظلًّا وارفًـا، مـر موكـب العـروس المغطـاة بشـال كشـميري أحمـر اللـون تحـت ظلـة ورديـة، محفوفـة بجمـع غفـير وهنـاك فتـاة تُهـوي لهـا بمروحـة.

اندهـش السـيد محمـود عندمـا علـم أن هـذا هـو التقليـد المتبـع وأنـه ليـس هنـاك بـذخ، بـل إن الفـلاح يشـتري للعـروس خروفـين ومائتـين مكيـال مـن الدقيـق، ومـا يتناسـب مـع هـذه الكميـة مـن الزبـد، هـذا غـير فاكهـة الموسـم، حـتى لـو اقـترض المـال مـن أجـل هـذا، وكل الأهـالي يُحـضرون الهدايـا معهـم للعريـس وهـم ذاهبـون للعـرس.

بعـد أيـام وصلتهـم أخبـار مـن دميـاط والإسـكندرية أن أوامـر محمـد عـلي باشـا أقـرت فـرض كردونـا صحيًّـا عـلى المـوانئ هنـاك، حـتى لا

يدخل الطاعون عبر الموانئ المصرية الواقعة على البحر المتوسط، قامت الشرطة والجيش هناك بحبس ضحايا الطاعون في مستشفيات الأمراض المعدية وحرق متعلقاتهم الشخصية، السفن القادمة من موانئ البحر المتوسط المشتبه في وجود الوباء على سطحها كانت تخضع لإجراءات عزل صحي أيضًا، فأُرسلت إلى السفن أوامر تخبرها أنها سترسو مجبرة فترة لا تقل عن أربعين يومًا في البحر بعيدًا عن الشاطئ قبل أن يُسمح لها بالدخول، كان أمرًا صعب التنفيذ لكن الصرامة والحزم التي اتبعهما محمد علي باشا لم تكن تسمح بالتهاون، فقد كان يخشى تفشي الطاعون أكثر في البلاد، فيفقد قدرته على السيطرة عليه وتحجيمه، ولم يكن أول من نفذ هذه التعليمات، فمدينة البندقية قد سبقته بنفس الأوامر لما منعوا السفن من الرسو على شاطئها بعد أن اكتشفوا أن الفئران التي تحملها السفن أحد أسباب انتشار الطاعون لديهم.

بعد أسبوع بالضبط وصلت قوات إلى مديرية الغربية، وهناك قابل ثلاثمائة شيخ من شيوخ القرى قائد القوات المسئول عن زمام المديرية، وأكدوا له أن فلاحيهم التابعين لهم لا توجد بينهم إصابات بالطاعون، اقتنع بكلامهم وصدقهم، لكنه علم بكذبهم بعد بضعة أيام لما وصلته الأخبار أن ستمائة وخمسون شخصًا، وهو تقريبًا نصف سكان إحدى القرى ماتوا بسبب الطاعون.

وفي قرية أخرى مجاورة اكتسح الطاعون أهلها فمات منهم الكثير، وفي لحظات امتزج حزنهم مع غضبهم مع القسوة التي عانوا منها مع أهلهم وذويهم من القوات والعساكر، قتل بعض الناجين من الوباء الجنود الذين أرسلهم محمد علي باشا ومنعوا القوات التي قدمت فيما بعد من استرداد جثث زملائهم، فأُرسلت الأوامر بتشديد وفرض تدابير أخرى ضد الطاعون في غاية القسوة، ففي كل القرى المحيطة المشتبه فيها، تم الفصل بين الضحايا الأحياء وأفراد

الأسرة الأصحاء، وضع المصابون في مراكزَ للعزل على أطراف القرى، والقرية التي يوجد بها إصابات تحاط بأكملها بكردون صحي يحرسه جنود تلقوا أوامرَ مشددة بإطلاق النار عند الضرورة، على كل مَن يحاول الخروج خارج الكردون، دون حتى أن يتحققوا إن كان مريضًا أو مصابًا أم لا، فالأوامر كانت صارمة، والتنفيذ كان حازمًا.

انتشر الخوف والفزع بين أهالي القرى القريبة والمدن الصغيرة، خوفًا من تسعُّر المرض، بعد أن ظهرت حالات ليست قليلة في المنصورة، كان أولها عبدالرحمن العريس الذي حضروا عُرسه من أيام مضت، بدأ يومه يشكو من تعب حل عليه، عَزَتْهُ عروسه أنه ربما أتخم نفسه في عشاء الليلة السابقة فأصابه سوء هضم، ارتفعت درجة حرارته، وفي المساء ظهرت بعض الأورام والخراريج تحت إبطه وأعلى فخذته، وبرزت بثور وراء أذنه، علت وجهه صفرة كصفرة الموت، وفي الليل ضاق نفسه ووجد صعوبة في التنفس، فكان نفسه يخرج ويدخل بصعوبة كأنه يعاني من تنفسه الهواء فبدا وكأنه يُصيح كالديكة، في صباح اليوم التالي ظهر خراج كبير في باطن فخذة العروس التي لم يكتمل أسبوعٌ على فرحها وشعرت بنفس التعب والهبوط الذي صاحب عريسها في اليوم السابق، في العصر استيقظ عبدالرحمن على غثيان استمر حتى بصق دمًا يميل إلى الاصفرار، مات في خلال يومين بعد معاناة دامت ساعات من التشنجات العضلية، ولحقت به عروسه بعد يومين، بعدها ظهرت حالات عدة في ديار متفرقة لم تكن حتى قريبة من بعضها، كانت آثار العدوى والمرض تظهر على المريض فتقضي عليه ويلقى حتفه في خلال يومين على الأكثر، وكثيرًا ما كانت العدوى تنتقل إلى بقية أهل المريض فيلحقون به إلى الدار الآخرة في نفس الليلة أو في الليلة التي تليها.

وقف الخطباء على المنابر يحذرون الناس والفلاحين من الطاعون،

وأنـه لـم يحصـد مـرض عـددًا مـن البـشر مثـل الطاعـون، فهـو الـذي قـوض دولًا بكاملهـا، وأفـنى شـعوبًا بأسرهـا، وقـال أحـد الخطبـاء إن النـبي -صـلى الله عليـه وسـلم- ذكـر الطاعـون فقـال:

- أتـاني جبريـل بالحمـى والطاعـون، فأمسـكت الحمـى بالمدينة، وأرسـلت الطاعـون إلى الشـام، فالطاعـون شـهادة لأمـتي ورحمـة لهـم، ورجـس عـلى الكافريـن، ووخـز أعدائكـم مـن الجـن، غـدة كغـدة الإبـل تخـرج في الآبـاط والمـراق، مـن مـات فيـه مـات شـهيدًا، ومـن أقـام فيـه كان كالمرابـط في سـبيل الله، ومـن فـرَّ منـه كان كالفـار مـن الزحـف.

وقال خطيب آخر في خطبته:

- عـن عائشـة رضي الله عنهـا: الطاعـون كان عذابًـا يبعثـه الله عـلى مـن يشـاء، وإن الله جعلـه رحمـة للمؤمنـين، فليـس مـن أحـد يقـع لـه الطاعـون فيمكـث في بلـده صابـرًا محتسـبًا يعلـم أنـه لا يصيبـه إلا مـا كتـب الله لـه، إلا كان لـه مثـل أجـر شـهيد.

كانـوا يحاولـون عـلى المنابـر الشـد مـن عزيمـة النـاس وحثهـم عـلى النظافـة والاحتمـاء بالبيـت والجلـوس فيـه.

في صبيحـة أحـد الأيـام، اسـتيقظ الأهـالي عـلى نسمة دافئـة في الأجـواء وسـماء زرقـاء رطبـة، ورائحـة النـدى والـزرع تغـزو الصـدور، ووصـول بعـض الأطبـاء مـن غـير المصريـين إلى المنصـورة، كان معهـم مـن يترجـم لهـم، أخبرهـم المترجـم أن هـؤلاء الأطبـاء أتـوا مـن البـلاد الـتي تقـع عـلى حـدود الدولـة العثمانيـة، واسـمها روسـيا، ملامحهـم غريبـة بالنسبه لأهـالي المنصـورة، فأغلبهـم كان أشـقر الشـعر بأعين زرقـاء كلجة مـاء، لـم يـروا كهـؤلاء بـشر مـن قبـل، لكنهـم سـمعوا عنهـم في حكايـات الحمـلات الصليبيـة الـتي أتـت عـلى البـلاد، الأطبـاء الـروس لـم يكـن في نيتهـم الخفيـة عـن الأهـالي علاجهـم مـن الطاعـون، بـل اسـتخدامهم لدراسـة المـرض، فطلبـوا مـن بعـض النـاس الذيـن اختاروهـم أن يرتـدوا ملابـس مـن أصيبـوا وماتـوا بمـرض الطاعـون، عـلى أنهـم سـيدفعون

لكل واحد منهم خمسة قروش لليوم الواحد، لم يصدق الأهالي خصوصًا الفقراء منهم، في ظل الظروف الضنك التي يعيشوها هذا المبلغ مقابل عمل لا شيء، فبعض الفقراء منهم يعتبر أن نصف قرش في اليوم يكفيهم لسد حاجته ليوم كامل، أما خمسة قروش، أي شلنٍ كاملٍ، فمعناه أنه سيكفيه وأهله لمعيشة رغدة حسنة، وربما يدخر منه أيضًا، مع انبهارهم أمام العرض الروسي السخي، تجمع الفقراء وتدفقوا بأعداد كبيرة يعرضون نفسهم، لم يخطر في بالهم الخطر الذي يمكن أن يصيبهم، من تعرضهم وإصابتهم بمرض الطاعون، كان لسان حالهم، أحيني وأطعمني اليوم، وأمتني غدًا، حتى إن أحد الرجال كان يلح قائلًا:

- في عرضك يا خواجة، أنا رجل فقير عجوز ولي أسرة معلقة في رقبتي، أرجوكم لا تقولوا لي لا وتردوني لأهلي خائبًا، ودعوني أرتدى الجلباب، أبوس إيدك يا خواجة.

حتى النساء تزاحمت حول البيت الذي يقيم فيه الأطباء الروس، يشجعون رجالاتهم، ويدعون من الله أن يعمل الرجال الذين يعولونهن ويرتدون الجلباب.

وقع الروس في حيرة واستغراب شديدين، فلم يمت أحد من لابسي الجلباب، رغم أنهم لجأوا بعد أيام لتسخين الجلاليب، ومع هذا ظل الفلاحون المساكون المحتاجون أحياءً رغم حماقتهم التي ألقت بهم في مستنقع جلاليب الطاعون، ظلوا أيامًا يأكلون الطعام المعد الوافر لهم، ولم يمت سوى أحد الأطباء الروس، ولم يعرف الأطباء الروس حتى كيف وصلت إليه العدوى رغم كل احتياطاتهم، لكن الأهالي اطمأنوا مما رأوا أن المرض غير معدٍ، لكن الفئران الموبوءة بدأت تخرج من جحورها مُجترئة على الناس في الشوارع والبيوت خصوصًا ناحية شط الترعة الكبيرة المعروفة بالبحر الصغير، مطلقة على الحياة براغيثها المُنغِّصة وروائح الموت الأسود الكريهة.

جنود الوالي وصلوا إلى المنصورة في تلك الآونة، في الفجر استيقظ السيد محمود على صهيل خيول كثيرة حول البيت نظر من شرفة غرفته فرأى كثيرًا من الجنود يتخذون مواقعهم لمحاصرة البلد، كتائب الجنود وصلوا مصاحبين لأطباء مكافحة الطاعون لتنفيذ ما ينبغي تنفيذه للصالح العام، في الصباح عرف من الشيخ محمد أنهم أقاموا كردونًا صحيًّا حول المنصورة كلها، يمنع أي شخص من مغادرة البلد، أو حتى دخولها، يحرسه جنود لديهم أوامر بإطلاق النار على كل المخالفين مهما كانوا.

تجمعت السحب وهطلت الأمطار، كأن الأمطار كانت دموع السماء حزنًا على ما آلت إليه أحوال البلاد والعباد، ظهر الأطباء الغربيون وسط الأطباء المصريين قليلي العدد، الأطباء الإيطاليين منهم كانوا يرتدون على وجههم قناعًا مخيفًا، ذا أنف معقوف أشبه بمنقار طويل بارز باللون الأبيض، كان غايته حماية الأطباء الذين يتعاملون مع مرضى الطاعون من انتقال العدوى؛ حيث كان الإيطاليون ربما نتيجة تاريخهم السابق وصراعهم مع الطاعون، يعتقدون أنه مرض ينتشر عبر الهواء الفاسد والأجواء الضارة، فاخترعوا هذا القناع بمنقاره الطويل، وكانوا يعطرونه بالروائح الجميلة مثل الورد المجفف، والأعشاب، والبهارات.

رغم تهافت الأهالي في البداية للتعاون من أجل الشلن اليومي مع الأطباء الروس، إلا أنهم قاوموا أوامر الأطباء هذه المرة بعد أن أشاع البعض بينهم أنهم يأمرون الأطباء المسلمين بفعل أشياء تتنافى مع الشريعة الإسلامية، لكن تطبيق النظام والأوامر بالنسبة للجنود لم يكن أمرًا يُسمح فيه بالنقاش، تم فرض الأوامر بشمولية ودون تهاون، رغم أنهم أخذوا الحالات الاجتماعية في الاعتبار، فأهالي المنصورة من الطبقة المتوسطة أو العليا الذين يشتبه في مرض أحد أفراد أسرهم كان يتم ترحيلهم مع عزل أهل البيت، وفي المقابل

كان يتـم تجميـع أسر الطبقـات الفقـيرة بالكامـل المشـتبه في إصابـة أحـد أفرادهـا بالطاعـون ليـلًا ونقلهمـا إلى مراكـز الحجـر الصحـي عـلى حافـة المدينـة، الفصـل بـين الضحايـا الأحيـاء الذيـن يوضعـون في العـزل وبـين أفـراد عائلاتهـم مـن الفلاحـين الأصحـاء يتـم بحسـم، سـواء في المنصورة أو في القـرى المجـاورة فكانـت القريـة الموبـوءة تحـاط بأكملهـا.

داخـل حـدود الكـردون الصحـي كانـت ملابـس ومتعلقـات المتـوفى بالطاعـون يتـم حرقهـا جميعًـا، تـم ترحيـل جميـع الفلاحـين الآخريـن، وفصلهـم حسـب الجنـس ووُضِعُـوا في حمامـات عامـة لتنظيفهـم وتطهيرهـم، تحميـم الرجـال كان فرضًـا لـم يُسـمح فيـه بالتهـاون أو التجـاوز عنـه، مهمـا كانـت منزلـة هـذا الشـخص، الممرضـات المدرَّبـات قُمـن بتحميـم النسـاء إجباريًّـا، احتضنـت مريـم هنـد بعـد أن قامـت الممرضـات بتحميمهـن بغلظـة، رغـم أن بطنهـا ممتـدة أمامهـا لتُعلـم الضريـر بحملهـا، ربمـا بسـبب ضيقهـن مـن الأعـداد ومـن بعـض المشـاجرات الـتي أحدثتهـا بعـض النسـاء معهـن، فالنسـاء مـن الطبقـة الغنيـة كأمثـال السـيدة فاطمـة بنـت الشـيخ محمـد الـورداني تعـودت عـلى إعطـاء الأوامـر وكان يكفيهـا إشـارة مـن أحـد أصابعهـا لتطـاع وينصـاع إليهـا الجميـع، فتجاذبـت العـراك مـع الممرضـات الـلائي يأمرنهـا ويوجهنهـا للطريـق الـتي تسـلكها أو الطريقـة الـتي سـيحممونها بهـا، جـال في خاطـر مريـم الفـرق الشـاسع بـين هـذا الاسـتحمام والاسـتحمام الذي اسـتمتعت بـه آخـر أيـام رمضـان، في الناحيـة الأخـرى للرجـال اكتشـف الأطبـاء أن الابـن البكـرى لإسـماعيل ابـن الشـيخ محمـد، لديـه بعـض البثـور خلـف أذنـه، فقـرروا احتجـازه، فحـاول أبـوه أن يأخـذه منهـم، تدخـل الجنـود وتجمـع اثنـان حولـه يمنعانـه، وضربـه آخـرُ ودفعـه ليسـقط عـلى الأرض، حـتى تـرك الطفـل ذا الأربعـة عـشر سـنة، كاد أن يتدخـل أخـواه وبعـضُ أصدقائـه، فخـاف السـيد محمـود أن يتطـور الأمـر أكـثر، فأمسـك بـه يمنعـه ونهـره الشـيخ محمـد وأشـار للباقيـن أن يكفـوا عمَّـا ينوونـه ورفـع صوتـه محتـدًا:

- لا تسلك مسلك الجهلاء، إن كان مريضًا سينشر بين بقية إخوته وأهله المرض، اتركه هم أعلم بصالحه، وليرحمه وليرحمنا الله.

ظهر أحد الضباط على صهوة جواده، يصرخ في الجنود أن يتراجعوا، بعد أن أعطوا الصبي للأطباء ليحجزوه، تعرف عليه محمود من صوته، فصرخ مناديًا:

- عبدالله.. عبدالله..

لمحه عبدالله الذي اشتعل في رأسه الشيب، ونمت لحيته البيضاء وطالت، نزل عن صهوة جواده مهللًا ومرحبًا بالصديق الذي غاب عنه سنوات، نظر محمود إلى التشوه في وجه عبدالله الذي أخفى جزءًا من ملامحه فلم يتعرف عليه إلا من صوته، حاول ألا يحدق في الأثر على وجه عبدالله الذي استقبله بين ذراعيه محتضنًا إياه في شوق، ووعده أنه سيأتي ليجلس معه بعد أن تهدأ الأجواء التي هم فيها ويحكي له ما حدث بعد أن لاحظ نظرة التعاطف في ملامح محمود.

بعد الانتهاء من الحمام قُدِّمت لهم ملابسُ نظيفة خالية من البراغيث ووُضعوا لبضعة أيام تحت المراقبة الطبية، طُهِّرَت المساكن وتم تبخيرها بالكافور والصندل والمسك والعنبر، وفي كل وقت يمكن فيه التبخير دون الالتزام بجدول معين، أعطوا الفلاحين أوامر باستخدام ماء الورد والخلة لدهن أجسادهم وخلف آذانهم وتحت إبطهم وصدورهم، وأحيانًا ما كانوا يستخدمون طيب الصندل، كما كانوا يبخرون أبدانهم بالعود أو العنبر أو المستكة، أو قشر الرمان؛ حيث كانوا يضعون قشر الرمان على النار ويرش عليه الخل.

كان من التدابير الوقائية التي أعطوها للناس أيضًا الإقامة في الظل وفي الأماكن الجافة البعيدة عن التيارات الهوائية الباردة، والإقلال من الحركة الشديدة، فمُنع الناس من التجول في الطرقات دون

سبب مقنع، وأمروهم بوضع الملح في الماء قبل الشرب وعدم الاستحمام بالماء الساخن رغم برودة الجو، والالتزام بأكل النواشف فقط والبصل النيئ، والحوامض كالخل وماء الحصرم، أو الرمان، أو السماق، ومنعت اللحوم منعًا مطلقًا.

أطلق الجنود الرصاص دون تردد على أرباب الأسر الذين لم يقوموا بالإبلاغ عن مرض أحد أفراد أسرته بالطاعون، وأشعلو النيران في بعض البيوت التي ظنوا أنها تحتوي على أحد مسببات انتشار الطاعون، حتى لو كان فأرًا صغيرًا، كثيرٌ من الأهالي اعترض سبيل الجنود الذين يقومون بتجميع ضحايا الطاعون وأسرهم؛ حيث كانوا يأخذون الناس تحت جنح الظلام بالقوة الجبرية، والنتيجة كانت قتل بعض الأفراد رميًا بالرصاص، رُوِّع أهالي المنصورة والقرى المجاورة وعاشوا أيامًا مريرة، مليئة بموت أهليهم وأصحابهم، وتم منع الأهالي من تغسيل موتاهم ودفنهم في مقابر ذويهم، فالدفن الصحي للمتوفين كان في مقابر خاصة تُطمر بالجير الحي.

الأهالي لم تتعاون معهم نتيجة لتلك الإجراءات القاسية حتى بعد موت ذويهم، بدأ البعض منهم بحفر مقابر لموتاهم في ساحات دورهم، رغم صعوبة تجهيز الميت في بيته من أجل الدفن فلا يوجد النعش ولا المغسل ولا من يحمل الميت إلا بعد المشقة الشديدة، حتى الأكفان صارت عزيزة غير متاحة، البعض الآخر ممن كان يُخفي مرض أحد أفراد أسرته يترك الجثة في أحد الشوارع البعيدة عن بيته، بحيث لا يمكن التعرف إلى أي أسرة أو أي بيت تخص، وبذلك يجنبون أسرته العقاب أو التعذيب.

غيمت السماء غيمًا شديدًا، وسقطت الأمطار غزيرة كأفواه القرب مع صوت رعد شديد يهز جنبات السماء، مع برق متتابع في سرعة، متصل قوي اللمعان، يخطف الأبصار استمر طول الليل.

وفي الصباح أصبحت السماء صافية والشمس مشرقة، كأنها ما باتت

في غيم وشتاء، انتبه السيد محمود على صوت أحد الجنود ينادي باسمه من الخارج، اضطربوا، وانزعجت السيدة مريم ولطمت على صدرها، لكنهم اطمأنوا لما أخبرهم الجندي أن الميرلاي عبدالله يدعوه لخيمته بعد الظهر.

دخل محمود على عبدالله في الخيمة المغطاة بالشمع التي يقيم فيها رغم البرد والأمطار والقريبة من مراكز الحجر الصحي والعزل الذي يحتجزون فيها المرضى المصابين، اعتذر له عن عدم قدرته على زيارته في الأيام السابقة متعللًا بالأجواء المضطربة من حوله، علم منه السيد محمود أن الوفيات لم تتراجع وأن الطاعون ما زال ينهش في الأجساد، وأن القليلين فقط من استطاعوا المقاومة وعادوا لحالتهم الطبيعية بعد أن تجاوزوا هجمة الطاعون عليهم، سأله عن حاله، فأخبره أنه بعد أن تركه وغادر الجزيرة العربية، انضم للحملة التي أتت تحت لواء إبراهيم باشا، اشترك في كل المعارك معه من حصار الرَّس واحتلال بُريدة ثم فتح الشقراء ومن بعدها الدرعية، بعد أن حاصروها شهرين والمدينة مُستعصية عليهم رغم خُطط الحصار التي وضعها إبراهيم باشا بمعاونة الضابط الفرنسي المسيو فيسير، والتي لم يعملوا فيها حسابًا للعاصفة التي هبت على معسكرهم وأطارت نارًا كانت موقدة وسط مجموعة من الجنود، فأحرقت بعض الخيام وامتدت النيران لمستودع الذخيرة فانفجر، ونسف الانفجار ما يقرب من نصف ذخيرة الجيش من قنابل ورصاص، وأصيب يومها بهذه الحروق في وجهه فشوهت ملامحه، حتى أن أبواه لم يتعرَّفا عليه حين زارهم بعد عودته من الحرب، بعد الانفجار أصاب الذعر الجنود واضطربوا، لولا إبراهيم باشا الذي ألقى فيهم شجاعته وجَلَدَه، وشدَّ من عزيمتهم وأخبرهم أنه حتى لو لم يبق معهم إلا شجاعتهم فسيهاجمون العدو بالسلاح الأبيض، ثم أرسل يطلب الذخيرة من المواقع الأخرى التي يحتلها الجيش المصري، لكن الوهابيين علموا بما حدث لهم من فقد

للذخيرة، فهجموا عليهم، لكن الجنود المصريين نجحوا في ردهم على أعقابهم، واستمروا سجالًا في الحرب، حتى وصلت الذخيرة، وقرر إبراهيم باشا أن يضرب ضربته قبل أن يأتي المدد الذي أرسله الوالي على هيئة ثلاثة آلاف من المقاتلين تحت قيادة خليل باشا، كي لا يشاركه أحد في النصر على الوهابيين، وهجم على الوهابيين حتى لم يعد في مقدور الأمير عبدالله بن سعود المقاومة، فأرسل يطلب وقف القتال حتى يتم الصلح وأتى بنفسه إلى معسكر إبراهيم باشا، فقابله في خيمته بحفاوة وكرم، وتم الاتفاق على التسليم وإرسال الأمير عبدالله بن سعود، ورئيس وزرائه، والزعيم الروحي للحركة الوهابية إلى المحروسة، ومن هناك أُرسِلوا إلى الأستانة، حيث أمر السلطان بعقد المجلس في القصر القديم في العاصمة، دخل الأسرى الثلاثة إلى القصر مقيدين بسلاسل ثقيلة، محاطين بجمهور من المتفرجين، وبعد المراسيم أمر السلطان بإعدامهم، قُطعت رقبة الزعيم أمام الباب الرئيسي لمسجد آيا صوفيا، وقطعت رقبة الوزير أمام مدخل السراي وقطعت رقبة الثالث في أحد الأسواق الرئيسية في العاصمة، وعرضت جثثهم ورؤوسها موضوعة تحت الإبط على الناس طوال ثلاثة أيام ثم ألقوا بها إلى البحر بعد ذلك، قبل عودتهم أتتهم الأوامر بهدم الدرعية وحصونها وأسوارها، وتخريب منازلها، فنفذوا، دمروها وأشعلوا فيها النيران، فأصبحت أثرًا بعد عين، ثم ارتحلوا إلى مواضع عدة، وغزوا بعض المناطق، وتابعوا السير، حتى وصلوا القصيم، أخذوا معهم أميرها، حجيلان بن حمد، قاصدين المدينة المنورة، ثم عاد إلى القاهرة مع القوات في الحادي عشر من ديسمبر ١٨١٩، بعد أن استكملت القوات إخضاع المدن النجدية بعد أكثر من تسعة أشهر من تدميرهم الدرعية.

عاد للمحروسة ثم سافر مع الجيش من جديد ليشارك في حرب سيوة وفتح السودان، وظل هناك حتى عاد بعد تولي خورشيد باشا حكم السودان، وانضم إلى حاميات الوالي، وأصبح ميرلاي في

الجيش، حتى أتته التعليمات بمصاحبة الأطباء في حملاتهم لمقاومة مرض الطاعون.

في القاهرة كانت الأخبار تتجمع وترسل إلى الوالي لمتابعة أحوال ومدى انتشار الطاعون في البلاد، فعلم أن مساجدَ بلبيس وفنادقها وحوانيتها وحتى جوامعها امتلأت بالموتى، وتعطلت بساتين دمياط وأسواقها، وجفت أشجارها، لكثرة موت أهلها ودوابهم، في البحيرة تعطل الصيد بموت الصيادين في مراكبهم حتى السمك الذي يصطادونه كان يخرج في الشبكة ميتًا، وكان يوجد فيه الخراريج التي يصنعها الطاعون ونفقت أعداد كثيرة من الأبقار والجاموس بعد أن وُجد فيها أيضًا الخراريج، وصلت الأنباء للباشا الوالي أن الأعداد التي تموت في مصر ما بين العشرة آلاف إلى الخمسة عشر ألف نفس في اليوم الواحد، والأدوية لم تكن تُستعمل إلا قليلًا لسرعة موت المصاب بالطاعون، لجأ الناس إلى الورع والتقوى بعد أن أيقنوا باقتراب أجلهم، حتى إن البعض كان يحمل أوراقًا تحتوي على أسمائهم ومحل سكنهم حتى إذا ما صادفهم الموت في الطريق يتعرفوا على جثته.

- ٣٠ -

عـاد محمـود قبيـل المغـرب فقابلتـه زوجتـه مريـم وعـلى وجههـا مرسـوم علامـات فـزع ورعـب، أخبرتـه أن حفصـة ابنـة مصطفـى الـورداني أصابتهـا الحمـى مـن ليلـة أمـس، لكـن أمهـا أخفـت عنهـم الأمـر، واليـوم ظهـرت بضعـة خراريـج تحـت إبطهـا، توجـه إلى الشـيخ محمد عـلى الفور، ونصحـه أن يرسـل الفتـاة إلى الأطبـاء، أخـبره أن المـيرلاي عبـدالله قـال لـه إن البعـض تعـافى مـن المـرض، كان الوجـوم مرسـوم عـلى الوجـوه، والحـزن منقـوش في الصـدور، لـم يـدر أن المـوت يرفـرف بجناحيـه في جنبـات الـدار، قـال مصطفـى مـن بـين دموعـه:

- لا داع المسكينة لم تحتمل ورحلت منذ دقائق.

شـعر محمـود بقبضـة بـاردة تعتصر قلبـه، ولـم يجـد لسـانه مـا ينطـق بـه، خـرَّ جالسًـا عـلى الكـرسي المجـاور وقلبـه يهمـس:

- يا إلهي.. ارحمنا يا الله.

نطق الشيخ محمد من بين الدموع المكتومة في عينيه:

- شـدد عـلى أهـل بيتـك يـا مصطفـى، لا أريـد أن أسـمع صوتًـا أو صرخة واحـدة، سـندفن حفصـة خلـف الـدار، لـن نذهـب بهـا للقبور.

في كنـف الليـل وعتمتـه، كفنهـا جدهـا في عبـاءة مـن عنـده، وحملهـا بـين ذراعيـه، وتسـللوا في الظـلام، دون أن يضيئـوا أي قنديـلَ أو حـتى مشـعلًاواحدًا، مكتفـين بضـوء القمـر الباهـت الـذي تسـلل مـن بـين السـحب، حفـروا القـبر ووضعوهـا فيـه بعـد أن صلـوا عليهـا، بـكى الجـد أكـثر ممـا بـكى الأب، فقـد كانـت حفصـة مـن أقـرب أحفـادِه إلى قلبـه.

عـادوا للـدار وأمـر الشـيخ محمـد كل نسـاء البيـت بدهـن جسـد أبنائهـم بمـاء الـورد والخلـة كمـا أخبرهـم الأطبـاء، بعـد أن يحممـوا جميـع الأبنـاء

بماء بارد، حتى لو صرخوا من شدة البرد، ثم قام بنفسه بإشعال البخور في بهو البيت، وقام بتبخير كل أركان البيت بالكافور والصندل والمسك والعنبر، في الليل احتضن السيد محمود هند التي نامت بعد أن ارتعش جسدها من الماء البارد التي تحممت به في هذا البرد القارس، ظلت عينه مفتوحة يجافيه النوم، يفكر في القدر الذي ألقاه ليلقى الطاعون في بلد غريبة عنه، وسط أهل أول مرة يلقاهم في حياته، وتساءل كيف الحال في المحروسة وحال أصدقائه؟ وكيف يعانون؟ ومن منهم رحل عن الدنيا؟! ومن منهم ما زال يقاوم المرض؟! أسئلة تدور في عقله يحار فيها ولا يعلمها إلا من يكشف الغيب ولا تمنعه المسافات عن المعرفة، انتبه على صرير الباب، فاعتدل من نومته فوجد عليًّا يتحسس خطواته في الظلام، فناداه وسأله:

- لماذا لم تنم حتى الآن؟ وما الذي أخرجك من تحت الغطاء في هذا البرد؟

استيقظت مريم مفزوعة تسأل ماذا هناك، فأجاب علي أن حسن يسعل في شدة ويرتعش تحت الغطاء، هرول السيد محمود وزوجته إلى الغرفة الثانية، تحسس جبهة حسن، فوجدها ملتهبة كجمر الفرن، كشف عنه الغطاء، وتحسس تحت إبطه وفخذتيه، فلم يجد شيئًا، دثره بالملابس وزاد عليه الغطاء، وجعل مريم تذهب لتحضر بعض الليمون، وتحضر بعض الكمادات الباردة، داعيًا الله أن تكون حمى من البرد فقط، ظلَّا جواره حتى طلعت الشمس، عاد بعدها محمود إلى سريره جوار هند، بعد أن هدأت الحرارة قليلًا، وفي الصباح استيقظ على دخول مريم الفراش، فسألها كيف الحال، فأجابت وعيونها ثقيلة من أثر سهرها الليلة السابقة، أن الحمد لله قد هدأت الحرارة وأفاق حسن، وأنها تركته لفاطمة التي استيقظت.

جذبت الغطاء على كتفها وهي تتحسس جبين هند المتعرق،

فقالـت لزوجهـا:

- يبـدو أن هنـد محمومـة هـي الأخـرى، لـم يكـن هنـاك داع مـن تحميم الأطفـال في هـذا البرْدِ القَـارِسِ بمـاء بـارد.

ضمتهـا إلى صدرهـا وغلبهـا النـوم سريعًـا، اسـتيقظ محمـود عـلى صوت نحيـب هنـد الـتي اسـتيقظت باكيـة، اعتـدل جالسًـا، وحملهـا عـلى ركبتيه، وتحسـس جبينهـا، فوجـد حرارتهـا قـد زادت، أيقـظ مريـم وأخبرهـا أن تُعـد كمـادات لهنـد لأن حرارتهـا قـد زادت، عـادت مريـم وفاطمـة معهـا ووضعـت الأخـيرة كمـادة عـلى جبينهـا، فنهـض محمـود يتوضـأ ويصـلي الصبـح الـذي لـم يقـو عـلى صلاتـه في ميعـاده، وبينمـا هـو في جلسـة التشـهد الأخـير، جـاءه خاطـر يـرن في عقلـه، لمـاذا لـم يشـك في سـخونة هنـد وفحصهـا كمـا فعـل مـع حسـن، ألقـى السـلام عـلى اليمـين وعـلى اليسـار، ونهـض مـن جلسـة التشـهد مفزوعًـا مـن الخاطـر الـذي طـاف بعقلـه، هـرول ناحيـة السريـر يتخبـط في كل مـا هـو أمامـه، جـذب هنـد يحتضنهـا، وهـو يخـشى أن يكشـف عنهـا ملابسـها، فيجـد مـا لا يتمنـاه، سـألته مريـم وفاطمـة عمَّـا بـه، فلـم يجـب.

بـدأ في جـذب ملابسـها عـن سـاقيها، يبسـمل ويدعـو بشـفتيه ويديـه ترتعـش وهـي تمسـك ملابـسَ هنـد، لـم يجـد في بطـن فخذتيهـا شيء، فحمـد اللّٰه، فهمـت المرأتـان حينهـا لـم أتى مفزوعًـا ومـاذا يفعـل، كشـف عـن صدرهـا وسـحب الملابـس عـن ذراعيهـا كاشـفًا عـن إبطهـا، فوجـد مـا كان يخشـاه خراجـان صغـيران ظاهـران جليـان رغـم صغرهمـا.

وقـع في قلبـه الخـوف والرعـب، ضـم هنـد إلى صـدره، ودموعـه تسـيل مـن عينيـه، صرخ في قـوة رجـت البيـت ومـن فيـه:

- رحمتك يا اللاااااااه.

لطمت المرأتان على صدريهما، وصرخت مريم فزعة:

- يا خرابي.. يا خرابي.. ليه يارب .. ليييبه؟

وجـرت تحتضنهـا وهـي بـين ذراعـي محمـود، الـذي عـلا نحيبـه كطفـل صغـير.

تجمـع كل مَـن في الـدار، عـلى الصويـت والصريـخ والعويـل، وقـف الجميـع عـلى بـاب الغرفـة، وجـرى عـلي وحسـن الـذي أفـاق قليـلًا وجريـا ناحيـة أختهمـا يبكيـان ويرتميـان بـين أبيهمـا وأمهمـا يحـاولان احتضـان هنـد، ارتفـع صـوت الشـيخ محمـد مـن الخـارج صارخًـا:

- على ماذا تتفرجون، ابتعدوا من هنا.. اخرجوا.

ضرب بعصاتـه الـتي يتـوكأ عليهـا أقـرب الواقفـين إليـه، فابتعـد الباقـون كبيرهـم وصغيرهـم مهرولـين، دخـل الغرفـة، وأمـر فاطمـة بـأن تأخـذ عـلي وحسـن ومريـم وتخـرج بهمـا، صرخـت مريـم أنهـا لـن تـترك ابنتهـا، وأشـارت لعـلي وحسـن:

- اخرجا مع عمتكما ولا تقتربا من هنا.

قال الشيخ محمد في قوة:

- وأنت معاهم يا مريم وجودك لن يشفيها.

نهض محمود حاملًا هند بين ذراعيه وهو يقول:

- سأذهب بها للأطباء.. سيعالجونها وستشفى.

ربت عليه الشيخ محمد وهو يقول من بين دموع ترقرقت في عينيه:

- سآتي معك يا ولدي، إنها حفيدتي هي الأخرى.

صرخـت مريـم باسـم هنـد ومحمـود يحملهـا ليخـرج بهـا مـن الـدار مـع الشـيخ محمـد، وفاطمـة وبقيـة نسـاء البيـت يمسـكون بهـا ليمنعوهـا مـن الخـروج خلفهـم، ظلـت تـصرخ وتـصرخ حـتى سـقطت مغشـيًّا عليهـا مـن شـدة الإرهـاق، انطلقـت الكارتـة بهـم، تنهـب الأرض نهبًـا حـتى وصلـوا لمقـر الأطبـاء ومراكـز الحجـر الصحـي وأماكـن الحجـز والعـزل، قابلتـه إحـدى الممرضـات أخذتهـا مـن بـين ذراعيـه، وهـي تخـبره أنـه لا يسـتطيع الدخـول معهـا، صرخ وصمـم عـلى الدخـول معهـا، فتجمـع بعـض

الجنـود، وصرخ فيـه أحدهـم أنـه سـيطلق عليـه النـار إن لـم يرتجـع، جذبـه الشـيخ محمـد محـاولًا تهدئتـه، لكنـه اقتحم صـف الجنـود فقابلوه بكعـوب بنادقهـم حـتى سـقط عـلى الأرض والدمـاء تسـيل عـلى جبينـه، مـد يـده وهـو عـلى الأرض وسـحب سـيفًا معلقًـا في جـراب أحـد الضبـاط وهـب واقفًـا مـن جديـد، رفـع أحـد الجنـود بندقيتـه ليطلـق عـلى محمـود النـار، فعاجلـه بضربـة مـن طـرف السـيف عـلى يـده فطاشـت الطلقـة في الهـواء، اقـترب منـه يمسـك البندقيـة وهـي تسـقط مـن يـده، ولكمـه في فكـه، أدار البندقيـة بـين يديـه ليـضرب بهـا آخـر حـاول أن يضربـه مـن جديـد بكعـب بندقيتـه، وخطفهـا منـه، وأطلـق منهـا طلقـة عـلى أقـرب المهاجمـين عليـه، ثـم طـوح بهـا في وجـه آخـر، حـاول الشـيخ محمـد أن يلقـي بجسـده بـين الجنـود وبـين محمـود ليمنعهـم مـن الاسـتمرار في الـضرب فسـقط عـلى الأرض واقعًـا، بـدأ الجنـود في التجمـع عـلى أصـوات الصريـخ والشـجار، وصـوت الطلقـات الـتي دوت، في نفـس اللحظـة خـرج المـيرلاي عبـدالله مـن خيمتـه عـلى صـوت الشـجار الواقـع، فلمـا لمـح محمـود يـصرخ، وهـو يصـارع ويـصرع الجنـود هتـف بصـوت كالرعـد:

- تراجع أيها الجندي.. تراجعوا أيها الحمقى.

سـحب كرباجـه وهـوى بـه عـلى الجنـود الذيـن يهاجمـون محمـود، فأصـاب أقربهـم إليـه، تراجـع الباقـون مفزوعـين، مـن ثـورة قائدهـم غـير المتوقعـة عليهـم، تـرك عبـدالله كرباجـه يسـقط جـواره، ومـد يـده يسـاعد صديقـه عـلى النهـوض، ومحمـود يـصرخ مـن بـين ألمـه ودموعـه ودمائـه:

- هند يا عبدالله.. هند أخذوها مني بالداخل.

احتضنه في قوة محاولًا تهدئته:

- اهدأ يا محمود اهدأ.. ستشفى بإذن الله.

سـاعد الشـيخ محمـدًا عـلى الوقـوف وأمـر الجنـود أن يدخلـه لخيمتـه ويمسـحوا عنـه الـتراب، وسـند محمـود عـلى ذراعـه وسـار معـه إلى داخـل

خيمة الحجر، ولم يتركه إلا وهو جالس جوار هند النائمة على السرير، أمسك بيدها الصغيرة بين يديه، قبلها، وخرَّ راكعًا جوارها على الأرض يبكي وهو يقول:

- إنها الزهرة التي أنبتت الحياة في قلبي.. طفلتي الوحيدة، كيف يريد أن يحرمني الله منها؟

اقتربت ممرضتان منه، جذبوا يد هند منه في هدوء، وقالت له إحداهما:

- ما دمت ستجلس معنا سنقوم بتطهيرك كما نفعل مع الممرضين.

ثم قاموا بنزع ملابس هند عنها، وحضر آخر يأخذها ويحرقها في الخارج بعيدًا عن مكانهم، مسحوا جسمها بالمطهرات، وقاموا بوضع بعض الدهانات على الخراريج أسفل إبطها، وغطوها بالشاش، وسكبوا بعض أشربة الدواء في فمها، حينها عاد السيد محمود وقد ارتدى ملابسَ أخرى نظيفة، بعد أن تحمم وقاموا بتطهيره كما فعلوا يوم الاستحمام الجماعي، جلس جوارها وأمسك بأصابعها الصغيرة وعاد يناجيها وهي تائهة من شدة سخونتها.

وفي المساء حضر أحد الأطباء الأجانب مع إحدى الممرضات، ووجهه مغطى بكمامة، وقاموا بنزع الشاش عن الخراريج، ثم قام بفتحها وتصريف الصديد المتجمع داخل الخراريج، ثم طهرها مرة أخرى وقام بدهنها بدهان آخر معه، وغطاها من جديد بالشاش، وكان يأتي من يناوله بعض الدواء بالفم كل بضعة ساعات.

بات ليلته جوارها ساهرًا، يغفو وهو جالس، ويستيقظ حين تسقط رأسه على صدره، يغفو فيرى هند تجري وتلعب وتعلو ضحكتها كعادتها، ثم يفيق ليراها ممددة أمامه، تهذي في سخونتها، فيتذكر ما أصاب طفلته ونبض روحه وأمله في الحياة، ويعتصر الخوف قلبه خشية أن يفقدها، وفي البيت لم يكن حال مريم أو حتى علي وحسن بأفضل من حالها، ظلت مريم ساهرة جوار المشربية الكبيرة

التي ترى منها الطريق التي حملت هند إلى منطقة العزل التي أقامها الأطباء، تلمح أضواء نيرانها من بعيد، ودموعها تسيل على خدها وتغرق صدرها، لا تستطيع أن تمنعها أو تكف منذ أن عاد الشيخ محمد الورداني وقص عليهم ما حدث، جوارها غفا علي وحسن بعد أن ظلَّا مستيقظَين لوقت متأخر جوارها، لم يبق مستيقظًا معها إلا فاطمة تحاول أن تواسيها، وتصبرها، وتطمئنها بأن هند ستشفى وتعود لحضنها من جديد.

في الصباح انتبه محمود على صوت سعال هند، بعد أن خانته قواه وسقطت رأسه جوارها على السرير بعد الفجر بقليل ونام، نادى على ممرضة كانت جالسة قريبة منه، بعد أن زادت حدة السعال، حتى أصبح يخرج من فمها ومن أنفها قطرات ورذاذ من الدم مع السعال، مسحت لها الممرضة الدم، وأمرته أن يتراجع للخلف قليلًا، كشفت الملابس عن جسد هند فلاحظت تخثّر الأوعية بشكلٍ كامل، وانتشار الحبوب الجلديَّة في جميع الجسم، بعضها ظهر على وجهها، أعادت الملابس عليها، وعادت تجلس مكانها، سألها محمود:

- ماذا هناك؟ ماذا وجدتِ؟

ردت عليه في هدوء كأن الأمر لا يعنيها أو يخصها:

- ادع لها الله ليرحمها.

جلس جوارها، حملها بين ذراعيه وأراحها على ركبتيه، وجعل خده يلامس خدها، شعر بأنفاسها تتسارع، تكاد تعاني منها، لم يفكر في احتمالية أن يصاب بالطاعون من أنفاسها القريبة منه، ولا من دموعه التي سالت كنهر جارف واختلطت بدمها الذي لوث صدرها من سعالها، كل ما جال في خاطره أن صغيرته تحتضر بين يديه، ربما تلفظ أنفاسها الأخيرة الآن بين ذراعيه، لا يملك ما يفعل، ولو كان بإرادته لبادل حياته وعمره ومستقبله وأيامه كلها، بيوم تعيشه معه فيه من جديد، تذكر يوم ولادتها، وسبوعها، تذكر حين كانت

تصر على أن يحملها على كتفيه وهي معه في الشارع، حين تستقبله على باب الدار، حين عودته، بالصياح والفرح والضحكات، السعادة التي ملأت بها حياته، تضيع الآن وتنفلت من بين أحضانه، زادت نوبة سعالها، وأحس بها تنتفض بين ذراعيه، وجسدها ينتفض كأنه ينقبض وينبسط، مرت الدقائق سريعة، ثم هدأت فجأة بين ذراعيه، أحس بالموت الذي خطف روحها وترك له جسدها هامدًا ليواريه التراب، شعر بطعنة القدر بسكينه البارد يخترق ضلوعه ويستقر في قلبه، نهض واقفًا وهو ما زال يحتضنها بين ذراعيه، وخده على خدها، تحرك في هدوء ودموعه تفيض من عينيه، لم يبال بنداء الممرضة عليه، ولا بقولها أنه لا يستطيع أن يأخذها ويرحل، خرج وكأن كل ما حوله فراغ لا يعنيه ولا شأن له به، نادت الممرضة على بعض الجنود الذي وقفوا أمامه مرتبكين لا يعرفون ما يفعلونه، أيمنعونه ويجازيهم الميرلاي عبدالله، أم يتركونه يرحل بجثة الفتاة، فيجازيهم أيضًا، اعترضه أحد الضباط وحاول أن يستوقفه وملامحه تبدو عليها الشفقة والتعاطف، إلا أن محمود تجاوزه ولم ينظر حتى إليه، همَّ الضابط بأمر الجنود لتوقيفه، إلا أن صوت الميرلاي عبدالله أنقذ الجنود من حيرتهم لما أمرهم بالتراجع، نادى على أحد الجنود ليحضر له فرسين، وأسرع لملاقاة محمود الذي ظل سائرًا في الطريق ولم يلتفت إلى الفرس الذي أحضره عبدالله ليركبه، ربت عبدالله على كتف محمود الأيمن وسار جواره دون أن ينطقا بكلمة واحدة طوال الطريق، هطلت الأمطار خفيفة تبلل الأرض بعد أن غيمت السماء كأنها تشاركهم الحزن، بللت الأمطار ملابس هند، سالت بعض القطرات على خده وسقطت على وجهها، فضمها أكثر لحضنه ليحميها من ماء المطر، خرج بعض الرجال من بيوتهم لما رأوه يحمل ابنته، وساروا خلفهم، ازدادت الأعداد وتجمع الناس في مسيرة جنائزية مهيبة حتى اقتربوا من بيت الشيخ محمد، لمحتهم السيدة مريم من خلف المشربية، فهمت على الفور ماذا حدث،

صرخـت وارتفـع صراخهـا وعويلهـا، نزلـت مهرولـة تتكفأ عـلى وجههـا عـلى السلالم، وخلفهـا فاطمـة ونسـاء الـدار يحاولـن أن يمنعنهـا، قابلت محمـود واحتضنـت هنـد وهـي بـين ذراعيه لـم يفلتها، جلسـت في الشـارع أمـام الـدار تـصرخ وتنتحـب، وتحمـل الـتراب مـن الأرض وتضعـه عـلى رأسها، لحظتهـا خـرج الشـيخ محمـد ونـادى عـلى فاطمـة لتحمـل مريـم مـع زوجـات أخيهـا ويدخلنهـا الـدار، قابـل محمـود واحتضنـه وقبَّـل جبـين هنـد، لحظـات عصيبـة مـر بهـا محمـود وهـو يـرى طفلتـه الـتي لـم تعطهـا الحيـاة أي فرصـة للنجـاة تُكفـن أمـام عينيـه، رأى نـور حياتـه ينطفـئ، ويوضـع في الـتراب ولا يقـدر عـلى منعهـه، كانـت تخـشى أن تنـام بمفردهـا في غرفتهـا، والآن سـيتركها في ظـلام القـبر لحالهـا.

صلـوا عليهـا وأمهـم الشـيخ محمـد، دُفنـت جـوار حفصـة، جلـس جـوار قبرهـا يبـكي دون انقطـاع، والسـماء مـن حولـه مـا زالـت تبـكي ممطـرة، حـاول الشـيخ محمـد وأبنـاؤه ومعهـم الـميرلاي عبدالله الـذي لـم يـترك محمـود ويرحـل وهـو في هـذا الموقـف وعـلى هـذا الحـال أن يثنـوه عـن جلسـته هـذه، لكـن لـم يقـدر أحـد عـلى زحزحتـه مـن مكانـه، ظل جالسًـا في مكانـه حـتى انتصـف الليـل ودمـوع عينيـه لـم تنقطـع، بقيـت مريـم في غرفتهـا تبـكي وتنـوح مـن لحظـة أن أدخلوهـا عنـوة محمولـة إلى غرفتهـا داخـل البيـت، قبـل منتصـف الليـل بدقائـق بـدأت تشـعر بانقباضـات شـديدة تتسـارع في بطنهـا، ظلـت تتجاهلهـا وتكتـم ألمهـا، حـتى صرخـت متأوهـة في شـدة وفي ألـم وهـي تمسـك بطنهـا، بعـد أن شـعرت بـنزول المـاء:

- إنني ألد..

أشـارت فاطمـة إلى إحـدى زوجـات أخيهـا لترسـل أحـد الرجـال ليحـضر القابلـة الدايـة في سرعـة، وفي دقائـق كان محمـد أصغـر أبنـاء الشـيخ محمـد الـورداني قـد أحـضر الدايـة، وصلـت ومريـم تـصرخ وتتـازع وتتأوه مـن آلام الوضـع، حاولـت فاطمـة أن تسـاعدها عـلى تجـاوز لحظـات

الـولادة ببعـض الكلمـات وهـي تمسـح العـرق الـذي تصبـب عـلى جبـين مريـم، جلسـت الدايـة بـين سـاقيها ترشـدها وتدعوهـا للحـزق لمساعدة طفلهـا القـادم، حـتى خرجـت رأسـه للنـور مـن بـين ظلمـات الرحـم، ارتفـع صراخـه البـاكي قبـل حـتى أن يكتمـل خـروج بـاقي جسـده، قصـت الحبـل الـسري الواصـل بـين الأم وطفلهـا، وناولتـه لأمـه قبـل أن تمسـح عنـه مـاءه ودمـاءه، والطفـل يـصرخ باكيًـا كأنـه يعـترض عـلى خروجـه مـن رحـم أمـه، ولـم يهـدأ حـتى أخذتـه مريـم بـين ذراعيهـا تضمـه إليهـا.

أسرعـت فاطمـة تخـبر مَـن بالخـارج، وجـرى عـلي وحسـن ناحيـة أبيهـم الجالـس جـوار قـبر هنـد، ظـلَّا ينـاديـان عليـه حـتى اقتربـا منـه، نطـق الاثنـان معًـا وأنفاسـهما تتلاحـق، فلـم يفهـم منهمـا شـيئًا حـتى هـدأوا قليـلًا ونطـق عـلي:

- لقد ولدت أمي.

نهـض متثاقـلًا مـن جـوار القـبر، أمسـك بولديـه كلٍّ في يـد، وسـار معهمـا في بـطء إلى الداخـل، صعـد إلى الـدور العلـوي حيـث الغرفـة الـتي ولـدت فيهـا مريـم، تقـدم ناحيـة مريـم والطفـل الوليـد، ودموعـه تختنـق في مقلتيـه، ناولتـه مريـم الوليـد وهـي تقـول باكيـة مـن وسـط دموعهـا:

- إنها فتاة.

حملهـا بـين كفيـه، نظـر إلى وجههـا المسـتدير كالبـدر، وعينيهـا الصغيرتـين مغلقتـين، وصـوت بكائهـا ضعيـف، رفعهـا لأعـلى وهـو يقـول بصـوت مخنـوق بالدمـوع:

- هند..، هند محمود علي أحمد الورداني.

الكاتب في سطور

- من مواليد المنصورة 1981 .
- تخرج من كلية الصيدلة فى 2003.
- صدرت له رواية لا أحد يموت في هدوء.

للتواصل مع الكاتب :

facebook.com/muhammed.kamel.37

facebook.com/MuhammedKamelMkm

goodreads.com/author/show/16122204.Muhammed_Kamel

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش.

ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

kayan_publishing

Kayan.publishing

kayanpublishing

Kayanpublishing

KayanPublishing

+KayanPublishing